هكذا كان أصحاب

الإمام علي عليه السلام

أبو ذر الغفاري

- أنموذجا -

الاستاذ الدكتور

عز الدين ابو التمن

١٤٣٤ هـ ٢٠١٣ م

مكتبة السنهوري

www.haydarya.com

سابل الخاص

٠٧٧-٥٤٩٨٠٣٣

بسم الله الرحمن الرحيم

يسعدني ويشرفني ان اكون

كتابي الصدارة بهذه

رسائل رصوف الولاية للعلامة

العلامة صهاد الدين زين الدين

ع تاج الشدر الاخير

الشيخ

جمال الدين ابو علي

ابن الحسن

ل

هكذا كان
أصحاب الإمام علي (ع)

«أبو ذر الغفاري»
ـ أنموذجاً ـ

هكذا كان
أصحاب الإمام علي (ع)

«أبو ذر الغفاري»
ـ أنموذجا ـ

الاستاذ الدكتور
عز الدين ابو التمن

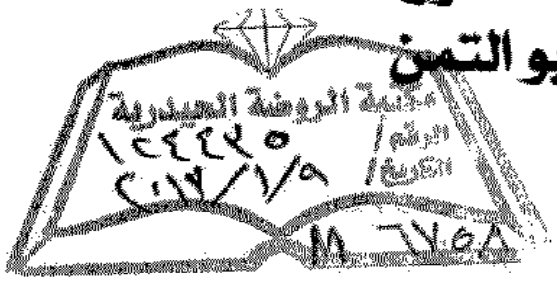

١٤٣٤ هـ ـ ٢٠١٣ م

الناشر
مكتبة السنوري
بغداد ـ شارع المتنبي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
بيروت ـ ٢٠١٢

لا يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام إلكتروني يمكّن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

مكتبة السنهوري ـ بغداد ـ شارع المتنبي ـ عمارة الكاهه جي ـ ط ١
هاتف: ٠٧٩٠١٨٢٦٤٣٩ ـ ٧٨٠١٩٤٤١٦١ ـ ٤١٦٠٧٢٧
safaa75200933@hotmail.com
alsanhury_library@yahoo.com

مكتبة الروضة الحيدرية
النجف الأشرف

المحتويات

الفصل الأول ٧
- المبحث الأول : من هو أبي ذر الغفاري ؟..... ٩
- المبحث الثاني : أبو ذر ونقاط التقاطع الانحرافية..... ١٥
- المبحث الثالث : أبو ذر خريج المدرسة العلوية ٢١

الفصل الثاني ٢٧
- المبحث الأول : أبو ذر هو الحل لا المشكلة..... ٢٩
- المبحث الثاني : أبو ذر والزمن الكاذب ٤١

الفصل الثالث ٤٩
- المبحث الأول : غربة أبي ذر..... ٥١
- المبحث الثاني : أبو ذر جرح في التاريخ ٥٨

الفصل الرابع ٧٥
- المبحث الأول : الرجعة النكوصية للإسلام..... ٧٧
- المبحث الثاني : القهر بالظلم لإقرار الظلم ٨٩

الفصل الخامس ٩٥
- المبحث الأول : الربذة المنبه لإعادة كتابة التاريخ ٩٧
- المبحث الثاني : أبو ذر ديمومة شمس الإسلام..... ١٠٨

الفصل السادس ١٢١
- المبحث الأول : رحيل النبي (ص) وظهور المتغيرات الدخيلة .. ١٢٣
- المبحث الثاني : التأسيس الأول لمفاهيم الخدعة..... ١٣٩
- المبحث الثالث : التاريخ صور متكررة ١٥٤

الفصل السابع ١٦٩
الحاكم الاسلامي وظاهرة النفاق..... ١٧١

الفصل الثامن..... ١٩٩
وقفة تحليلية ٢٠١

الفصل الأول

المبحث الأول:
من هو ابي ذر الغفاري

أبو ذر الغفاري هو جندب بن جنادة بن عبد الله، تقدم اسلامه، وتاخرت هجرته، فشهد ما بعد بدر من غزوات رسول الله (ص)، توفي منفياً بالربذة سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة، جعل أبو ذر الامام علي عليه السلام معياراً يحدد الصورة التي يجب ان يكون عليها الانسان المسلم المؤمن، وقد احتل هذا المعيار مكانة محورية في كل مفردات حياته.

اذن لا انفصام بين هذا الصحابي والقيم التي اكدها الاسلام، فهو مسلم مؤمن فاعل بهذه القيم ومنفعل لها، وقد اعطى أبو ذر لهذا المفهوم التفاعلي معنيين:

- المعنى الأول: التمسك بالحق وعدم التنازل عنه تحت أي ظروف او ضغوط مادية او معنوية.

- المعنى الثاني: الايمان لا يتحقق في عزلة او في ابتعاد عن منهج علي ابن ابي طالب، فنهج علي (ع) يمثل السياقات السماوية التي بنيت بناءاً على مبدأ الايمان برسالة محمد (ص) الاسلامية لتحقيق النموذج الانساني الذي يريده الله ((وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)).

فالمؤمن في نظر ابي ذر لابد ان يكون في حركة دائمة لتحقيق وترسيخ المبادئ الاسلامية الانسانية وعدم السماح باي وسيلة لتهميش

او تغييب هذه المبادئ، فاذا ظهر أي نوع من الاسترخاء تجاه هذه المبادئ او القيم فان الانسان يتحول من انسان مسلم الى انسان زائف، حيث يستبدل الاسلام بمنافعه الشخصية، وسوف ندرك فيما بعد ان مثل هذه المعايير القيمة لا تتلائم ولا تنسجم مع القيم السائدة في المجتمع الوبائي البدوي السطحي.

من هذا المنطلق الانساني الذي تبناه الصحابي الجليل ابي ذر، المنطلق الذي يرجح المسلم في مجتمعه الاسلامي من اجل تحقيق ارادة السماء يبتعد المسلم عن ذاته ويذوب في الجوهر الايماني ويعيش كمؤمن في جماعة المؤمنين، جماعة تتوحد اهدافها مع مفاهيم منهجية انسانية حركية تؤكدها شخصية الامام علي بن ابي طالب (ع) ومعطياتها التي تؤكد الوجود الحقيقي للمسلم المؤمن وهو الوجود الانساني.

اذن يمكن القول ان فلسفة أبو ذر الغفاري تمثل حالة عقلية لها مصدرها وآثارها ولليست حالة اجتهادية تفرز صوراً من الشعور والعاطفة، فلسفة تدور في صيغها المختلفة ربط الانسان المسلم بمفاهيم الدين الايمانية، مفاهيم تضمن حريته ومساواته دون النظر الى لونه او جنسه او عرقه او لغته او نسبه ((**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**)) ليس هناك حقوق مقدسة او موروثة وليس في المجتمع الاسلامي سيد وعبد وشريف وضعيف، وعربي واعجمي، وليس هناك اغلبية مسحوقة وقلة متميزة.

ان الحرية الحقيقية للانسان ((أي انسان)) عند ابا ذر ان يكون متحرراً من اية قوة على الارض ولا يكون ارادة او سلطة فرد او جماعة

او فئة، انسان مجرد من أي انتماء طبقي، لا يتحدد وصفه او قدرته او منزلته مسبقاً باي قوة خارجة، وعلى اساس هذا التكافؤ بين الناس يقوم صرح الفكر الاسلامي الايماني المحمدي العلوي.

ان نظرة سريعة على تعاقب العصور تكشف ان الكائن البشري وفي مختلف البقاع لم يعرف نمطاً فكرياً يشبه او يتقارب من النمط الفكري الذي نادى به هذا الصحابي الإيماني، ذلك انه في مختلف العصور ظهرت انماط مختلفة وتصورات متعددة وربما متعارضة، حول نموذج الانسان المنشود.

وهذه التصورات هي بدورها تعبير عن نوع القيم والمطامح لفلسفة معينة ولمجتمع معين وفي فترة زمنية تاريخية معينة، كما تختلف اهداف القيم في المجتمع الواحد تبعاً للمراحل التاريخية التي يمر بها هذا المجتمع، لذلك كان من الطبيعي ان تكون فلسفة ابي ذر فلسفة تتلائم وتنسجم وتشق مع كل المراحل التاريخية لايمانه بان الانسان هو الانسان، وان هذا الانسان يستجيب لما هو خير من قيم ومثل عليا، ومن هنا فرق ابي ذر الغفاري بين المفهوم الاسلامي والمفهوم الايماني، وقال ان الفرق جذري ما بين مفهوم يرمي في معناه الى ممارسة الاسلام كعادة وطقوس وحركات وقد مثل هذه الحركات والافعال المغطاة بالستار الاسلامي الى تراجع في القيم الاخلاقية والاجتماعية والروحية ومفهوم يرمي في معناه الى اعداد الانسان اعداداً يمكن من خلاله بلوغ انسانية الانسان والاعتراف بقيمته وحقه فيالاندماج بمجتمعه دون أي ضوابط او شروط ومن هنا تتحقق تربيته وجدانياً واخلاقياً وروحياً

وقيمياً مما يؤهله ان يكون عنصراً فعالاً ضمن حركة المجتمع لمحاربة العادات الفاسدة وانماط السلوك المنحرف عن جادة الاسلام وقيمه، رافضاً للظلم والطغيان والقمع والاستبداد بيده، وبلسانه، وبقلبه.

لقد تأثر أبو ذر الغفاري بكل منطلقاته الفكرية وابعاد شخصيته القيمية من الابعاد العميقة التي حددتها فلسفة الامام علي (ع) والتي تعكس اساساً تطلعات الانسان وتأكيد ذاته وضمان حريته.

وهذا يعني ان ابا ذر هو انتاج فكري لمدرسة بنائية متماسكة ذات دلالات معيارية استراتيجية توفر الاساس الاجرائي لمفهوم الايمان والذي يعني الرؤية الشمولية للاسلام بقيمه ومبادئه واتجاهاته وتطلعاته وغاياته وثقافته وتفضيلاته، اسلام غير قابل للتجزئة، او التحوير او التعديل والانحراف لانه نظام فكر لايخضع لعمليات التغيير او الاقلمة.

من هذا يتبين لنا ان ابا ذر الغفاري الـمٌ بجوهر عناصر المدرسة العلوية فأقام نسقاً فكرياً شمل شروط الحياة الاسلامية المرتبطة بدلالات مفهوم الايمان تكاملاً وتفاعلاً، فالايمان لدى ابا ذر يمثل القوة الفاعلة والمؤثرة التي تجعل المسلم يتصرف بطريقة معيارية لم يكن يتصرف بها لو لم يحدث ذلك التأثير الايماني وهذا يعني ان الاسلام والايمان يتكاملان في اطار كلي متشابك ومترابط ومتشابك المكونات يظهر بوضوح من خلال:

- ضبط القيم الروحية.
- ضبط القيم الاقتصادية.

- ضبط القيم السياسية.
- ضبط القيم الاجتماعية.
- ضبط القيم التربوية.
- ضبط القيم الثقافية.

من هذا تتضح العلاقة التفاعلية المعيارية بين الاسلام والايمان فالاسلام يرفع المسلم لقيم الايمان السلوكية والابتعاد عن القيم الاستهلاكية، فالرفاعية لايمكن ان تتحقق على جانب واحد يسمى ((الاسلام)) وانما الاسلام نقطة انطلاق لنمو فكري مترابط ومتعامد وجدانياً وتقيمياً ومعرفياً ونفسياً لرسم العلاقة بين الخالق والمخلوق تؤكدها اجرائياً قيمة الايمان وفي هذا الصدد جاء تأكيد الباري عز وجل على مفهوم الايمان: ((**قَالَتِ الاعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا**)).

وحتى لايكون هناك خلط بين مفهوم الاسلام ومفهوم الايمان فلا بد من الاشارة الى ان مفهوم الاسلام ليس هو النظرية الفكرية الاسلامية ببنيتها الكلية، ولكنه اداة فعالة في ترجمتها لابعاد مفهوم الايمان، وهذا يعني ان مفهوم الايمان هو الاوسع والاشمل من مفهوم الاسلام.

ولكي نتمكن من تأكيد ما اشرنا اليه، يمكن الاستناد لعدد من المؤشرات التي تعد بمثابة امثلة تصلح للحكم على الوجود الاساسي والعقلي لقيم الايمان، فقيمة المساواة مثلاً تشير الى تساوي الفرص امام افراد المجتمع وهي قيمة اساسية من قيم الفكر الاسلامي ولكنها لايمكن النظر اليها كقيمة ايمانية الا اذا تم تطبيقها فعلاً وعاش المجتمع الانساني

في حكمها وضوابطها، فلا وجود للتمييز الطبقي، وليس هناك تمييز بين انسان وآخر او جماعة وجماعة او مجتمع وفقاً لاي متغير كان، كمتغير الجنس او اللون او القومية او متغير المستوى الاقتصادي او الانحدار العائلي وغير ذلك من المتغيرات التي من شأنها ان تدخل كأداة للتفرقة والتمييز بين الناس.

المبحث الثاني:
أبو ذر ونقاط التقاطع الانحرافية

اذن عدم وجود مساواة في المجتمع يتقاطع مع قيمة الايمان وبالتالي يتقاطع مع المبادئ الاسلامية، وان الرجوع الى النظام الطبقي والتمييز بعد وفاة الرسول الاعظم (ص) ارتبط بالشروط الظرفية المسؤولة عن ميلاد اسلام جديد ليس له أي علاقة بالاسلام الذي جاء به محمد (ص)، وقد سعى المجاهد العقائدي أبو ذر الغفاري الى رصد مثل هذا الاسلام والى تحديد نقاط التقاطع من خلال صوته المرتفع الذي فرض نوعاً من الفزع والخوف.

ان الاختلاف الذي قام بين ابا ذر والانتشار الواسع للمخالفات النصية والسلوكية لشريعة ومبادئ الاسلام فرض نفسه باعتباره موقف مبدئي معقد لابد من فك رموزه واستكشاف اناقة الدلالية مسلحاً برؤية علوية للحياة التي ارادها الاسلام للانسان لتكون في النهاية مرآة ينعكس فيها الواقع الاسلامي وما يحمله من جماليات وافكار هي اعظم مما يحمله القادة الجدد من مفاهيم، نأخذ مثالاً على ذلك الاشارة القرآنية على تنصيب الامام علي (عليه السلام) خليفة روحياً بعد رسول الله (ص)، وانطلاق الرسول بعد حجة الوداع الى تبليغها للناس وضرورة الالتزام بها باعتبارها اختيار وقرار إلهي لايمكن مناقشته، وكان أبو ذر من اكبر

الشهود على هذا التبليغ الرسالي: ((**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**)) سورة المائدة – الاية٦٧، وهنا تساءل أبو ذر الغفاريفي ضوء معاييره الايمانية، ((لماذا طرحت قراءة جديدة لهذه الآية الكريمة تتقاطع مع ارادة الله ورسوله ؟)).

الم تكن هذه القراءة الجديدة تدميراً للحصون الاسلامية والاسوار التي كانت تسيج المنهج المحمدي ؟

هذا الوعي النقدي الذي امتلكه الصحابي الجليل أبو ذر احدث القطيعة بينه وبين حلقات السلطة وبرامجها اللامبالية في اختراق احاديث الرسول (ص) والنصوص القرآنية، قطيعة قامت على التعارضات المرتبطة بالقيم الاسلامية الايمانية، وهذا ما يسمى علمياً بـ ((الكون الاخلاقي)).

لم يثر صحابي ضجة بوجه الانحراف كتلك الضجة التي اثارها أبو ذر، فلقد اعلن رفضه الدوران مع المتغيرات الجديدة ومغالطاتها منطلقاً في رفضه هذا من حرصه الشديد على مستقبل الاسلام وحركته التطورية، لذلك ذهب في رفضه الى ابعد الحدود عندما انكر على الخلفاء الفرق في التنويعات الدنيوية وانصهارهم في مجموعات كانت اساساً من اشد اعداء الاسلام ورسوله، فاي انحطاط الذي يمكن يميز القرار الذي يجعل من ابن الطلقاء والياً ومتسلطاً على رقاب من جاهد بنفسه واموالـه لرفع كلمة الاسلام، واي انحطاط يمكن ان يوصف بسياسات تكرس بؤس البؤساء وترسخ وتعمق رفاهية الاغنياء، واي انحطاط يمكن ان ينظر اليه بحاكم يدعي الاسلام

ويقتبس حكمه وقراراته من ثقافته الجاهلية والانغلاق عليها وتجاهل الثقافة الاسلامية الانسانية الصادقة في مضمونها وحركتها واهدافها المنظومة القيمية الحديدية جعلت ابا ذر المؤمن يرفض رفضاً مطلقاً العزوة الجنونية التي اخترقت العقيدة الاسلامية، وقد استنجد أبو ذر بموقفه الرافض هذا بالتألق الديني القيمي الانساني الذي زوده نية والعلم والفقه وجمال الكلمة، وصدق التعبير، والغرق في الحضرة الإلهية، واتقان المعاني العميقة للايمان، وتفسير الكون بإله من مبدع يدير العالم بنفسه ويتجلى للبشر عبر رسله المتتابعين، إله يمثل الحقيقة المطلقة، انها مدرسة علي بن ابي طالب، الامام والوصي والخليفة والوارث، مدرسة الامام التي تعلم فيها ابا ذر وغرف منها بناءات الحقيقة.

لم يغب عن ابي ذر حقيقة اساسية وهي ان المؤشرات القياسية لحب الله ورسوله ياتي كنسق ونظام من حب علي، وهذا يعني ان الصياغات الرمزية لبنيان المسلم المؤمن يتجلى دورها القياسي والقومي في استراتيجية انجاز الابنية الثلاث الاساسية.

البناء الأول: حب الله عز وجل.

البناء الثاني: حب رسول الله محمد ((ص)).

البناء الثالث: حب ولي الله علي ((ع)).

وجاء تأكيد هذه الابنية الثلاث لبنيان المسلم المؤمن في حديث المعراج الذي نقله لنا حبر الامة عبد الله بن عباس حيث قال: في حديث

المعراج، ان الله عز اسمه قال لنبيه فيما قال: ((واني لم ابعث نبياً الا وجعلت له وزيراً، وانك رسول الله (ص) وان علياً وزيرك))[١].

وهذا بعينه ما جسدته الآية الكريمة: ((**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**)) ((سورة المائدة الآية ٥٥)).

وقد نجد في حديث رسول الله (ص) الاتي ترجمة اجرائية قيمية نوعية لهذه الآية الكريمة: ((يا علي انت مني بمنزلة هارون من موسى إلا انه ليس نبي بعدي))[٢].

ولربما لمثل هذه الكلية البنائية الثلاثية ((الله، محمد، علي)) كان تعلق أبو ذر الغفاري بمدرسة علي وفلسفته وتربيته، هذا اضافة الى ما ذكره أبو ذر نفسه عن الرسول الاكرم محمد (ص) من احاديث تعزز الحيوية الكبرى لهذه الثلاثية البنائية باعتبارها الدلالة المعيارية لمفهوم الحقيقة الاسلامية، ذكر أبو ذر الغفاري (رض) ان رسول الله (ص) قال: ((علي باب علمي ومبين لامتي ما ارسلت به بعدي...))[٣].

((علي خير البشر فمن ابى فقد كفر))[٤]. ((يا علي انت وشيعتك منابر من نور))[٥]. ((اعرف الحق تعرف اهله))، ((والحق مع علي

---

(١) الحسكاني: شواهد التنزيل / الجزء الأول / ص١٩٢ -١٩٣.

(٢) انظر: صحيح البخاري الجزء الثاني / ص٢٠٠ / وصحيح مسلم الجزء السابع / ص١٢٠ ، والترمذي الجزء الثالث عشر / ص١٧١.

(٣) انظر: كنز العمال / الطبعة الاولى / ص١٥٦.

(٤) انظر الى: الامامة والسياسة لابن قتيبة / ص١٧٨.

(٥) انظر مسند ابن حنبل / الجزء الرابع / ص٣٧٠.

وعلي مع الحق))[١]. ((ذكر علي عبادة)) و((يا علي لا يحبك الا مؤمن ولا يبغضك الا منافق))، ((علي اقضاكم))[٢].

ويذكر أبو ذر الغفاري (رض) ايضاً انه سمع رسول الله (ص) يقول لعلي(ع):((لولا اخشى ان تقول فيك طائفة من امتي، ما قالته النصارى في عيسى بن مريم، لأقول فيك كلمة لاتمر بها على ملأ، الا اخذوا من تراب نعلك ما يتشفعون به، ولكن حسبك انك وانا منك وشيعتك على منابر من نور يوم القيامة))[٣].

ثم ذكر رضي الله عنه ايضاً انه سمع رسول الله يقول: ((يا علي لو اجمع الناس على حبك لما خلق الله النار))[٤].

وكيف يمكن لشخص كأبي ذر الغفاري الذي يتصف بالذهنية المتفتحة، والفكر الناقد، والكلام الصادق المؤيد من رسول الله محمد (ص) بشهادته الكريمة: ((ما أقلت الغبراء، ولا اظلت الخضراء اصدق منك يا ابا ذر)) ان لا يكون مع علي ومع مدرسة علي ومع منهج علي، وهو يسمع رسول الله (ص) يخاطب عمار بن ياسر:

الرسول الاكرم: يا عمار انت في الطريق التي سار عليها والديك.

عمـــار: انشاء الله يا رسول الله، ولا زلت اتذكر يوم استشهادهما، رحمهما الله واسكنهما جناته.

---

(١) انظر البخاري في تاريخه ، وكنز العمال ، وتفسير الآلوسي ، والبحر المحيط / الجزء السابع .

(٢) انظر تاريخ ابن عساكر / الجزء الثاني / ص٤٨٦.

(٣) انظر الطبراني / الجزء الرابع / ص٢٧١.

(٤) انظر: تاريخ اليعقوبي / الجزء الثاني / ص١٧٨.

الرسول الاكرم: انهما مع الشهداء والصديقين في جنات النعيم. ((ما الامر الذي سيشغلك بعدي يا عمار ؟)).

عمـــــار: اسير في الطريق ذاتها، انا خادم لك يا رسـول الله، ولاهـل بيتك الاطهار، احب من يحبهم وابغض من يبغضهم، حرباً لمن حاربهم، وسلم لمن سالمهم، انهم الصلات التي لا تنقطع، انهم حبل الله الممـدود انهم القربى الذين يسأل الله عنهم.

الرسول الاكرم: يا عمار قاتلت على نزول القـرآن وسـيقاتل وصـيي وخليفتي ووارث علمي وزوج بضعتي علي بن ابي طالب علـى تأويلـه، فلا تفارقه.

عمـــــار: يا رسول الله اشعر بالانكـسار، فهـل سنـشهد بعـدك مـن ينقطع عن حياة الاسلام، ويرتد على عقبيه.

الرسول الاكرم: نعم يـا عمـار، سـتكون الفـتن، وستـضطرب الامـة، وسيقاتل علي الناكثين والقاسطين والمـارقين، يـا عمـار وسـتقاتل معـه وتقتلك الفئة الباغية وآخر زادك يا عمار من الدنيا ضياح من لبن.

يا عمار اذا رأيت الانس والجن يسيرون من هنا، وعلي يسير وحيـداً من هنا، فاتبع علياً فانها الجنة، علي مع الحق والحق مع يا عمار، فتمسك به فانه الحق يدور الحق معه حيثما يدور.

المبحث الثالث:
أبو ذر خريج المدرسة العلوية

هكذا وقف أبو ذر امام هذه الكلمات الشريفة ودقق فيها في لحظات من التأمل الواعي فرفعه تفكيره بالتالي الى الانتماء لمدرسة قرر الله ورسوله انها مدرسة النجاة، انها علي بن ابي طالب، تاركاً وراء ظهره الدكاكين التي فتحها من فشل الثبات امام عبثية الحياة فدخلوا فضاء الظلام.

من هنا تشكل التأثير والتأثر بأشد روعة وابداعاً، المعلم والاستاذ هو علي بن ابي طالب والتلميذ النجيب ابا ذر الغفاري ثم اتسعت دائرة المؤمنين لتشمل عمار وحسين، ومالك والمقداد، وحجر، وسلمان الفارسي، وعثمان بن حنيف، وسهيل بن حنيف، وغيرهم من احرار الاسلام ليشكلوا بعد ذلك القلة القليلة التي ذكرها الله بقوله: ((**وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**)) سورة سبأ – الآية١٣.

لقد مثل أبو ذر الغفاري وبقية الحواريين أوكسجين الاسلام والعصارة النقية الطاهرة التي افرزتها الرسالة المحمدية، انهم الدائرة المتمركزة حول الرسول ووحيه.

من هنا وضع أبو ذر الغفاري روحه في كفه وانطلق لمعالجة شهوات الضعفاء ويداوي جروحهم الايمانية، وينذرهم لسوء العاقبة ويدعوهم الى اعادة عمارة النفوس بالايمان لا بالأقوال.

فالإيمان هو جوهر الاسلام وحقيقته، فعن طريق الايمان يملأ المسلم قبله بعشق الخالق، وعن طريق الايمان يتكاثر السؤال.

فالصلاة سؤال، والصوم سؤال، والسلوك سؤال، وطاعة الله سؤال، وطاعة رسوله سؤال ، وطاعة وليه سؤال، وحب اهل البيت والولاء لهم والاخلاص لهم سؤال، وبهذا يتحول المسلم من قصة انتظار الى وشاح من الجمال القيمي فيغرق في الحضرة الالهية، لان نفسه توحدت مع عالمها الداخلي وكيانها النفسي بسلطة الايمان.

لقد وقف أبو ذر وقفة متأنية امام صورة من صور ايمان وصي رسول الله (ص) علي بن ابي طالب (ع) فخلقت عنده مشاركة فخلقت عنده مشاركة حسية ووجدانية بينه وبين امامه، لانها صورة ايمانية مشروطة بحدود فكرية واستجابة الهية، انبعثت من قبل مخلص لله ورسوله، انبعثت ومركب الاسلام اخذ يتشقق ويزداد فيه الضجيج، فتظهر كلمات الوصي والامام والقائد كاطروحات بديلة اكثر ملائمة للقيم الاسلامية التي ارادها الله ورسوله، يقول الامام علي ((عليه السلام)): ((والله لو اعطيت الاقاليم السبعة بما تحت افلاكها على اعصي الله في نملة اسلبها جلب شعيرة ما فعلت وان دنياكم عندي لاهون من ورقة في فم جرادة تقضمها)).

لوحة ايمانية يستلمها أبو ذر من امامه، وتتشابك صورها في ذهنه فتضيء قلبه وتتجسد قناعاته وتتوهج نفسه حتى ليشعر انه وسط السماء يتحدث اليها وتحدثه، وفي النهاية يجد نفسه وقد ارتبطت في علاقات فكرية ووجدانية شكلت عالمه الانساني الى جانب عالمه الايماني الذي كرس له حياته.

من هنا وجد أبو ذر نفسه ملزما بالزامية التفاعل في المنظومة المحمدية العلوية فدخل حلبة الصراع مع الباطل، مع اللامعقول، مع اللا إسلام، مع اللا ايمان، مع الموروث الجاهلي، ولنتابع كيف بدأ هذا الثائر آليات صراعه:

وقف أبو ذر الغفاري بباب مسجد رسول الله (ص) فقال: ((ايها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فانا أبو ذر الغفاري، انا جندب بن جنادة الربذي ((**إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ{٣٣} ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{٣٤}** – سورة آل عمران)) محمد الصفوة من نوح فالآل من ابراهيم، والسلالة من اسماعيل، والعترة الهادية من محمد انه شرف شريفهم، واستحقوا الفضل في قوم هم فينا كالسماء المرفوعة وكالكعبة المستورة، وكالقبلة المنصوبة، وكالشمس الضاحية، وكالقمر الساري، وكالنجوم الهادية، وكالشجر الزيتونة اضاء زيتها، وبورك زبدها، ومحمد وارث علم آدم وما فضل به النبيون، وعلي بن ابي طالب وصي محمد ووارث علمه.

ايتها الامة المتحيرة بعد نبيها: اما لو قدمتم من قدم الله، واخرتم من أخر الله، واقررتم الولاية والوراثة في اهل بيت نبيكم لاكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت اقدامكم، ولما عال ولي الله، ولا طاش سهم من فرائض الله، ولا اختلف اثنان في حكم الله، الا وجدتم علم ذلك عندهم من كتاب الله وسنة نبيه، فاما اذ فعلتم مافعلتم، فذوقوا وبال امركم، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون))[1].

(١) انظر: تاريخ اليعقوبي / الجزء الثاني / ص١٧١.

وقال اليعقوبي بعده:

((وبلغ عثمان بن عفان ايضاً ان ابا ذر يقع عليه، ويذكر ما غير وبدل من سنن رسول الله (ص) فسيره الى الشام الى معاوية للتخلص منه، وكان يجلس في المسجد، فيقول كما كان يقول في المدينة ويجتمع اليه الناس حتى كثر من يجتمع اليه ويسمع منه))[١].

وقال اليعقوبي بعد ذلك:

((ان معاوية بن ابي سفيان عندما طالته انتقادات ابا ذر كتب الى عثمان انك قد افسدت الشام على نفسك بابي ذر[*]، فكتب اليه ان احمله على قتب بغير وطاء، فقدم به المدينة وقد ذهب لحم فخذيه وجرى له مع عثمان ما ادى بعثمان ان ينفيه الى الربذة، وجرى للوليد والي الكوفة ((الاخ غير الشقيق لعثمان بن عفان)) مع ابن مسعود نظير ذلك فجلبه الخليفة الى المدينة وأمر به، فضرب به الارض وتوفى على اثر ذلك، وفعل نظير ذلك لعمار))[٢].

---

(١) نفس المصدر / ص١٧٤.

(*) يؤكد معاوية في كلمة ((قد افسدت الشام على نفسك ، على الاضطراب في منهجية التفكير لدى اهل الشام ، فاهل الشام مجتمع عاجز ، غارق في غبائه ، لايملك القدرة على التحليل والاستقراء ، يجتر الامة ولا يسأل عن مصادرها ، مجتمع يطفوا على السطح ، يعيش حالات التبخيس الذاتي وما يرافقها من خضوع ورضوخ ، مجتمع لا يفهم سوى لغة استجداء اللقمة ، زهيد الثمن تعمه مشاعر العبودية ، الغضب والرفض والاعتراض على مفاهيم لايعرفها ولم يتعود على سماعها ، يحمل السلاح دون سؤال ويتوجه الى الموت دون ان يدري ، يقاوم الحق بالباطل ، يحمي الظالم ويقسي على المظلوم ، يعيش الخصاء القيمي والعقلي والفكري واذا كان هذا هو مجتمع اهل الشام فان وجود ابا ذر بينه سوف ينقله من حالة السبات الدائمة الى حالة اليقظة.

(٢) نفس المصدر السابق / ص١٧٦.

ولكنها العقلية البدوية المنهارة فكرياً، والفاقدة لوضوح الرؤية، مشلولة القدرة على التمييز، عقلية تطغي عليها الانفعالات دون حدود تقيدها، هكذا دخل أبو ذر صراعه مع عقلية تثير صدمة الذهول لما تعاني من جهل متأصل، وتعطيل فكري دائم، اذن هو امام مشكلة فعلية.

لقد نظر أبو ذر الى الاسلام بعد وفاة الرسول الاكرم محمد (ص) صخبة الذوبان في عالم التسلط، فالاسلام بدأ يعيش مأزقه الوجودي، وهو يبذل كل جهد في سبيل تثبيت حقيقة الاسلام وان الاسلام ما جاء الا من اجل الانسان المقهور، وما جاء الا من اجل الفقراء ومعالجة المرض العلائقي الذي ينخر بنية المجتمع، وبدل ان يقف هذا المجتمع معه، مع صوت الحق، صوت السماء، اصطف مع المغتصب وساند الادانة التي توجه لابي ذر ويساهم في تحطيم نفسيته واضعاف ارادته وموقفه، وهذا ليس علمياً بالذي يثير الاستغراب والدهشة، فالشخصية العبودية وعلى مر العصور هي شخصية تتماشى مع الظالم والطاغي والمستبد وتشعر بالزهو والفرحة والسعادة لمثل هذا التماشي، ظناً من هذه الشخصية انها بهذا السلوك اللاسوي اللاعقلائي تتخلص من مأزقها، لذلك نرى البدوي السطحي الهمجي لم يقف مع ابي ذر بل وقف وبشدة مع من استعبده وظلمه واستغله سنين طوال، ومن هنا تزداد وتتراكم عدوانية ولكنها عدوانية موجهة الى المظلوم لا الى الظالم، وعلم النفس يفسر هذا التوجه لدى هذا الكائن لشعوره بمركب النقص، وبمقدار هذا النقص ترتفع النزعة العدوانية والاندفاع لتبعية الظالم والارتماء في احضان المتسلط.

اذن هذه البيئة اللاعقلائية هي لست بيئة ابي ذر الغفاري، اجل لعلي بيئة تاثر بها واستوحى منها وتعلم منها، انها بيئة رسول الله (ص) ووصيه علي بن ابي طالب(ع) انها بيئة النور الساطع الذي يبدد الظلام، انها بيئة الحق، انها بيئة الغيث الذي يحيي الارض بعد موتها، انها بيئة القوة الدافعة بالانسانية في طريق الكمال.

لقد بقى أبو ذر الغفاري ملازماً لعلي بن ابي طالب (ع) واطلع على كنوز علمه، فاصبح معلمه الأول، فعلي لابي ذر هو الاعمق غوراً، والاصوب رأياً، والابعد صيتاً، والاوفر حظاً بالاكبار بعد رسول الله(ص)، وبالتالي هو الوصي والخليفة والوريث لسيد الرسل وخاتم الانبياء محمد (ص).

الفصل الثاني

المبحث الاول:
أبو ذر هو الحل لا المشكلة

نخلص الى ان وصي رسول الله (ص) على بن ابي طالب (ع) كان في اسلامه، نموذج عظيم مكتمل الشكل والجوهر، لذلك اتخذه العظماء نموذجاً، فالكبار لايقتربون الا من الكبار، والصغار لا يميلون ولا يقتدون بالا بالصغار، فالمفردات المتشابهة متلاقية متفاعلة متساندة.

فاذا كان الاسلام عبادة، ونسكاً.. جهاداً وبذلاً.. ترفعاً.. وزهداً.. ذكاءً وفطنة وفكراً مستنيراً، وعقلية استثنائية، وورعاً وتواضعاً.. قوة ورحمة.. عدالة ومساواة، شجاعة وتسامح، كرم وتواضع... استقامة ووضوح، علماً ومعرفة.. بساطة وتمكناً... قدرة وعفواً.. تضحية وايثار.. ولاء، وفهماً.

اذا كان الاسلام ذلك كله، فان سابق المسلمين علياً ((عليه السلام)) النموذج الاساس والباهر والنادر لهذا الاسلام..!! لذلك كان من حق ابي ذر الغفاري وهو الصحابي الجليل الذي تشرف بشهادة الرسول في صدقه، وان هذا الصدق لاينافسه ولا يضاهيه فيه احد ان ينشد الحقيقة الاسلامية من وصي رسول الله(ص) علي بن ابي طالب(ع)، وكان من حقه ايضاً ان يحني هامته اجلالاً لهذا النموذج، فقد كان أبو ذر يعرف تماماً لما يملكه من عقلية استثنائية قمة الذي هداه ربه اليه.. وكان من الذي يؤمنون بان الخير فيه والعاقبة الخيرة فيه، ورضا الله ورسوله فيه

والفوز بالجنة فيه، فمن وفقه الله للخير والحق والاجر العظيم منحه الفؤاد الذي يهوى لعلي بن ابي طالب (ع)، من هنا قرر أبو ذران يرفع راية الحق، راية الله ورسوله ووليه بعد رحيل الرسول الاكرم (ص) الى جوار ربه لم يثنه عن هذه المهمة احد ولا يوقفه التهديد والوعيد، فقد نذر نفسه للاسلام المعياري لا الاسلام التاريخي، حمل الاسلام بين جنبيه، وتحت ضلوعه، وفي اعماق روحه، ومضى يستصغر من سطوة وظلم وتجمع الحكام واعوانهم من المنافقين.

لقد استدل أبو ذر بوجود العقل الاسلامي على وجود الفاعل الحقيقي لهذا العقل، فكان كل قول من اقوال الامام علي(ع) يضيف استدلالاً جديداً يضيفه أبو ذر الى مخزون عقله، فيزداد ثباتاً وتمسكاً باسلامه، ويزداد قدرة على الفداء والتضحية في سبيله، ويزداد ايماناً ان علي بن ابي طالب(ع) هو الامتداد الحقيق للاسلام بعد رسول الله(ص)، امتداداً في ايمانه، في اخلاقه، في بلاغته، في زهده، في شجاعته، في فقهه، في عقيدته في ثباته، لقد أضاءت حوارات واقوال وكلمات الامام علي بن ابي طالب(ع) الطريق ليكون مسلماً ايمانيا، لا مسلماً ادعائياً، ليكون مسلماً عقلياً وعلمياً لا مسلماً سطحياً بدائياً، ليكون مسلماً استشراقياً لا مسلماً جامداً متخلفاً، ليكون مسلماً استبصارياً لا مسلماً تقليدياً، ليكون مسلماً عقائدياً، لا مسلماً سلطوياً، ليكون مسلماً كلياً، لا مسلماً جزئياً، ليكون مسلماً ثقافياً لا مسلماً جاهلاً متخلفاً، ليكون مسلماً مكتشفاً لامسلماً منتظراً متفرجاً، ليكون مسلما متحركاً لا مسلماً قاعداً مكتفياً بما يملى عليه، ليكون مسلماً موقفياً لا مسلماً متكيفاً، وهكذا

تبلورت شخصية ابا ذر من خلال ما وفرته لها المدرسة العلوية من منابر ثقافية وعلمية وروحية وفق المبادئ الانسانية التي فرضها الاسلام، وبهذا اخذ ابوذر فرصته ليكون جديراً بحمل رمز هوية الاسلام ومصدر اعتزازها وكرامتها.

ومن شاء ان يتعرف على مدرسة الامام علي (ع) ومنهجها وطرقها وعلمها وموادها واتجاهها وإستراتيجيتها التي التي نهل منها أبو ذر فليقرأ كلماته.

كثير هي الكلمات والفعاليات والخطب والانشطة العلمية والفلسفية والادبية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والروحية والوجدانية والنفسية والتربوية، التي تركت آثارها على جدران الزمن في الماضي والحاضر.. علماء وادباء وفلاسفة ورجال فكر، ولكن نسأل وبدرجة عالية من الثقة والاطمئنان اين هم وانتاجاتهم من كلمات الامام علي(ع) التي نقلت الى البشرية، كلمات تتجاوز علم العلماء وبلاغة البلغاء وفلسفة الفلاسفة، كلمات تبهر والعيون والعقول، والقارئ لها يدخل في دائرة التأمل لانه يجد في مضمون هذه الكلمات رجل سماوي يرى كل شيء ويدرك كل شيء، كلمات تلغي المسافات للعقل البشري العادي وتخلق ابعاداً لا حدود لها لم يكن بمستطاع أي قوة علمية ان تأتي بمثلها من الاولين والآخرين ولهذا فلا خيار لنا سوى الاعتراف لهذا الامام المعجزة بانه مخلوق يتعايش مع السماء ليرسم بناء علمه، بناءً تنعدم القدرة للوصول الى مستواه ولايخضع لقانون المألوف للحياة، فكل كلمة يقولها الامام تغني بعضها بعضاً، لهذا كان الامام العلمي في نظر العلماء، كل العلماء

وفي شتى المجالات المختلفة، يمثل مشروعاً سماوياً ينطلق من علم لدني اسس من خلاله مفهوماً جديداً للحقيقة وخلق اسلوباً في التفكير بشكل مختلف كل الاختلاف والمتوافق عليه بشرياً، انه حقيقة سماوية كبرى بعد سيد الانبياء الرسول الاكرم محمد(ص) ان علي(ع) مثل بعلمه وثقافته وبلاغته المرآة التي تعكس موضوع التداخل بينه وبين رسول الله(ص)، تداخل بين حقيقتين كبريين، وهذا هو الدرس الأول الكبير الذي نقدمه للقارئ لتأكيد حقيقة ما ذهبنا اليه:

قال الامام علي (ع) يصف الله سبحانه وتعالى: ((ان اول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الاخلاص له، وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة انها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف انه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله)).

في ضوء معطيات هذه الكلمة الابداعية الخارقة يعلم الانسان المخلوق ان المعرفة شرط في الطاعة، والتصديق شرط في كمال ال معرفة، والتوحيد شرط في كمال التصديق، والاخلاص شرط في كمال التوحيد، وكمال الاخلاص لا يتحقق الا باعتقاد وحدة الصفات والذات، اذ لا تغاير بينهما لا حقيقة ولا اعتباراً، وقال الامام علي (ع) في التدليل على ان كلام الله مخلوق وليس قديم: ((انما كلامه سبحانه فعل منه انشأه ومثله، لم يكن من قبل ذلك كائناً، ولو كان قديماً لكان إلهاً ثانياً)).

وقال في شمول علمه للكليات والجزئيات: ((احاط بالاشياء كلها علمه، واتقنها صفة، لم تغيره صروف الزمان، ولا يتكاده صنع شيء مهما كان... قال لما شاء ان يكون فكان.. علمه بها قبل كونها كعلمه بها بعد تكوينها)) اما رفضه لظاهرة من يجسم الذات الالهية فيقول:

((ليس بشبح فيرى، ولا بجسم فيتجزأ، ولا بذي غاية فيتناهى، كان ولا اماكن تحمله اكنافها، ولا حملة ترفعه بقوتها، وما كان بعد ان لم يكن، بل حارتالاوهام ان تكيف المكيف للاشياء.. لا يدرك بالحواس، ولايقاس بالناس، ولا تقدره العقول، ولا تقع عليه الاوهام.. وابعد من الشبه من كل شبيه، لم يخلق الاشياء من اصول ازلية، ولا من اوائل كانت قبله ابدية)).

لقد وزع الامام علي(ع) كلماته الى كل لوحات الحياة، فاضاء بها الفكر الانساني وازاح منه العتمة، كلمات تغسل القلوب وتزود النفس بالطمأنينة وتضفي عليها جمالية الرضا والقناعة، وسنقتطف هذه الصورة الجميلة التي يوضح فيها الامام مشكلة الانسان ويجيب على السؤال الكبير: هل الانسان مسير ام مخير ؟ ((لو كان الانسان مسيراً لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد، والامر من الله والنهي ولم تكن لائمة لمذنب، ولا محمدة لمحسن، ولم يكن المحسن اولى بالمدح من المسيء، ولا المسيء اولى بالذم من المحسن.. ان الله امر تخييراً، ونهى تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، واعطى على القليل كثيراً، ولم يُعصَ مغلوباً، ولم يُطَعْ مكرهاً، ولم يرسل الرسل لعباً، ولم ينزل الكتب للعباد عبثاً، ولم يخلق السماوات والارض، وما

بينهما باطلاً ((ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)) سورة ص٢٧.

وسأل الامام سائل عن معنى القضاء والقدر، فقال موضحاً: ((الامر بطاعة الله، والنهي عن معصيته، والتمكين من فعل الحسنة، وترك المعصية، والمعونة على القربة الى الله، والخذلان لمن عصاه، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، كل ذلك قضاء الله في افعالنا، وقدره في اعمالنا)).

ومن الامثلة التي تعكس المنظور لفلسفة المفاهيم نقتطف ما جاء في كلمة الامام(ع) في هذا الميدان: ((ايها الناس ان الله تبارك وتعالى لما خلق خلقه اراد ان يكونوا على آداب رفيعة، واخلاق شريفة، فعلم انهم لم يكونوا كذلك الا بان يعرفهم ما لهم وما عليهم، والتعريف لا يكون الا بالامر والنهي، والامر والنهي لا يجتمعان الا بالوعد والوعيد، والوعد لايكون الا بالترغيب، والوعيد لا يكون الا بالترهيب، والترغيب لايكون الا بما تشتهيه انفسهم وتلتذه اعينهم، والترهيب لا يكون الا بضد ذلك، ثم خلقهم في داره، واراهم طرفاً من اللذات الخالصة التي لا يشوبها الم، الا وهي الجنة، واراهم طرفاً من الآلام ليستدلوا على ما وراءهم من الآلام الخالصة التي لا يشوبها لذة، الا وهي النار، فمن اجل ذلك ترون نعيم الدنيا مخلوطاً بمحنها، وسرورها ممزوجاً بكدرها وغمومها)).

ولعل من اهم ما اثاره الامامفي كلمته العميقة هذه، التوازن الحياتي للبشرية، بمعنى ان الامام وضح عملية الترابط بين المفاهيم، وان هذا الترابط هو الذي تستند عليه الحياة البشرية، فالحياة البشرية ذات طبيعة

سببية وان العلاقات بين البشر هي علة السببية، وان الكائنات لا تقنع بمجرد الحياة في علاقات، بل انها تنتج العلاقات لكي تفهم، والعلاقات بين المفاهيم تشكل هذا الفهم، فهناك علاقةكما وضح الامام (ع) بين مفهوم الامر والنهي، ومفهوم الوعد والوعيد، ومفهوم الترغيب والترهيب، ومفهوم اللذة والالم، ومفهوم الجنة والناروم‌فهوم الدنيا والآخرة، ومفهوم الحق والباطل، فالحياة لايمكن ان تجري الا في ظل هذه الثنائية المفاهيمية.

ومن هنا يمكن النظر الى آليات الصراع التي عاشها أبو ذر الغفاري، على انها آليات اسست على التباين في ثنائية المفاهيم، ثنائية الحق والباطل، ثنائية الحرية والعبودية، ثنائية المساواة والتمييز، ثنائية العدل والظلم، ثنائية الايمان والاسلام، فمثل أبو ذر الطرف الأول من الثنائية ومثل الآخرون الطرف الثاني فامتلك بهذا ناحية الشرعية الاسلامية، واستطاع بما تعلمه من مدرسة امامه علي(ع) ان يبحث في اسرار القوة الآلهية فوجدها تكمن في ثنايا طرفين متناقضين من المفاهيم وعلى النحو الآتي: الله هو الحق – الله هو المثل – الله هو الايمان، الابتعاد عن الله هو الباطل – الابتعاد هو الانزلاق الى صراع خاسر، الابتعاد هو القطيعة مع السماء، ومن هنا وجد أبو ذر ان مثل المعادلة شكلت اخطر الحوادث على مسيرة الاسلام، لان الطرف الثاني من المعادلة المفاهيمية، هو الذي برز على حساب الطرف الأول منها.

ومن هنا جاءت مخاطبة الامام علي (ع) لابي ذر حين نفاه عثمان بن عفان: ((لا يؤنسك الا الحق، ولا يوحشك الا الباطل)) وهكذا ميز الامام

بين مفهومين ((الحق والباطل)) فمثل أبو ذر المفهوم الأول، ومثل المفهوم الثاني عثمان بن عفان.

لقد شهد أبو ذر بعد وفاة رسول الله (ص) تراجعاً قيمياً، وركوداً فكرياً، وهيمنة رموز الوثنية والجاهلية على الحياة مما يصعب السكوت عليه فانبثق من عمق هذا الواقع صارخاً محتجاً، وقد تتمثل هذا الاتجاه المعاكس لقيم الاسلام ورسالته في كلمة الامام علي (ع): ((فيا عجباً ومالي لا اعجب.. من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها، لا يقتصون اثر نبي، ولايقتدون بعمل وصي ولايؤمنون بغيب، و لايعفون عن عيب، يعملون في الشبهات و ويسيرون في الشهوات، المعروف فيهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما انكروا، مفزعهم في المعضلات الى انفسهم، وتعويلهم في المهمات على آرائهم، كأن كل امريء منهم امام نفسه، قد اخذ منها فيما يرى بعرى وثقات، واسباب كلمات)).

اضافة الى هذا التشخيص الموضوعي من قبل الامام (ع) للواقع بعد رحيل رسول الله (ص) فقد كانت هناك ممارسات مؤلمة وموجعة سلخت الاسلام هويته، وبات غريباً، ممارسات وضعت الصحابي الجليل في باحة التساؤلات: كيف يمكن لمسلم ان يعصي الله ورسوله ؟ كيف يكون لمجتمع اعده الرسول لرفع واعلاء كلمة الحق ان ينقلب على عقبيه ويناصر الباطل ؟ كيف يمكن لمجتمع مسلم ان يجعل الدنيا عنوانه ؟ ثم السؤال الاكبر والاعرض: كيف يمكن لامة محمد (ص) ان تنازع الامر اهله ؟ كيف نازعت الامر من هو اولى الناس بهذه الامة واقربها من رسول الله (ص) واعلمها بكتاب الله، وافقهها بدين الله،

واولها اسلاماً، وافضلها جهاداً، واشدها بتحمل امور الرعية))، ثم يطرح أبو ذر في نهاية الامر الاسئلة الاخطر:

هل يمكن ان تتجلى الحياة الاسلامية بعصيان ما امر به رسول الله (ص) ؟ وهل يمكن لهذه الامة التنكر بهذه السرعة لوصية رسول (ص)؟ الم يفهم هؤلاء الاعراب ان تبليغ رسول الله (ص) يوم غدير خم كان بامر الله عز وجل:

((من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله)).

ثم كيف انحرفت هذه الامة عن عين الحقيقة ولب الصواب ؟ الم يسمعوا وصي رسول الله وخليفته ووارث علمه يصف هذه الحقيقة بالاتي: ((لا يقاس بآل محمد محمد (ص) من هذه الامة احد، ولايسوى بهم من جرت نعمتهم عليه ابداً، هم اساس الدين وعماد اليقين، اليهم يفيء الغالي وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصية والوراثة)).

انها منظومة من الحقائق تراكمت في ذاكرة ابي ذر الغفاري وتفجرت في داخله ثورة عارمة حيث رأى هذا الثائر الايماني ان تجاهل او تجاوز هذه الحقائق سوف يصديء جدار الاسلام ويؤول به الى السقوط فالامر ليس انفعالياً او عاطفياً، انما هو امر الله ورسوله وليس امر الرغبات وال ميول والدوافع ((**وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ**)) سورة النساء١٤.

اذن هو امر محير، لم يكن فيه الاجتهاد وطرح الآراء الشخصية ميسراً، فاهل البيت وبارادة الهية باتوا الحافلة التي تتباهى بجذورها وبطهارتها وبالوانها ومسؤوليتها، وعلى كل مسلم مؤمن ان يركب هذه الحافلة اذا اراد النجاة، واذا اراد عدم النظر الى الوارد، واذا اراد ان لايكون من المنكفئين المحاصرين بعصبتهم القبلية الجاهلية، واذا اراد ان يرفع قامته امام رسول الله (ص) يوم لاينفع مال ولابنون الا من اتى الله بقلب سليم، من هنا جاء التحام ابي ذر بهذه الحافلة، اليس هذا اشرف بكثير من حسم امره بعدم الصعود واختيار حالفة اخرى غير الحافلة التي يقودها رسول الله (ص) في الدنيا والآخرة، فأبو ذر ليس بالسطحي العفوي، انه من اذكى وافطن الناس، لذلك فهو لاينسى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((مثل اهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق))[1].

كما ان ابا ذر لاينسى ولا يسقط من ذاكرته قول الله تعالى: ((**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**)) سورة الأحزاب - الآية٣٣.

فهذه الاية هي دليل سلوكه واعماله وتوجهاته، انها آية مقدسة، بالنسبة لابي ذر، وآية وقفت معانيها على محيط الآخرين فلم يرضوها لانها آية تبعد السلطة عنهم والتي خططوا لها وانتظروها طويلاً، فصدق

(١) انظر: ذخائر العقبي للمحب الطبري / ص٢٠ ، ومستدرك الحاكم / الجزء الثاني / ص٣٤٣ ، وحلية الاولياء لابي نعيم / الجزء الرابع / ص٣٥٤ ، وتاريخ بغداد للخطيب / الجزء ١٢ / ص١٩ ، ومجمع الزوائد للهيثمي ، الجزء التاسع / ص١٤٨ ، والدر المنثور للسيوطي / ص٢٧٠.

كلام الله عليهم: ((ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ)) سورة محمد – الآية٩.

لقد وجد أبو ذر في تمسكه بوصي رسول الله (ص) واهل بيته ثروة طائلة ومعيناً لاينضب من العطاء القيمي والوجداني والروحي، وليس من دقة الرؤيا وربط النتائج بالمقدمات ان يتجاهل احد كأبي ذر الغفاري الخاصية التي خصها رسول الله(ص) واهل بيته(ع) التي ميزتهم وبقية البشر، خاصية مزجت بين المحددات القياسية البشرية والمحددات القياسية الاعجازية، والامثلة على ذلك كثيرة:

في مسند عن المقدام بن معدي كرب، ان رسول الله (ص) وضع الحسن في حجره وقال: ((هذا مني))[1].

وعن البراء بن عازب قال:

قال النبي (ص) للحسن والحسين ((هذان مني))[2].

وروى البخاري والترمذي وابن ماجة واحمد والحاكم عن يعلي بن مرة ان رسول الله (ص) قال:

((حسين مني وانا من حسين، احب الله من احب حسين، حسين سبط من الاسباط))[3].

---

(١) انظر: مسند احمد / الجزء الرابع / ص١٣٢ ، وكنز العمال الجزء ١٣ / ص٩٩.

(٢) انظر: كنز العمال /الجزء الثاني / ص٢٧٠.

(٣) انظر: البخاري في الادب المفرد – باب معانقة الصبي ح٣٦٤ ، والترمذي الجزء ١٣ ص١٩٥ – في باب مناقب الحسن والحسين(ع) ، وابن ماجة / كتاب المقدمة – باب ١١ ح١٤٤ ، ومسند احمد الجزء الرابع / ص١٧٢.

((الحسن والحسين سبطان من الاسباط [١]،

وحديث رسول الله (ص) هذا جاء منسجماً ومتفقاً ومترجماً للآية الكريمة: ((قُولُواْ آمَنَّا بِاللّه وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)) سورة البقرة – الآية١٣٦.

وقوله تعالى: ((قُلْ آمَنَّا بِاللّه وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ)) سورة آل عمران – الآية٨٤.

وروى الترمذي عن جابر بن عبد الله الانصاري، قال: ((رأيت رسول الله(ص) في حجته يوم عرفة وهو على ناقته الصقواء يخطب فسمعته يقول: ((يا ايها الناس اني قد تركت فيكم، ما ان اخذتم به لن تضلوا، كتاب الله وعترتي اهل بيتي)) [٢].

وفي مستدرك الصحيحين: قال رسول الله (ص): ((كأني قد دعيت فاجبت، اني تركت فيكم الثقلين، احدهما اكبر من الآخر: كتاب الله، وعترتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فانهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض)) [٣].

---

(١) انظر: كنز العمال / الجزء ١٤ / ص٢٧٠.

(٢) انظر: الترمذي / الجزء ١٣ – باب مناقب اهل بيت النبي ، وكذلك كنز العمال / الجزء الأول / ص٤٨.

(٣) انظر: مستدر الصحيحين الجزء الثالث / ص١٠٩ ، وخصائص النسائي / ص٣٠ ، وفي مسند احمد الجزء الثالث/ص١٧.

المبحث الثاني:
أبو ذر والزمن الكاذب

وقد يمكن القول بوجه عام ان تمسك أبو ذر بما اراده الله ورسوله من الالتمام بوصية علي بن ابي طالب (ع) وعدم مفارقة اهل بيته (ع) وان يكونا هما الاختيار الأول والاخير، مثل حلاً لتحقيق الجمال والروعة لمفهوم الايمان او متعة في حالات الغربة الشديدة مجسداً بذلك قول رسول الله (ص): ((رحم الله ابا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده))[1].

ونحن بدورنا لابد ان نشارك ابا ذر غربته القاسية التي عاشها بسبب الثبات على المبادئ والقيم لنقول له:

يا غربة كل الاغراب
يا هذا الزمن الكذاب
يا كأساً من وهم
لا يشرب غير حقيقته
يا هذا الزمن الكذاب
كتبته يا أبو ذر، فمحوت بكتابك كل الاسباب
تواريت خلف عباءة الاسلام

(١) انظر: عبد الحميد السحار: أبو ذر الغفاري / ص١٥٨.

ولم تدر ان الاسلام الذي تعرفه قد غاب
ولكن ايهما ابقى ؟
انت ام فعل ذاب
اذن لا تشكو الظلم ولا تبكي
فحياتك خزانة عطر وثياب
فلنقطف من ارجوحة حريتك جواب
ولنمر من باب غربتك الخالدة
فغربتك باقية وانهارت باقي الابواب.

تلميذ علي طوى حبه لاستاذه في اعماقه، ولم يلتمس رحمة المصادفات، فحمل حبه ريح ضالة تنتقل به من بلد الى آخر، ومن منفى لآخر دون ان تستطيع هذه الرياح سرق اغوار ذاته، فتركع امام موقفه ذليلة مصابة بنوبة من الحيرة مرة ومن التشنج مرة اخرى، يدها على قلبه من ان يخرج هذا الثائر من خزانته ما يكشف المخفي، فأبو ذر وكما يعرف الجميع قد سجل في قلبه وفي ذاكرته كل ما كان يصدر عن سيد الانبياء وسيد الرسل محمد (ص) فهو نهر عظيم المياه، مياه عذبة، بريئة، نقية، صادقة.

قالوا لابي ذر: اهدأ يا ابا ذر، وابعد هذه الآراء والافكار من ذهنك، فانت تستحق العطاء، فلا تحرم نفسك منه، وهكذا صدقك، وها انت تعرف ان الامر انفلت من بين يدي صاحبك، ولا شيء اكثر راحة للنفس من الاعتراف بالواقع، انت صاحب القرار الان يا ابا ذر، ولك الخيار، وما تفعله لن يرضي السلطان الجديد، فكن رفيقاً بنفسك، فالتكيف اكبر

مصدر للنجاة وراحة للبال، لانريد منك يا ابا ذر غير الصمت والسكوت ولا اكثر من ذلك.

وتهتز فرائص أبو ذر وتستحوذ عليه علامات الغضب والعرق الغزير، ثم يحاول ان يهدئ من نفسه ليقول:

ابعدوا هذه الافكار السوداء المسمومة من ذهنكم، واقول لكم ان الله يقبل التوبة، عودوا الى الحقيقة بعد ان سطعت امامكم، ولا شيء اكثر من ان يعود الحق الى صاحبه، وبرجوع هذا الحق تكسبون رضا الله ورسوله وتنفتح امامكم ابواب الحياة المطمئنة المستقرة.

كونوا اوفياء لله ورسوله فالوفاء لله ورسوله هو النصر المبين، كم تمنيت ان تسمعوا كلامي، ولكن شهواتكم الدنيوية لم تكن تسمح بذلك.

القضية اذن تتمثل بحب علي والتمسك بوصيته وامامته بعد رسول الله، فبحثوا في جلود مواليه وانصاره واصحابه، يراقبون كل كلمة وكل خفقة في الصدر، ولاحقوا كل صوت يهتف باسمه، وبلغت هذه الملاحقات حد القتل والتشريد والمطاردة الطوقية، وقد ترك لنا التاريخ ما يؤكد ما ذهبنا اليه:

روى الطبري: ان المغيرة بن شعبة قال لصعصعة بن صوحان العبدي وكان المغيرة يومذاك اميراً على الكوفة من قبل معاوية: ((اياك ان يبلغني عنك ان تعيب عثمان عند احد من الناس، واياك ان يبلغني عنك انك تذكر شيئاً من فضل علي علانية، فانك لست بذاكر من فضل علي

شيئاً اجهله، بل انا اعلم بذلك، ولكن هذا السلطان قد ظهر، وقد اخذنا باظهار عيبه للناس، فنحن ندع كثيراً مما امرنا به، ونذكر الشيء الذي لانجد منه بداً ندفع به هؤلاء القوم عن انفسنا تقية، فان كنت ذاكراً فضله، فاذكره بينك وبين اصحابك، وفي منازلكم سراً، وأما علانية في المسجد، فان هذا لا يتحمله الخليفة لنا ولا يعذرنا فيه...))[1].

وقال اليعقوبي: وكان حجر بن عدي الكندي، وعمرو بن الحمق الخزاعي واصحابهما من شيعة علي بن ابي طالب، اذا سمعوا المغيرة وغيره من اصحاب معاوية، وهم يلعنون علياً على المنبر، يقومون فيردون عليهم، ويتكلمون في ذلك، فلما قدم زياد الكوفة وجه صاحب شرطة اليهم، فاخذ جماعة منهم، فقتلوا، وهرب عمرو بن الحمق الخزاعي الى الموصل وعدة معه، واخذ زياد حجر بن عدي الكندي وثلاثة عشر رجلاً من اصحابه فاشخصهم الى معاوية فكتب فيهم انهم خالفوا الجماعة في لعن ابي تراب، وزروا على الولاة، فخرجوا بذلك من الطاعة، وانفذ شهادات قوم، فلما صاروا بمرج عذراء من دمشق على اميال، امر معاوية بايقافهم هناك، ثم توجه اليهم من يضرب اعناقهم، فكلمه قوم في ستة فاخلى سبيلهم، وامر ان يعرض على الباقي البراءة من علي واللعن له فقالوا: ((ان فعلتم تركناكم وان ابيتم قتلناكم، فابرأو منه نخلي سبيلكم ! قالوا: اللهم لسنا فاعلي ذلك: فحفروا لهم قبورهم وادنيت اكفانهم، فقاموا الليل كله يصلون فلما اصبحوا عرضوا عليهم البراءة من علي فقالوا: ((نتولاه ونتبرأ ممن تبرأ منه)).

(١) انظر: الطبري / الجزء الرابع / ص١٢٩. وبن الاثير الجزء الثالث / ص٢٠٤.

فاخذ كل رجل منهم رجلاً ليقتله فقال حجر دعوني اتوضأ واصلي فلما اتم صلاته قتلوه وقتلوا ولده همام معه، واقبلوا يقتلونهم واحداً واحداً حتى قتلوا ستة مع حجر، فلما بلغوا عبد الرحمن بن حسان العنزي وكريم بن العفيف الخثعمي قالا: ابعثوا بنا الى امير فنحن نقول في هذا الرجل مقالته، فبعثوا بهما الى معاوية فلما دخلا عليه، قال معاوية للخثعمي: ما تقول في علي، قال: اقول فيه قولك ! قال أتبرأ من دين علي ؟ فسكت، فقام ابن عم له فاستوهبه من معاوية فحبسه شهراً ثم خلى سبيله على ان يذهب الى الكوفة، اما العنزي فقد قال له: يا اخا ربيعة ! ما قولك في علي ؟ قال: اشهد انه كان من الذاكرين الله كثيراً ومن الآمرين بالحق والقائمين بالقسط والعافين عن الناس، قال: فما قولك في عثمان ؟ قال: ((هو اول من فتح باب الظلم وارتج ابواب الحق)) قال: قتلت نفسك، قال: بل اياك قتلت، فبعث به معاوية الى زياد وكتب اليه:

((اما بعد، فان هذا العنزي شر من بعثت، فعاقبه عقوبته التي هو اهلها واقتله شر قتله، فلما قدم به على زياد بعث زياد به الى قس الناطق فدفن بها حياً[1].

ومن صور الضلال والانحراف وانهيار الاخلاق والاعراض وانتهاك شرف وقيم ومبادئ الاسلام التي واجهها اصحاب الارادة والعشق الالهي هذه الحكاية التي تترجم لنا العقول المغلقة التي تجعل من هؤلاء الطغاة اولاد الفراش العاهر عظماء للأمة:

(١) انظر اليعقوبي / الجزء الثاني / ص٢٣٠-٢٣١.

امر زياد بن ابيه بصيفي بن فيل فجيء به اليه، فقال له زياد: يا عدو الله ! ما تقول في ابي تراب ؟ قال: ما اعرف ابا تراب، قال: ما اعرفك به ! قال ما اعرفه، قال: اما تعرف علي بن ابي طالب ؟ قال: بلى، قال: فذاك – وبعد محاورة بينهما – قال: علي بالعصا، فقال: ما قولك في علي ؟ قال: احسن قول انا قائله في عبد من عبيد الله اقوله في امير المؤمنين، قال: اضربوا عاتقه بالعصا حتى يلصق بالارض، فضرب حتى الصق بالارض، ثم قال: اقلعوا عنه، فتركوه، فقال له: ايه ما قولك في علي ؟ قال: والله لو شرطتني بالمواسي والمذى ماقلت الا ما سمعت مني، قال لتلعنه او لاضربن عنقك، قال: اذاً والله ترضبها قبل ذلك، فاسعد وتشقى، قال: ادفعوا في رقبته، ثم قال: اوقروه حديداً واطرحوه في السجن، ثم قتل مع حجر بن عدي الكندي[1].

وكتب الى معاوية بن ابي سفيان في رجلين حضرميين من اليمن انهما على دين علي ورأيه، فاجابه:

((من كان على دين علي ورأيه، فاقتله، ومثل به)) فنفذ زياد بن ابيه ما امر به معاوية فصلبهما على باب دارهما بالكوفة[2].

كما امره بدفن الخثعمي الذي مدح علياً وعاب عثمان حياً، فدفنه وختم حياته بما ذكره المسعودي، وابن عساكر، قال ابن عساكر: جمع اهل الكوفة فملأ منهم المسجد والرحبة والقصر، ليعرضهم على البراءة

(١) انظر: الطبري / الجزء الرابع / ص١٠٨ ، والاغاني / الجزء الرابع عشر / ص٧٠ ، وابن عساكر ٤٥٩/٤.
(٢) انظر: المجر / ص٢٧٩.

من علي[١]، وقال المسعودي: وكان زياد ابن ابيه جمع الناس بالكوفة بباب قصره يحرضهم على لعن علي، فمن ابى ذلك عرضه على السيف، ثم ذكر انه اصيب بالطاعون في تلك الساعة فافرج عنهم.

وكان عمرو بن الحمق الخزاعي ممن اصابه التشريد والقتل في هذه المعركة المبدئية التي خاضها رموز الحقيقة بدمائهم، فانه فر الى البراري، فبحثوا عنه حتى عثروا عليه، فحزوا رأسه وحملوه الى معاوية، فامر بنصبه في السوق ثم بعث برأسه الى زوجته في السجن، وكان قد سجنها في هذا السبيل، فالقي في حجرها[٢].

ويذكر في صحيح مسلم ان والي المدينة وكان من آل مروان، دعى سهل بن سعيد فامره ان يشتم علياً، فابى سهل، فقال له: اما اذا ابيت فقل: لعن الله ابا التراب، فقال سهل: ما كان لعلي اسم احب اليه من ابي التراب، وان كان ليفرح اذا دعي بها، فقال له: اخبرنا عن قصته، لم سمي ابا تراب ؟ قال: ((جاء رسول الله (ص) بيت فاطمة (عليه السلام) فلم يجد علياً في البيت، فقال اين ابن عمك ؟ قالت: هو في المسجد راقد، فجاءه وهو مضطجع، وقد سقط رداءه عن شقه، فجعل رسول الله (ص) يمسحه عنه، ويقول: قم ابا التراب، قم ابا التراب)).

(١) انظر: المسعودي / الجزء الثالث / ص٣٠.

(٢) انظر: الطبري ٩٤/٤ ، وابن الاثير ١٤٥/٣.

الفصل الثالث

المبحث الاول:
غربة ابي ذر

يعود مفهوم الاغتراب في الاسلام الى الصحابي الجليل ابي ذر الغفاري، فلم تكن الامور بعد وفاة الرسول الاعظم محمد (ص) تنسجم والقيم والمبادئ الاسلامية، فلاحظ هذا الصحابي ان هناك اختراقاً سافراً لهذه المبادئ والقيم السامية، وقد بلغ الاختراق اقصاه عندما تقدم الطلقاء وتأخر الصحابة فاستقبل أبو ذر هذا الوضع اللاسوي بالرفض عكس من خلاله ما يحمله من رسالة اسلامية صادقة تعلمها واستوعبها وهضمها على يد خاتم الانبياء، الا ان الذي تبين ان صرخة ابي ذر اثارت تساؤلات السلطة التي اعتبرته متمرداً على برنامجها السياسي، برنامج ابتعد كلياً عن سياق التشريع الاسلامي، وتحول الاسلام الى وسيلة للحكم والسلطة وجمع الثروات وتقسيم المجتمع الى طبقات وفئات وشرائح لايمكن الوقوف عليها ولا على عددها.

ان الوعي العميق هو اول خصائص هذا الثائر، وأبو ذر من حيث انه هويته اسلامية متجذرة الايمان، اصبح فعل ونشاط دينامي بخلاف غيره الذي انطوى على نفسه منعزلاً عن عالم اللامعقول او انه سمح لنفسه الاندماج ومعايشة الواقع الجديد المنحرف، ومعنى هذا ان ابي ذر مثل البنية الكلية للوجود الانساني تعلوا على الافراد الذين ارتضوا التكيف

والمواءمة مع المواقف الجديدة او الغريبة التي ظهرت في ادبيات المهنج الاسلامي والتي فرضت على الانسان مسلماً كان او غير مسلم، ليكون فريسة لسياسة سلطوية تتصف بالصراع القيمي، سياسة معوزلة ومنضوية ضمن بنية العلاقات البروجماتية تسعى نحو غاية هي السلطة.

ضمن هذه الاجواء استطاع أبو ذر الغفاري ان يطرح نفسه كياناً مستقلاً مرتبطاً بالحرية لانها وسيلة لتحقيق المبادئ ورفع الصورة الاسلامية الحقيقية والحياة الانسانية التي تجسد هذه الصورة.

وفي هذه الحالة يبدو ان ابي ذر اصبح يمثل حالة شاذة او شذوذ عارض يمكن يهدد الكيان السياسي الجديد.

ان المجتمع الاسلامي في تلك الفترة التي ظهر فيها أبو ذر كان يعاني ازمة اجتماعية كبرى، فكان الفرق بين الغنى والفقر شاسعاً تتقزز منه النفوس.. وأبو ذر كما قال الدكتور طه حسين، لم يكن بحاجة الى من يعلمه مبدأ الاشتراكية الذي دعا اليه[1]، انه القلب النقي المتميز بحرية اختياره وثم بمسؤوليته تجاه خالقه وتجاه الخليقة والذي يحيا صراع الحرية والمحبة مع الخطيئة لقد دخل ثائراً على المسرح الاسلامي، ثائراً رأى الفقير لايستطيع ان يدافع عن نفسه، ووجد المترفين والاغنياء يتكالبون ويتحاسدون، ولكنهم يطلون افعالهم لاموال المسلمين بطلاء براق من الدعاوي الرنانة، والتظاهر بخدمة المصلحة العامة، ثم ياتي الواعظون من ورائهم يؤيدون مايقولون، فاذا صرخ الفقير مطالباً بحقه،

(١) انظر: طه حسين / الفتنة الكبرى / ج٢ / ص٩٩.

وجدت الواعظين يضعون اللوم على عاتق هذا الفقير، اما اذا نهب احد حاشية الحاكم واسرف في نهبه من اموال بيت المال جاءت فتاوى وعاظ السلاطين واخذت مواعظهم تنهمر على شرعية هذا النهب وان هذا النهب لايعدو ان يكون صلة للرحم والاقربون اولى بالمعروف.

اذن الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري اول الثائرين، حين اختل العدل بين طبقات المسلمين في اول العهد الاموي، حين نبه المسلمين الى مغبة الانغماس في الملذات المادية، بقوله المأثور: ((يولدون للموت، ويعمرون للخراب، ويحرصون على ما يفنى، ويتركون ما يبقى، لاحبذا المكروهان الموت والفقر))[١].

لقد رأى أبو ذر الغفاري ان الاسلام يحث المسلمين على الزهد في الدنيا - بمعنى القصد في الشهوات – في قوله تعالى:

((اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ))[٢].

ويقول فتح الله خليف:

((الاغتراب بالمعنى الاسلامي اغتراب عن الحياة الاجتماعية الزائفة الجارفة، واغتراب عن النظام الاجتماعي غير العادل، فالغرباء قاوموا

(١) عفيفي ، ابو العلا، التصوف ، الثورة الروحية في الاسلام / ط١ / ١٩٣٦ / ص١١١.
(٢) القرآن الكريم / سورة الحديد – الاية٢٠.

الحياة ومغرياتها بطريقة ايجابية وسلبية، فقهروا السلطتين جميعاً، سلطة الحكام وسلطة النفس بترويضها على الطاعات والمجاهدات واعتزالهم الناس))[١].

ويميز الاسلام بين ثلاث فئات من المسلمين، المسلم والمؤمن والعالم، يميز بين المسلم والمؤمن في قوله تعالى:

((قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ))[٢].

لقد اعطى الله العلماء درجة اعلى من المؤمنين، يستشف ذلك من قوله تعالى: ((شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ))[٣].

وقوله تعالى: ((يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ))[٤].

ويقابل هذه الدرجات ثلاث مستويات من اغتراب الانسان عن الآخرين: اغتراب المؤمن بين المسلمين، واغتراب المسلم بين الكفار، واغتراب العالم بين المؤمنين.

وهكذا نرى ان الاديان الثلاثة الكبرى ((اليهودية والمسيحية والاسلام)) تلتقي على مفهوم اساسي واحد للاغتراب بمعنى الانفصال،

---

(١) خليف ، فتح الله: الاغتراب في الاسلام ، ص٨٨.

(٢) القرآن الكريم / سورة الحجرات / الاية ١٤.

(٣) القرآن الكريم / سورة آل عمران / الاية ١٨.

(٤) القرآن الكريم / سورة المجادلة / الاية ١١.

انفصال الانسان عن الله، وانفصال الانسان عن الطبيعة – الملذات والشهوات – وانفصال الانسان ((المؤمن)) عن الانسان ((غير المؤمن)) ونلاحظ ان المفهوم الديني للاغتراب عن الآخر وعن الطبيعة ينطوي اساساً على ان مفهوم الاغتراب ظاهرة حتمية ((في الوجود الانساني))[1].

ان اللامبالاة التي واجهها الثائر أبو ذر الغفاري من قبل الطغاة والمترفين والظلمة جعله في موقف الدفاع ويمارس واجبه الديني والقيمي في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولو اشترك جميع الناس في صرخة ابي ذر واستجابوا الى هذه الصرخة بدافع ضميرهم الديني ونسقهم القيمي لما دخل هذا الرجل في ماساة الغربة، لقد تركوا ابي ذر يجول ويصول لوحده ولم مهدوا الطريق معه لتشكيل قوة جماهيرية واعية وهذا امر طبيعي، فالمجتمعات البيولوجية تسودها طبيعة حشد القطيع التي لا تنظر الى الحياة بجدية ((همها علفها)) انها شريحة لا تدخل في المواقف المصيرية ولا تدخل مع الطغاة ما يعرضها لامور صعبة، انهم شريحة لا تحب مواقف الالم، شريحة عبثية يقبلها الطغاة ويحققون من خلالها سياساتهم ومصالحهم، فعقول افراد هذه الشريحة طبعت بطابع الخضوع والاستسلام، عقول تستمع الى الوعظ السلطاني وتصدقه، انها شريحة لا تريد مطلقاً ان يحركوا أي سؤال او احتجاج ضد اولياء امرها من الحكام والسلاطين.

(1) pappenhiem , Fritiz , the Alimenation of modern man, monthly review press New York , 1959, P.110.

وفي ظل هذا الانحطاط القيمي والديني فرض على ابي ذر ان يبقى وحيداً، ينادي ولكن لا حياة لمن ينادي، يجابه الظلم والانحراف لوحده، ولكنها كانت مواجهة لاذعة صادرة عن قناعة خالصة بان هذه المواجهة تعتبر دون شك جهاداً في سبيل الله، وهذا ينسجم تماماً مع ما يقوله رسول الله (ص): ((ما من مسلم يظلم مظلمة فيقاتل فيقتل الا قتل شهيداً))[1].

وبهذا امسى الجهاد في الاسلام نوعين: جهاد العدو الكافر وجهاد الظالم المسلم، الا ان وعاظ السلاطين الذين باعوا آخرتهم بدنياهم افتوا على نقيض هذا المبدأ فاكدوا على ان معارضة الحاكم الظالم الجائر المستبد من المحرمات ولا يجوز للمسلم ممارستها، وان الخضوع للسلاطين وان كانوزا هؤلاء من الفاجرين والفاسقين والظالمين هو واجب ديني ومن هنا فرغ المبدأ الذي جاء به النبي محمد (ص) الذي يؤكد على وجوب النهي عن المنكر والامر بالمعرف من محتواه، فليس هناك في المجتمع الاسلامي من يجرأ ان يقول للحاكم الجائر ((لا)) فالسكوت والخضوع تجاه السلاطين كما يراه وعاظ السلاطين هو واجب اسلامي، ومن يخالف هذا التشريع فان سوط السلطان ينتظره، فلكل سلطان في المجتمع الاسلامي جلاوزته الذين يتجولون في الشوارع والاسواق لرصد من ينتقد السلطان او يعارض سياساته وقد اطلق على هؤلاء الجلاوزة أسماء كثيرة من اهمها وابرزها ((شرطة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر)) وقد امتد هذا النظام البوليسي الى

(١) المغربي / عبد القادر: الاخلاق والواجبات / ص١٦٠.

يومنا هذا، انهم السيف البتار الـذي يـستخدمه الحـاكم الطـاغي لـضرب الشعب واذلاله وسلب حرياته واهانته وطمس كرامتـه، ان شـعار هـؤلاء الجلاوزة العصى لمن عصى.

المبحث الثاني:
أبو ذر جرح في التاريخ

ومن الاحاديث المأثورة عن النبي (ص) انه قال: ((بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء من امة محمد))[١].

وأبو ذر في الواقع شخصية غريبة، قال عنه النبي (ص): ((رحم الله ابا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده))[٢].

ومما يلفت النظر ان نجد ابا ذر البدوي الوحيد الذي دخل الاسلام قبل الهجرة حين كان النبي (ص) معذباً ومضطهداً.

والبدو في العادة شخصية مريضة جداً، فهم لا يدخلون في دين لا قوة له، فهم ينتظرون ويبحثون عما يستعبدهم ويذلهم ويتحكم فيهم، فهم يؤمنون بالقوة ويحتقرون الضعيف، ولذا وجدناهم يسخرون من النبي محمد (ص) ايام كان ضعيفاً مضطهداً، ولم يكد محمد (ص) ينتصر ويأخذ زمام القوة بيده حتى رأينا القبائل البدوية تدخل في دين الله افواجاً افواجاً.

ومن الغريب ان نجد بدوياً واحداً يشذ عن هذه القاعدة، هو انسان

---

(١) انظر: عبد الرحمن بدوي / شخصيات قلقة في الاسلام / ص٤٦.

(٢) انظر: عبد الحميد السحار / أبو ذر الغفاري / ص١٥٨.

الاغتراب أبو ذر، فهو قد اسلم قبل ان يلقى محمداً (ص)، وهو قد لاقى من سخرية قومه في هذا السبيل عنتاً كثيراً.

يحدثنا عبد الله بن الصامت ان ابا ذر قال له: ((لقد صليت يا ابن اخي، قبل ان القى رسول الله بثلاث سنين))، فساله ابن الصامت عن الوجهة التي كان يصلي نحوها، فاجابه ابو: ((حيث وجهني الله عز وجل))[١].

اتهم أبو ذر المترفين بانهم يزعمون: ((ان يد الله مغلولة وان الله فقير ونحن اغنياء))، فلاموه في ذلك فقال: ((لو كنت لا تزعمون.. لانفقتم مال الله على عباده)) وغضب منه عثمان غضباً شديداً، فقال لمن حوله: اشيروا عليَّ في هذا الشيخ الكذاب، اما ان اضربه او اقتله، فانه فرق جماعة المسلمين، او انفيه من ارض الاسلام..)) فقال الامام علي بن ابي طالب (ع) وكان حاضراً: ((اشير عليك بما قاله مؤمن آل فرعون: فان يك كاذباً فعليه كذبه وان يكن صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم، ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب))، وقد عثمان من علي(ع) لجوابه هذا، واتهمه بانه هو الذي حرض ابا ذر عليه في سبيل اغراضه الخاصة[٢].

نفذ صبر السلطة اخيراً فقد كان هذا الثائر يراقب الانحراف الذي اصاب الدولة الاسلامية، ويرى كيف توزع السلطة اموال المسلمين الى طريد الرسول مروان بن الحكم، واقاربه من الذين أذاقوا النبي(ص)

(١) انظر: المصدر السابق / ص٤٦.

(٢) نفس المصدر السابق / ص١٥٤.

الويلات والعذابات ومن اشترك في العديد من المؤامرات التي كانت تحاك لقتل الرسول (ص).

فاخذت السلطة تفكر بطريقة تتخلص بها من هذا الصوت المدوي، صوت لا يخشى في الله لومة لائم، صوت لايخاف، صوت يمثل الحقيقة بكل عنفوانها ويقف بوجه اللاحقيقة بكل حقارتها، صوت لايمكن له ان يخفت ترغيباً او ترهيباً، وعليه قرر اصحاب القرار نفي ابي ذر الى صحراء الربذة، وامرت كذلك بان لايشيعه او يودعه احد، والظاهر ان علياً قد رأى في هذا الامر الجائر تجاوزاً لحدود الضوابط الاسلامية وقواعدها، فأبو ذر ليس هناك من يجهله انه من ابرز اصحاب رسول الله (ص)، ومن المقربين جداً لنفس رسول الله(ص)، وكان موضع ثقته وتقديره، لذا تجاهل ما امرت به السلطة فخرج لتوديع ابي ذر بصحبة ولداه الحسن والحسين(ع) واخوه عقيل وابن اخيه عبد الله بن جعفر، وكان مع هؤلاء في توديع ابي ذر رجل آخر، عرف بقوة ايمانه وتمسكه بدينه وشدة تمسكه بالحقيقة والحق انه ابن اول شهيد وشهيدة في الاسلام انه المجاهد عمار بن ياسر.

يحدثنا التاريخ ان السلطة في ذلك الوقت غضبت على عمار بن ياسر لتوديعه ابا ذر الغفاري وكأن هذا الثائر من المشتركين او من اليهود او من الاجانب او الدخيل على المجتمع الاسلامي فاصر بنفيه ايضاً، فجاء الامام علي بن ابي طالب(ع) الى اصحاب القرار يلومهم في ذلك، فهددوه بعنف بنفيه اياه بالذات، عند ذلك جاء نفر من كبار الصحابة فلاموا الحاكم وقالوا له: كلما غضبت على رجل نفيته، فان هذا امر

لايسوغ)) تلين الحاكم وتراجع عن قراره بنفي الامام علي بن ابي طالب(ع) والمجاهد عمار بن ياسر.

لقد ظهرت في ايام عثمان، كما اشار الدكتور طه حسين طبقة قوية من اصحاب الامتيازات والملكيات الضخمة[١].

وكان بازائها المحرومون من سواد الناس، وهذا امر شديد الخطر، فهو بمثابة وضع برميل البارود قرب شعلة من النار، سيما اذا كان في الناس اصحاب المبادئ الاشداء على ملاحقة الحق دون ان ينظر الى نتائج موقفه من طراز ابي ذر الغفاري صاحب راية المساواة والحرية والعدالة الاجتماعية وانصاف المظلوم.

لقد هيأ أبو ذر الغفاري لقلة جديدة حاسمة نحو الانا القيمية، فحمل هموم واهتمامات مجتمعه، فعصفت به العزلة والغربة، وعاش معاناة الالم ولكن بموقف حديدي كشف لنا ان هناك من يضحي من اجل الحقيقة والقيمة وكشف لنا ان هناك من يضحي بالقيم الحسية ومسرات الحياة من اجل الوصول الى عالم الانسانية وتجاوز العقبة الخارجية التي تشوه هذا العالم، وهذا ما ينسجم ويتفق مع ما جاء به السيد المسيح الذي يقول: ((اننا نضيع انفسنا لنجدها على صورة ارقى واعلى))، وهذه العبارة الفائقة المعنى والعميقة الابعاد تعني ان في الحياة القيمية ما يسمى عادة ((معادلة الالم))، فالالم والغربة والتغريب التي تعرض لها الصحابي الجليل ابا ذر الغفاري ذات قيم لانها ذات وظيفة تمثل في

(١) انظر: طه حسين ، المصدر السابق / ج١ / ص١٠٥.

ضرورة الوجود الدائم للحياة الروحية، وبالتالي انطلق هذا المجاهد من حقيقة تؤكد انه لايمكن قيام حياة قيمية وجدانية اخلاقية بدون التصادم مع عناصر الشر.

ارسل عثمان بن عفان ثمانين الف دينار الى ابي ذر الغفاري مع احد عبيده وقال له: ان قبلها منك أبو ذر فأنت حر.

ذهب الرجل الى ابي ذر وعرض المبلغ الضخم عليه قائلاً له: يا ابا ذر اقبلها فان فيها عتقي، فاجابه أبو ذر الغفاري: ((ان كان فيها عتقك فان فيها رقي)).

ان اصحاب المبادئ دائماً هم اصحاب عزائم تعجز دون ثنيها او ترويضها كافة العروض.

كان أبو ذر دوماً يؤمن بالجوهر ويكفر بالمظهر، يعلم ان قوة المرء في قلبه لا في ثوبه، وحدة الحسام بحده لا بغمده، وقد جسد أبو ذر قيمه وكل ما يؤمن به بالعقل السلوكي، يقول كلمة الحق ولا يخشى احداً.

سأل عثمان بن عفان كعب الاحبار وهو يهودي يدعى انه اسلم في زمن عمر بن الخطاب، ما اذا كان يسمح للحاكم بان يأخذ نقوداً من بيت مال المسلمين اذا كان بحاجة لذلك على ان يردها فيما بعد.

اجاب كعب الاحبار عثمان: ((ليس هناك عضاضة في هذا العمل))، فقال له أبو ذر الغفاري عندئذٍ: ((اتعلمنا ديننا يابن اليهود؟)).

أبو ذر رجل صنعته السماء، رجل يسير مع الوفاء الـذي امـر الله عـز وجل به، الوفاء مع الميثاق الذي اخذه الله على عباده الذي ائتمنهم علـى تبليغ كلمة الحق ((**وَإِذَ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ**))[1].

لذلك كان علـى ابـي ذر ان يبلـغ مـا يعرفـه مـن امـر الله وشـرعه، وللآخرين ان يقبلوا او لا يقبلوا.. ان يثقـوا او يرتـابوا.. انـه يمثـل كلمـة الحق كلمة الصدق.

قال رسول الله محمد (ص): ((ما اقلت الغبراء ولا اظلـت الخـضراء اصدق منك يا أبا ذر الغفاري)).

لقد اعلن أبو ذر الغفاري مفهوماً جديداً للاسلام، مفهوم يجمـع بـين المسلم والقيمة، بين الضمير والحقيقة، بين الحقيقة والسلوك، بين الدين والعطاء وذلك من خلال نظريته المعرفية التـي توصـل الانـسان الـى الله والتي تقول ان الاسلام سلوك وليس ادعـاء، فعـل ولـيس عـادة، وبهـذا تجاوز أبو ذر الغفاري في نظريته هذه ميدان الانتماء الى ميدان الوجـدان والارادة، الى حياة روحية خصبة، يشعر فيهـا بالـسعادة القـصوى لا مـن جراء معرفته للحق فحسب بل من اجل تذوق التضحية فـي سـبيل هـذا الحق والاتحاد بكل ابعاده الانسانية قلبياً وبدرجة عالية من الصفاء الكلي.

كان معاوية يبني داره الخضراء فمر به أبو ذر الغفاري، وبدلاص مـن ان يبارك ابو معاوية في تلك الدار ويدعو لها بطول البقـاء والمزيـد مـن

(١) القرآن الكريم: سورة آل عمران / الآية ١٨٧.

العمران وطول العمر لصاحبها ولي الامر كما يفعل وعاظ السلاطين، هتف في وجه معاوية قائلاً: من اين لك هذا؟ ثم اخذ أبو ذر يسأل معاوية قائلاً: ((ان كنت انما بنيتها من مال المسلمين فهي الخيانة، وان كنت انما بنيتها من مالك فانما هو السرف))[١].

اعترض أبو ذر حين راى معاوية يبني لنفسه داراً، واعتبر ذلك منه سرفاص او خيانة، ولست ادري ماذا كان أبو ذر صانعاً لو انه رأى حكام وسلاطين وامراء المجتمعات العربية والاسلامية اليوم على هذا البذخ الذي صار يخترق الخيال والعقل، لعله كان يغمى عليه...!.

يروى ان احد الصحابة دخل ذات يوم على النبي محمد (ص) فوجده مضطجعاً على حصير وقد اثر الحصير في جنبه، فبكى الصحابي اشفاقاً على خاتم الانبياء محمد(ص) وقال متأثراً: ((الا تتخذ لك فراشاً ليناً يا رسول الله؟ فاجابه النبي(ص) اتظنها كسروية؟ انها نبوة لا ملك!))[٢].

وقال النبي محمد(ص): ((اذا ذهب كسرى فلا كسروية بعده... واذا ذهب قيصر فلا قيصرية بعده... ولقد اظلكم من الله خير جديد... نبوة ورحمة))[٣].

ولسنا ندري ماذا كان يقول لو رأى بعض اصحابه وخلفائه من بعده يفوقون كسرى وقيصر بترفهم واسرافهم.

---

(١) انظر: جرجي زيدان / التمدن الاسلامي / ج٥ / ص١١٨-١٢٦.

(٢) انظر: خالد محمد خالد ، الدين في خدمة الشعب / ص٢٦.

(٣) نفس المصدر السابق / ص١١.

لهذا كانت صيحة ابي ذر صدى النتائج اللازمة التي تولدت بعد وفاة رسول الله(ص)، وكانت النتائج هذه الفوارق التي نمت مع الزمن حتى لم تعد تستطيع هضمها نفوس الفقراء... بل تبدلت رفضاً، وسرت انكاراً، وانقلبت صيحة على اؤلئك الذين بدلوا دستور الاسلام وقيم رسالته ولم يمض على وفاة الرسول وانتقاله الى جوار ربه طويلاً، كان هؤلاء يدعون لنفسهم صفة الصحابة ايام رسول الله (ص)، وانهم مثالاً يحتذى في البذل والايثار ونكران الذات، ثم ختموها بالانحراف الصريح والترف المفرق والغنى والدأب على جمع المال... أي المحرومين اذن كان يرى كيف اجتمع لزيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كانت الفؤوس وحدها اداة تكسيره ثم لايلتهب الالم في جوانب صدره؟.. واين محتاج يستطيع ان يرد طرفه راضياً بعد ان يشهد ماشية عبد الرحمن بن عوف وما اقتناه من اباعر وافراس عديدها الآلاف؟.. وهل من معوز يسمع عن مئات العبيد والاماء عند طلحة، وعن قصور الزبير بمصر والبصرة والكوفة وسواها من البلدان، لاينكر هذا اشد استنكار؟.. يا عجباً من اؤلئك الذين رافقوا نبي الرحمة والزهد والتقوى والمساواة والعدالة تجمح بهم مطايا الثروة والترف والرفاهة بعيداً عن المساواة، هكذا جرت خواطر الثائر أبو ذر الغفاري في ذهنه وهو يرى السادة الجدد، وكان عهده الذي عاشه في ظل دولة الاسلام انه لاسيد ولا مسود، رأى الصحابة وقد جمحوا نحو نعيم الدنيا، لقد اقبلوا على الحياة وقد استهواهم منها جانبها البراق، لقد حز في نفس ابي ذر ان يرى الاسلام يستبدل بالقصور والمال والعبيد والمراعي.

لقد مثل هذا الانحراف الذي اصاب جسر الاسلام جراح في قلب ابي ذر تدميه لانها خدوش احدثها شراهة النفوس في كيان الدين، ولكن لم يكن يملك غير لسانه يفيض بجوامع كلمه، تماماً كالاسد اذ يلعق به دماء كلمه.

وربما يثار امامنا السؤال الآتي:

كيف يمكن لصحابي صاحب ورافق رسول الله (ص) واطلع عن قرب على سلوكه وسيرته وزهده وتقواه وعدالته ثم يقدم على مثل هذا السلوك المنحرف، تغلب عليه فتنة البذخ ويستهويه الثراء وحب الاقتناء وحياة الترف؟ !!!.

للاجابة نقول ان مفهوم ((الصحابة)) قد اخترق اختراقاً من قبل الكثير من المنافقين، فالكثير من هؤلاء الصحابة ممن ارغموا على اعتناق دين الله فدخلوه واعناقهم تحت ظل السيف، وان قلوبهم لم يعمرها الايمان او يعلق بها الا بعد ان تألفها رسول الله (ص) بالعطاء لهم والهبات حتى لايحملهم ضعف نياتهم على ان يمالئوا عليه الكفار والمشركين، وكان النبي محمد (ص) العارف بطوايا الانفس واهوائها.

اما البعض الآخر، فقد كان من النوع الذي يمتلك الفراسة، وبهذا ارتسمت امامه صورة انتصار الاسلام وانهزام الطرف المضاد فاسرع لاعلان اسلامه الا انه في الوقت نفسه اختزن الباطل في نفسه، كما من اسراره وجعلها اهداف مؤجلة، وما ان غاب الرسول الاعظم (ص) عن المسرح حتى عاد هذا البعض العودة الحقيقية لما كانوا عليه من قيم

وعادات واتجاهات، وجعل من الاسلام اسطورة ذهبت ولم يبق لها وجود وبهذا بدأت ايام النهب وجمع الثروات والعبيد والهرولة الى الحياة المرفهة وتقسيم المجتمع الاسلامي الى حيث كان ايام الجاهلية ((سيد وعبد)) و ((عربي واعجمي)) و ((وقريشي وكليبي)) و ((فقير وغني)) و ((ابيض واسود)) و ((وقريب وغريب)) وهكذا فمنذ اللحظة التي انتقل بها الرسول الاعظم (ص) الى جوار ربه اخذت سفينة الاسلام تغرق شيئاً فشيئاً الى ان انتهت ان يكون ربان السفينة من الطلقاء وابناء الطلقاء ومن الذين اهدر الرسول دمهم ولعنهم ولعن اصلابهم، فهذا الحكم بن ابي العاص عم عثمان بن عفان الذي خاض في رسول الله (ص) من فحش القول والاشارة بما لم يغفر له بعد اسلامه ونفي الى الطائف لايبرحها بامر رسول الله (ص)، وهذا ابن ابي سرح الذي اسلم كما يبدو نكاية في الاسلام، حتى اذا وكل اليه النبي محمد (ص) كتابة بعض الوحي خان الامانة وحاول ان يبدل ويغير في التنزيل، فاهدر الرسول (ص) دمه، وكان ايضاً فيهم الوليد بن عقبة الذي عاد الى الرسول (ص) وقد كان بعثه الى بني قريظة بعد اسلامهم، فزعم انهم هموا ان يفتكوا به... وغضب له المسلمون، وكادوا ان يشعلوها حرباً من اجله لولا ان تداركتهم آية من عند الله قالت فيه: ((**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**)) سورة الحجرات - الاية٦.

ولقد حقت كلمة الله عليه، بعد ان ولاه عثمان ولاية الكوفة، فما لبث الا قليلاً في هذا الموقع حتى جاءت الاخبار بصفحة ملطخة، هي الصورة

الواضحة لنفس هذا المنافق الذي كشفه القرآن الكريم قبل كثير من الاعوام.

ثم هذا الاختراق الاكبر لدائرة الاسلام ومنظومته القيمية ومبادئه السامية انه مروان بن الحكم بن ابي العاص، فهذا طريد رسول الله (ص) ومن هدر دمه حتى لو تعلق بستائر الكعبة يعين بامر عثمان ابن عمه الحاكم الحقيقي للدولة، ثم صعد رصيد هذا الطريد عدو الاسلام الاشد بعد ان زفه عثمان بن عفان الى ابنته ام ابان، فراح الناس يتطلعون اليه تطلعهم الى مالك اقدارها المتحكم في مصائرها، لقد كان هذا الطريد مفتوناً بالصلف، مستبد النزعة، يثيره النقد حتى الحماقة، ولا يدفعه الى معالجة الخطأ بقدر ما يدفعه الى الاصرار عليه وهذه صفة كانت علماً على سياسته وسلوكياته.

لنقف في هذا المشهد لنرى ان هناك كفتي ميزان، كفة تمثل رسول الله النبي محمد(ص) الذي يرى مروان بن الحكم العدو اللدود له ولدعوته ورسالته الاسلامية والذي لم يترك سلاحاً الا ورفعه بوجه الاسلام واصحابه ودون هوادة، وكفة تمثل عثمان بن عفان ابن عم مروان بن الحكم الذي كان مفتوناً اشد افتتان به، ولا يطيق ان يسمع فيه كلمة حق وان جاءت على لسان من لاتعلق به شبهة.

وكان قد منح زوج ابنته مروان بن الحكم يوم عرسه مائتي الف من بيت المال سوى ما كان قد اقطعه اياه من قطائع، فلما اصبح جاءه مع الصباح زيد بن ارقم خازنه على بيت مال المسلمين، حزيناً يشرق بدمعه يرجوه ان يقيله، استغرب عثمان غاية استغراب من البكاء والرجاء وراح

يحدس في ذهنه الدافع الذي حدا بعامله ان يترك عمله، ويتوسل الى الاقالة باعتصار عينيه، فلما اعيي ذهنه ان يقع على سبب واضح معقول، واستوضح الرجل وعلم سره، بلغ به العجب مستواه ومداه.

وقال اخيراً محيراً، بعد ان القى زيد اليه بما في نفسه: ((اتبكي يا ابن ارقم ان وصلت رحمي؟)).

فاجابه خازن بيت المال بلا مواربة ولا خفاء: ((لا يا امير المؤمنين.. ولكن ابكي لاني اظنك اخذت هذا المال عوضاً عما كنت انفقته في سبيل الله في حياة رسول الله... والله لو اعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً)) !.

فاغضبته هذه البادرة ايما غضب وصاح محنقاً بالناصح الامين: ((القِ المفاتيح يا ابن ارقم فانا سنجد غيرك)).

الا ان هذه لواقعة لم تكن الا حلقة من حلقات سخاء عثمان وحرصه على ان يتخم آله ((بني امية)).. ((الشجرة الملعونة في القرآن))، باسباب الجاه.. فحيثما جرت العين في سطور تاريخه رأت اغراقاً في البذل تكاد ان تحسبه من خيالات الاوهام، حتى في بدء حكمه، في ذات اليوم لخلافته، منح ابا سفيان شيخ بني امية والعدو للاسلام وبنيه مائتي الف درهم... ففيم هذا التبذير لاموال المسلمين؟.. وهل كان أداؤه لسبب معلوم؟.. لعل الرجل كان يعمل جاداً على تأسيس الدولة الاموية، لذلك كان على علم ان تأسيس مثل هذه الدولة تحتاج الى الاموال الطائلة لاسيما في ايامها الاولى، لعله كان يستجيب لهذا

الهدف وليس هناك من يستطيع ان يوقفه او يمنعه من هذا الدافع الشخصي القبلي.

اما الناقد وعلى رأسهم الصحابي الثائر أبو ذر الغفاري فيسير عليه ان يثبت له، وان يجابهه بكل صنوف الاتهام، الم يكن هذا الانفاق في غير وجوه الاصلاح العامة الا عبثاً كاملاً باموال الملسمين؟.. وهذه الآلاف المبذولة، ان عرف جدواها على بني امية فما جدواها على الامة الاسلامية؟.. وما للشعب ولام ابان بنت عثمان بن عفان يتزوجها مروان بن الحكم ولعائشة اختها يتزوجها الحرث اخوه فيجزل الخليفة ولي امر المسلمين للرجلين العطاء ويمهرهما كاغلى ما تمهر النساء؟.

لقد كان عثمان غنياً حقاً يسعه ان يبذل العون لاهله بني امية، ولكن أي ثروة هذه التي تحتمل توزيع مائة الف دينار على الحكم بن ابي العاص ورجال بيته، ومائة الف ثانية على بني عثمان، ومائة الف ثالثة على بني امية وآل ابي سفيان، ثم غير هذه المئات المؤلفة على البقية الباقية من اسرته الوفيرة الفروع والافراد؟.

هذا الاغراق والاستهتار في هدر اموال الدولة والشعب كان حرياً بان يشكك في الامر شعبه الفقراء وشعبه الذي يعيش حالة الاملاق، شعب عاجز ازاء مواجهة هذا الحكم الذي يرفع سيفه طريد رسول الله (ص) مروان بن الحكم، ازاء قوة سلطة لاتعرف غير قبيلتها وفروعها وعلى رأسهم فرع بني امية، اذن هو شعب مغلوب على امره يعيش حالة تهديد دائم لامنه وقوته وعياله، يفتقر الى ذلك الاحساس بالقوة والقدرة على المجابهة، الذي يمد الحياة بنوع من العنفوان ويدفع الى الاحترام

والمجابهة، الشعب الاسلامي الذي تعود على قيم الاسلام التي رسخها واقام دعائمها رسول الاسلام محمد (ص) شعب عاجز عن مواجهة سيف مروان وصبيان بني امية، شعب تبدو له الامور وكأن الاسلام اصبح منتهي الصلاحية، فقد رحل الاسلام برحيل النبي العظيم (ص)، وان السلطات التي جاءت بعده لاتحتاج لمثل هذا النظام السماوي، شعب محروم ضعيف يرى ان هناك انعداماً في التكافؤ بينه وبين قوة السلطة، وبالتالي فهو معظم الاحيان يجد نفسه في وضعية المغلوب على امره، يفتقد الطابع الاقتحامي في السلوك، سرعان ما يتخلى عن المجابهة منسجماً او مستسلماً او متجنباً اما طلباً للسلامة وخوفاً من سوء العاقبة، او يائساً من امكانية اصلاح الخليفة وتغيير توجهاته الاموية، وبذلك يفقد موقفه العام من الحياة، الطابع التغييري الفعال، ويقع في اسلوب التوقيع والانتظار، والتلقي الفاتر لما قد يحدث.

في هذه الظروف اللاعقلائية والمنحرفة عن جادة الاسلام الحقيقي وقيمه السامية ظل الشعب الاسلامي ينتظر صوت يصرخ نيابة عنه، صوت قوي يرعب الجبابرة، صوت كفيل بقلب الامور رأساً على عقب، حامل راية الاحتجاج والنقد، ومن البديهي ان ذلك الصوت لايمكن ان يتجاوز من قال فيه الرسول الاعظم النبي محمد(ص): ((ما اقلت الغبراء ولا اظلت الخضراء اصدق منك يا ابا ذر)).

أبو ذر المحاور العنيد للحقيقة والمدافع عنها دون ان ينتظر الى النتائج، يحمل الاسلام في قلبه ويحسده في سلوكه، رجل واجه تجعد الاسلام بضمير طاهر، رجل يتفيأ بظل الاسلام لا بظل السلطة، رجل نذر

حياته للعشق الاسلامي، رجل ثائر رفع شعاره القيمي ((لادين لمن دان بولاية امام جائر)) من هنا شكل أبو ذر عقبة حقيقية وفعلية ازاء مخططات وتوجهات وسياسات السلطلة ولا بد ان يواجه بنوع من المقاومة التي تشعره بالعجز عن تحمل مثل هذه المسؤولية، مجابهة ومقاومة قمعية مفرطة تجعل الجماهير السطحية العفوية التي يراهن بها أبو ذر تنسحب من ساحة الصراع وتترك ابا ذر وحده يحس بالاسى لما تعانيه هذه الجماهير من مشاعر دونية، جماهير رضت بوضعها فاخذت تجتر آلامها بصمت، وبهذه الصورة لمثل هذه الجماهير العاجزة غان دور هذا الثائر في تعبئة الناس المقبورة سوف يتراجع وسوف تفشل محاولات تحريكها، فهي جماهير ضعيفة تخاف الموت، جماهير عاجزة عن تحمل مسؤولية المصير، جماهير لايمكن المراهنة عليها، جماهير لاتمتلك الطاقات الخلاقة التي تمكنها من مشاركة ابي ذر صوته ((كلا)) ان الخوف تحكم بهذه الجماهير المبقورة، الخوف من السلطة، الخوف من سيف مروان بن الحكم، الخوف من فقدان القدرة على المجابهة، الخوف من شرور بني امية عشيرته واهله، فهو يضع نفسه مسبقاً المحامي والمدافع عنهم، ولايستطيع تحمل من يعارضهم او ينتقدهم او يحتج على تصرفاتهم واعمالهم الاجرامية، انه خليفة مبهور باهله، فهم بالنسبة له كيان سحري تجاوز عالمه الاسلامي الذي اخذ منه موقف الصد والنكران سواء في تقريب اعداء الاسلام او في السماح لافراد عائلته الاموية واطلاق يدها لاهدار كرامة المسلمين، والامثلة على ذلك لاتحصى، ويكفي ان نرى السياسة التي اتبعها هذا الحاكم، سياسة اختطها

لنفسه والتزمها اشد التزام، اذا وزنها الفاحص المتريث اعوزه ان يلتمس لها المعاذير وان كان لايعوزه ان يقدر دوافعها ونتائجها فلا يخطيء في التقدير.. ولمن غابت عنه دعوة ابي سفيان لذويه – يوم استخلاف معاوية – ان يجعلوا الامرة ملكاً تتوارثه الاسرة، فليذكر ان هذه الدعوة الان.. وليعجب اكانت إيحاءاً خفياً او علناً من شيخ بني امية ومؤسس دولتها الجائرة رسب بواعية الحاكم الثالث، ثم طفا آونة في صورة جود يزري بكل جود، وثانية في مظهر جاد يعز على الناظر والاشباه !، ثم يسأل من بعد هلا يفيء المال منعة وقوة، وهلا تفيء القوة سلطاناً وسطوة؟.

انه الامس فقط.. الامس القريب الذي لم يكد ينطوي في الفاف الماضي الا من قليل وان بقي ذكره حاضراً في اذهان الناس لاتغيب آثاره.. وانها الدعوة ايضاً.. الدعوة السافرة الجريئة التي حاولت كلمات الخليفة المستنكرة ان تلفها في غلالة تخفيها، فجاءت الغلالة رقيقة رقة تشير بوضوح الى موافقة الخليفة بما طرحه رئيس بني امية ابو سفيان، فلقد كانت كلمات ابي سفيان تعبيراً على ما اتفق عليه في بناء صرح الدولة الاموية، وازاحة العقدة التي جاء بها محمد(ص) والتي تعد من اشد العقد التي واجهتها قريش وتحدت بني امية.

لقد تفاقم خطراً دعوة محمد(ص) الى الحد الذي ادى الى تهميش دور ابي سفيان ورموز بني امية، والآن جاء اليوم الذي يمكن ان ترفع هذه القيود، فيرجع السيد سيداً والعبد عبداً والشريف شريفاً والوضيع وضيعاً، والفقير فقيراً والغني غنياً، لقد كان لمبدأ تساوي الناس الي جاء

به الاسلام اسوأ الاثر في قريش، فعاشت قريش وفخذها بني امية على وجه الخصوص اياماً مؤلمة وغاضبة كتبها محمد(ص) عليها دون ارادتها، والان وصلت السفينة الى ميناء بني امية لتتوقف فجأة لتفرغ من جوفها الرسالة الاسلامية وضوابطها وقيمها ليركبها وبدون عناء يذكر رجال بني امية ولترفع اصراتهم وليعلنوا انتصار كلمة قريش على كلمة محمد(ص)، كلمة محم(ص) التي ملأت النفوس غيظاً وحنقاً وبغضاً.

ويبدو ان استلام عثمان بن عفان الاموي مقاليد الحكم والسلطة من شأنه ان يرفع من كان في الجوف السفلي للسفينة الاسلامية ليقذفهم الى المقاعد العليا ويثبت وجودهم تمهيداً لتأسيس دولتهم لتي فقدوها على يد رسالة النبي محمد(ص) انه وعد عثماني، وفي تصريح رسمي بان يثار للنفوس الغاضبة على الاسلام والمدافعة عن حق العزى وهبل واللات التي اهانها وحطمها فأس محمد(ص)، وليكن اول ايام حكم عثمان الاموي المقدمة الكبيرة للانتقام واستخلاص حق الامويين من مغتصبيه، كعبد الله بن مسعود، وعمار بن ياسر، وأبو ذر الغفاري، وزيد بن الارقم والكثير من الرموز الاسلامية التي ساندت ودافعت عن الدعوة الاسلامية وزعيمها.

الفصل الرابع

المبحث الاول:
الرجعة النكوصية للاسلام

لقد ادرك ابو سفيان اهمية هذا اليوم، ودور هذا اليوم في تحقيق ما يصبوا اليه، ودور الشرط الذي اقترن بهذا اليوم، شرط يمثل لعبة البيت الاموي لهزيمة ماجاء به الاسلام، شرط سوف يعترف باحقية بني امية والغاء الامر، شرط جعل اقامة الدولة الاموية وازاحة الدولة الاسلامية ممكناً، شرط ربط دينه بدين بني امية، شرط جعل الحكم ساحة نشاط اهله وازدهار ثرواتهم وتقوية سيوفهم وانتشار فجورهم وفسوقهم، شرط اكد سياسة بذخ القلة وحرمان الاغلبية وعوزها، شرط رفع السيف بوجه كل من تجرأ ان يبوح بما في صدره بما اعتقد انه حقيقة اسلامية، شرط نال على يده الكثير من صحابة رسول الله(ص) الاضطهاد والتعذيب والحبس او القتل الشيء الكثير، ولم يسلم الا من اتخذ الصمت سلوكاً له.

من هنا انطلق ابو سفيان ليشكل كلاً موحداً مع هذا الشرط، انه ابن عمه عثمان بن عفان، كلاً يتبادل التأثر والتأثير، كلاً يتذكر الإرهاصات التي عاشها بني امية في ظل الدولة الاسلامية ورموزها واعلامها، كلاً يتهكم على حرة الضمير التي جاء بها الدين الاسلامي والتسامح الذي يعيش الناس في كنفه على اختلاف اجناسهم وعروقهم ومذاهبهم

وقبائلهم، كلاً نظر بسخرية الى اتباع محمد(ص) فبدأ بتصفيتهم واحداً بعد الآخر بقيم زائفة، فالحكومة الجديدة، حكومة بني امية تعاقب بالسيف لكل من ينشق على عقائدها وأوامرها وتوجهاها.

لقد ادى المخاض في النهاية الى قيام الدولة الاموية، فلقد تخلص الشيخ من قيود الاسلام، فالاقربون اولى بالحكم، وان العرف الملتزم يتحتم على الشيخ ان يقدم اهله ويدعو الى انصافهم بعد ان ذلهم الاسلام وانتزع عزتهم وسلطانهم.

ليست العبرة ان يكون الانسان مسلماً، العبرة ان يكون وفياً لاهله الذي يجمع بينه وبينهم الدم، والدم اعمق ارتباطاً من الدين، لذلك فلقد ذهب عصر الخرافات الذي الغى العصبية القبلية، لقد ذهب عصر المساواة بين الحر والعبد، لقد هذب عصر العدالة، وجاء عصر التقاليد والتقيد بقيم الماضي، عصر ارجع الشريف الى ان يأمن في البرج العاجي وينشد اللذات والشهوات دون مشاركة الغوغاء والعامة.

لقد وجد المسلمون انفسهم امام طريق جديد، طريق حافل بالمخاطر، طريق لا تعرف بدايته ولا تعرف نهايته، فالخليفة الجديد خص اهله من بني امية بكثير من اهتمامه، وارتبط بقريش لدرجة العشق والعبادة، واحب بني امية واعتز بالانتماء اليهم، ودعم حبه هذا بالفعل، ففتح خزائن الدولة امامهم، وسمح لسيفه مروان بن الحكم ان يلاحق رموز الدعوة الاسلامية، وجعل شعبه يعيش عصر الحرمان، لقد احس المسلمون انهم بصحبة يعكس حكمه صدى القيم الاموية بكل ما فيها من واقع ماجن ظالم جائر، واقع لايوجد في قاموسه احترام الانسان

وكرامته وقيمه، واقع لايوجد بين مفاهيمه مفهوماً للحب، واقع عن هدى الاسلام قد ابتعد قيماً وانتماءاً.

واقع ارجعها جاهلية، وكان ابو سفيان المعبر الحقيقي لهذه الرجعة النكوصية، واكب كل خطوة من خطوات تسلق ابن عمه الحكم، وبعد تسلمه لم يبق حيادياً، بل صال وجال، وكان لصوته اثر، ولكلمته فعل وتاثير.

لقد كان العصر كله لابي سفيان، انه يوم انتصاره على محمد(ص) الذي اذله وسلب سلطته وزعامته، لقد كان العصر كله يوماً واحداً، هو اليوم الأول لخلافة الشيخ الاموي، يتكرر مع الصباح ولا يتغير، كالصور الشتى لاصل معلوم، وكان موسوماً بسمات طبعها عليه الماضي قبل ان يطبعها الحاضر، ولو استعان المرء بخياله قبل حواسه على استخلاص صورة جامعة عنه، لوسعه ان يراها في ذلك المنظر الماثل في الذهن وان غاب عن العين، بدار عثمان يوم استخلافه، وقد اجتمعت شرذمة من اسرته يهيب بها سيخها وبالخليفة الجديد.

((يا بني امية... تلقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به ابو سفيان ما زلت ارجوها لكم، ولتصيرن الى صبيانكم وراثة !..)).

هذا المنظر القديم هو الصورة التي تحمل في معالمها كل دقائق العصر، بل هو — في الحق — الصورة المتكررة لكل ايامه حتى لكأن ابا سفيان كان يقف نفس موقفه هذا في كل صباح ليدعو بدعوته.. بهذا تحدثت الوقائع من بعد كأنمالسان ابن حرب كان لها لسان حال، وبه تكلمت الاحداث التي تلاحقت دراكاً، فما مر يوم واحد من حكم

السليل الاموي الا وفي ثناياه دليل بالغ عن التزامه المنهج الذي رسمه سيد قومه، ولا جاءت لحظة الا حملت منه الولاء لدعوة شيخه غاية الولاء، ضرير بني امية دعا، واامير بني امية الجديد لبى ونفذ، لقد احتذى الحاكم الجديد لما اراده شيخ بني امية ابو سفيان.

فلقد كان هذا الحاكم الاموي يسير في كل احكامه وافعاله وقراراته على الخطوط التي رسمها له ابو سفيان، وكأنما كانت كلمات ابو سفيان خارطة الطريق له لايحيد عنها ابداً، تدفعه هذه الكلمات التي يؤطرها النهج الجاهلي بكل مفرداتها دائاً الى الرؤى الضيقة التي تؤكد وحضية اهله بني امية وتعمق العصبية القبلية التي نهى عنها الاسلام وازالها من التكوين القيمي للانسانية.

كلمات قليلة نطق بها ابو سفيان رسمت السياسة العامة للدولة كلمات نطق بها يوم استخلاف ابن عمه عثمان بن عفان، وبهذا اصبح عثمان وكأنما كان ابو سفيان على اذنه يوسوس له قبل كل عمل يأتيه.. ام هو يا ترى نداء الماضي ((نداء الجاهلية)) ايضاً كان ينفذ اليه من خلال الاجيال؟.. ان الوراثة اخيراً قد قهره سلطانها الغلاب، وان الدم الاموي قد اقتضاه ضريبة الواجبة والملزمة التنفيذ والاداء.

ولقد استجاب الخليفة الاموي الجديد لنداء الماضي، ولان لسطوة الوراثة، ودفع ضريبة الدم.. انه اموي المولد اموي التكوين، موصول قلبه باهواء اسلافه... واذا كانوا جروا من قبله اشواطاً في طريق السيادة، ووقفوا طويلاً ينافسون المجلين عليهم في الميدان، وامعنوا في منافستهم حتى ناجزوا في محمد(ص) نفسه سلطان السماء... ان كانت قدر ركبت

بهم نفوسهم كل هذه المراكب ثم قهرهم زمانهم على النكوص والتخلف، فانهم اذن اليوم قد اوشكت شمسهم على البزوغ، واوشكت احلامهم العريضة العودة ان تجد لها منفذاً الى الحياة بعد اصبحت في يد احدهم دولة عريضة تكاد لاتحدها حدود.

لم تكن هذه الدولة الواسعة العريضة هي امتداد لبناء الدولة الاسلامية الكبرى، ولكن لتأسيس الدولة الاموية الجائرة، دولة السيف والقمع والنهب، دولة الجواري والعبيد وطمس الهوية الاسلامية.

عثمان بن عفان الامير الجديد قد استتب له امره، وانقاد له الناس ((حشد القطيع)) والفت بطاعتها الامصار... هذا الاموي اصبح الان امامه مهمة كبيرة، مهمة ما كان امية يرنو الى بعضها بعين الخيال، انها مهمة تأسيس الدولة الاموية، لقد تجمعت بين اصابع الخليفة الاموي خيوط بها دولاً وشعوباً كيفما يشاء.. دانت له الرقاب، وهنت الوجوه، وسالت تحت قدميه الاموال.. ولابد لهذه الاموال التي لاتعد ولاتحصى جمعت من الفقراء والكادحين تحت قوة السوط ان تعرف طريقها الى جيوب وخزائن بني امية، العائلة او لنقل القبيلة المالكة، فعثمان بن عفان كان غارقاً في امويته لذلك كان شعاره ((الاموي اولاً)) وراح باملاء هذا الشعار على كل المجتمع وليرفعه عالياً على رقاب الناس.

ومن ابرز أُسسْ المواجهة مع القيم الاسلامية والابتعاد عنها وضربها عرض الحائط تمثل في هيمنة رموز بني امية على شؤون الدولة بكل مفاصلها وشكلوا حالة من الثنائية المتناقضة مع النظام القيمي الاسلامي، فالتمسك بالهوية والجذور الاموية هو الركيزة الاساسية لبناء الدولة

الجديدة، والافعال التي اقدم عليها مؤسس الدولة الاموية عثمان بن عفان مرآة عاكسة للمفاهيم التي اعتمدتها السياسة العامة للدولة نذكر منها:

وكما سبق ابو سفيان بقية اهله الى سخاء الخليفة حتى فاز منه باول هبة اخرجها يوم الاستخلاف، كذلك كان هو اول من افاد من اسباب النفوذ حين شاء عثمان ان يمكن لآله في السطوة بعد الثروة.. فلم يكد يمض عامان من حكمه حتى ارتفع نجم معاوية بن ابي سفيان في الافق ولمع.. وغدا بعد عامل لعمر على دمشق والاردن، امير للخليفة الشيخ عليهما وحمص وقنسرين وفلسطين، واجتمع له بهذا حكم الشام كخطوة ثانية الى امتلاكها، وامتلاك الدولة كلها بعد اعوام.

ثم سار عثمان بن عفان الاموي يذرع بواعية البلاد فيقيم عليها هنا وهناك عمالاً من ذويه، ويضم في اكفهم صوالح السلطة واخذ افراد الاسرة الاموية الكبيرة ينتشرون في الآفاق امراء من لدنه على الرعية والحبذ، يمسكون بالزمام في البصرة والكوفة ومصر وغير هذه من بلدان، ولم يمض سوى قليل حتى قفز الى اماكن الصدارة امثال ابن عقبة وابن عامر وابن ابي سرح وسعيد ومروان من كانوا الى عهد قريب بين صفوف اعداء الاسلام واعداء نبيه محمد(ص).

وكذلك مكن عثمان لاهله في الدولة، ومكن بهذا لدعوة شيخه الضرير ان تتحقق، واصبحت البلاد في اكفهم كذبابة اوقعها سوء الطالع في نسيج عنكبوت !.

الملفت للنظر ان عثمان بن عفان خليفة الامويين فرض الركون والركود على المجتمع، والتسليم بالحادث كما حدث، وتهيمن الطاعة

والرضوخ والقبول بالامر الواقع على مجمل سلوكياته، فلا رفض ولا انتقاد، ولا رأي سيثري النظر، او جدلاً عن موضوع اقره الحاكم، يجب ان يعيش المجتمع خارج الحياة الفاعلة، فلا يزج نفسه باحداث وسياسات تفوق قدراته، اما المشاركة الآلية التي تعتمد على الموافقة واستيعاب ما موجود من وقائع او مقولات او اعمال فهي المسموح بها، وصاحبها يضمن لنفسه السلامة وبعض الامن على حياته وقوته، بعكس الذي سمح لنفسه لان يفعل في الاحداث بدلاً من ان ينفعل فيها فمثل هذا ستقابله او تواجهه استجابة عنيفة بشكل يكفل ردعه عن كل محاولة، مع ما يضاف اليها من اتهام بمعصية او مخالفة ولي الامر مما يبرر بطشه والانتقام منه، فالسوط والسيف بيد ولي الامر، فالعلاقة بين ولي الامر والناس ليست جامدة كما يتصور البعض انها علاقة متحركة، فالسوط هو اللغة التي يخاطب بها ولي الامر رعيته، الا انها لغة مبررة ومشروعة دينياً وفقاً لما نقله وعاظ السلاطين من احاديث نبوية توضح ان على المسلم اطاعة ولي الامر وان كان فاسقاً او فاجراً، فهناك فرق واضح بين سوط الحاكم المسلم وسوط الحاكم غير المسلم، وهكذا يصبح السوط جزءاً اساسياً من نسيج السياسة للحاكم المسلم، على مختلف الصعد وفي كل الظروف.

لقد نسى او تناسى هذا الخليفة الاموي الذي نصبه صاحب المصالح الشخصية عبد الرحمن بن عوف ظلماً وعدواناً وفرضه على عامة المسلمين حاكماً، نسى هذا ان صاحب الرسالة السماوية المقدسة محمد(ص) قد اكد في كل احاديثه وافعاله وسلوكياته ان دولة الحق،

دولة الاسلام لاتقوم الا على التقوى والعدل ومحاربة الفساد، ان هذا الحق والعدل والمساواة لايمكن ان يتحقق مالم يكن رأس الدولة وقمم السلطة الحاكمة متصفين بالتجرد.

ان اول صفة حددها الاسلام للحاكم هي صفة التجرد والتنزه عن مكاسب الدنيا ومغرياتها، وهذه هي اخلاقية العدل الاجتماعي المنشود.

الفرد المسلم حيث يكون مسؤولاً عن نفسه، قد تكون له آماله وطموحاته الدنيوية ونزواته، وحبه للنعم، فاذا صار مسؤولاً عن جماعة او شريحة او فئة او عن امة فعليه ان يبدل من تركيبه الداخلي، ويسكت نزواته وشهواته الدنيوية ليقابل التاريخ متجرداً، نقياً، نظيفاً، امن بالحق ومارسه على نفسه ومجتمعه.

اذن فعثمان الاموي قد تكون له القدرة على تغيير اوتبديل قبل هذه المعايير الاسلامية التي تحدد سلوكيات الحاكم وتصرفاته تغييراً جذرياً، انه وجد لجلب الرفاه والسعادة لاهله واقاربه وافراد قبيلته، انه بهذا منسجم مع ما اراده القرآن الكريم حين اوصى بالقربى، لذلك كانت سياسته تعبيراً عن قيم اسلامية حققت صلة الرحم، فهو شجرة تمشق طولاً لتظلل اهلها، اما بقية الرعية الذين وجدوا انفسهم تحت ركام الآخر فعليهم بالصبر والصبر هو طريق المسلم وهو الترجمة الحقيقية للايمان، فالبناء الحقيقي الذي يربط الفقير المضطهد بالاسلام هو الصبر على البلاء الذي يفرضه السلطان او الخليفة، اما الاغنياء والفئات المرفهة والمتميزة والتي تعيش البذخ والاسراف وحياة النعيم، فان الله وحده هو

الذي قرر هذا وفقاً لما جاء في القرآن الكريم: ((**وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ**)) سورة النحل- الآية ٧١.

فهل هناك من يعترض على ارادة السماء، وعليه فيكون التنافس او الحسد الموجه لعائلة الخليفة عثمان بن عفان وافراد قبيلته يدخل في باب المحرمات وعدم القبول والرضا لمشيئة الله وامره.

من هنا وجدنا الخليفة الاموي عثمان بن عفان لم يغفل عن الجانب الجمالي الذي ادخله في عمارة قصره المؤلف من طوابق، واهتم بتزيين الغرف والصالات والممرات ولم يغب عن بال الخليفة المسلم ان يصنع محرابه مفصصاً ومذهباً، والقصر بكل غرفه وصالاته يعج بطيب العطور والشذى والروائح الطيبة.

اذن ليس عجباً ان يبقى عثمان طوال عهده مفصولاً ومعزولاً بينه وبين الرعية لايتبين شيئاً من مشاعره نحوها ما دام افراد اسرته كانوا المتقدمين والمتميزين والمتنفذين والمالكين والمتسلطين، هذه الشرذمة التي اذاقت الناس انواع الذل والالم، ولم يخطر في بالها ولا ليوم واحد ان تنطق بكلمة الحق، ولم تشر اصابعها مرة الى مواطن الخير... كل حياتها فسوقاً وفجوراً وعبثاً، كيف لاتكون هذه الشرذمة هكذا وكان سيدها وقائدها ورمزها يتكلم بلسانها ويكتب بقلبها ويفكر بعقلها ويضرب بسيفها، ويسمع بآذانها وينظر بعينها، وكانت صوالحهم هي وحدها اسمى الاهداف، وكانت غاياتهم ركوب هام الناس والنفوذ الى المآرب من أي سبيل.. اما هو فكان الحامي والمدافع عن هذه الشرذمة تقوده في كل ذلك ما يملك من العصبية القبلية الحادة.

هذه هي الخطة التي التزمتها الاسرة الاموية، والتزمها – اشد الالتزام – مروان بن الحكم، وبها استطاع الطريد ابن الطريد ان يملك وحده نواحي القيادة والسياسة في الدولة، وان يتحلب حكمها ويفرض نفسه فرضاً على فكر الحاكم وقراراته.

لم يكن مروان بن الحكم فحسب مشيراً للامير، ولا وزيراً ينصاع لارادته ويعمل وفق امره، ولا اداة يستعين بها عثمان على انجاز ما يريد، ولكنه كان اولئك جميعاً في حساب الظاهر، وكان ايضاً الامير في حساب الواقع الصريح السافر !!!.

وكان امرءاً لم يعوزه الخبث الى جوار الشر وبعد الاهواء، يحرك باصابعه الخيط في الناحية التي تمليها عليه شهوته، ويعمل دائماً وهو محجوب عن الناس بهيكل الخليفة الشيخ فيبدو العمل ويبدو عثمان في آن.. مثله بلا ريب كتلك الهوام تخشى النور وتدب في الظلام، الخفاء كان ميدانه، والدس سلاحه، والتمويه مركبه الى هواه، والخليفة سنده وحاميه.

لقد استند مروان بن الحكم في تمرير ما يريد على:

- الحرص اللامحدود وعلى الحكم والسلطة لدى عثمان.
- تقبل شخصية عثمان لاساليب الخداع والدس والوقيعة.
- انحياز عثمان الى اهله بني امية انحيازاً كاملاً.
- ضيق التفكير والافق الملازمان لعثمان.
- الهلاك دون سلطانه والتشبث به.

- العقلية الساذجة التي يتصف بها عثمان.

- قناعة عثمان بان الناس ينظرون اليه نظرة الاستهانة والاستخفاف والدونية.

- قبوله وبدرجة عالية للبس ثوب الباطل، فلا مانع لديه من التلاعب باموال بيت المال وتفريغه عدة مرات وتوزيع مافيه الى اشرار بني امية دون أي وازع ديني او خلقي او خيري او حتى سياسي.

- حب عثمان لحياة الترف على حساب حياة الفاقة والحرمان لشعب مغلوب مقهور لاحول له ولاقوة.

- تطاوله على صحابة رسول الله(ص) بالاهانة والضرب والتشريد.

- عدم قبول عثمان لاي نقد يوجه اليه حتى ولو كان من ناصح.

من هذا كله حاسب عثمان كل الناس ليدافع عن سلطانه وحكمه، وحاول خنق حرية الرأي لان حياته الناعمة وحياة آله بين امية لاتكون الا في ظلام الاستبداد، ولو استطاع لقطع اسنة الناس ليأمن سماع ما فاضت نفوسهم به من الشكوى المرة.

وهكذا مضت الايام والخليفة الشيخ سائر دون هوادة ولاتراجع في سياسته، لايستطيع ان يمر بصره لاكثر من نطاق داره، ولا ان يرهف اذنه للصيحات التي جاءت تترى من هنا ومن هناك، فاذا رأى فحديث آله ((بني امية)) اصدق عنده من رؤية عينه، ان سمع فتفسيرهم لما صك سمعه هو اذن محور السماع... خشى معاوية ان تفسد عليه دعوة ابي ذر

شعبه وتبتزه ما هو فيه من رفاهة وتسلط ونهب واستبداد باموال الناس يصرفها ويهدرها كما يشاء فكتب الى عثمان يقول:

((ان ابا ذر اعضل بي... وقد اجتمعت اليه الجموع ولا آمن ان يفسدهم عليك، فان كان لك في القوم حاجة فاحمله اليك)).

فكأنه لم يخشى من الصحابي الجليل، الداعية الزاهد، الثائر العنيد المتمسك بدينه الا ان يفسد على عثمان، وكان خوفه هو منه على نفسه لم يطف له بال.

ومع ذلك سمع عثمان ما قاله معاوية عن ابي ذر وكأن عثمان لم يعرف من هو ابي ذر وما هي مكانته من رسول الله (ص)!!.

المبحث الثاني:
القهر بالظلم لإقرار الظلم

ومع ذلك فالى اين ادى هذا الصوت الثائر الداوي الذي ملأ كل الاسماع؟.. وكيف تلقى الدعوة التي جاءته من الشام عبر الصحراء؟... ولاي مدى استوعبها قلبه وتفكر في قيمتها ذهنه هو العالم بان صاحبها ما كان لينطق عن هوى او ليدعو بها لغير وجه الحق الواضح المبين؟.. عجب ان ينسى عثمان كل هذا ويذكر فحسب – كما الهمه معاوية – ان ابا ذر اراد ان يفسد عليه الناس !.

ولكنه كان اقد اولى آله ثقته، يسمع بآذانهم وينظر فلا يرى بعينيه.. ولو مشى اليه بالشكوى آلاف الناس لاصم عن شكواهم سمعه ولتناولهم باغلظ العقاب كما يشير عليه ذووه... لا يشفع للشاكي عنده شفيع من حقيقة ماثلة في شكواه، ولا من اخلاص وامانة تتم عنهما كل مراحل ماضية، وبهذه الروح التي جانبت الانصاف وواجب الحاكم حيال رعيته، تناول عثمان كل ما عرض له من نقد او دعوة الى صلاح، وكذلك راح يناجز المصلحين والدعاة ويقمعهم بسلاح اظلم الطغاة والظلمة، لايدع وسيلة من وسائل النكال الا ركبهم بها عسى ان يقهرهم بالظلم على الاقرار بالظلم... حتى ذلك الصحابي الجليللم يسلم من يده، كأنما نسى له عثمان بن عفان ماضيه وصحبته وعزوفه عن الحياة.. نعم

نسى - فيما يبدو- لانه اراد ان يذكر فحسب ان ابا ذر – ولمعاوية في هذا القول الفصل – جار بدعوته ليفسد عليه الناس، الا فاين الصواب اذن ان لم يكن في دعوة هذا الشيخ وحصنه الموسر على ان يرحم الفقير ولا يكتنز مالا يسعه ان ينفقه من اجل اخ له، وفي سبيل الله، وعملاً بهدى القرآن.

ومع ذلك فلن يعي طاغية ان يقمع داعية... ولن يعجز صاحب طول وسلطان ان يقهر من يريد على ما يريد... وان السلاح في يديه حاضر، وان البطش لكثير الالوان والاساليب، ويحسب هذا الهزيل ابي اذر ان تبعد داره ويشق مزاره ويوارى وجهه عن الخليقة بارض فلاة... بحسبه ان ينفى الى الربذة كما اشرنا سابقاً فلا يلقاه الناس، عساه ان يموت فيها وتسكن عن ذكره وتذكر اقواله واحاديثه السنة الناس !!!.

لقد تصفح عثمان اوراق ابا ذر بعينيه الامويتين واصدر حكمه بان صوت هذا الرجل يشكل خطراً على النظام السياسي القائم، فهذا الرجل مفطور على الخير وعلمه الاسلام قول الحق ولا يخشى لومة لائم، فلا مال يفتنه، ولاعقاب يردعه، ولابد من وجود حل ينهي حياة ابا ذر فتذهب دعوته ادراج الرياح، وهناك من وعاظ السلاطين من يقوم بدوره لاعطاء السلطة الجائرة الشرعية في كل اعمالها، وقد لجأ كل حكام وسلاطين وامراء الدولة الاسلامية لهذا الاسلوب، وهو الوسيلة البارعة، لذلك نجد وعاظ السلاطين في الصف الامامي من صفوف واصناف وتقسيمات المجتمع، انهم شريحة معروضة للبيع في كل زمان ومكان، انهم اناس ضلوا سواء السبيل.

يبدو ان ابا ذر من العقول المتفتحة لذلك ارتقى ليكون من عظماء الاسلام، فالاسلام اثمن شيء لدى هذا الرجل الثائر في الوجود، والانسان كما يقول يعيش ليحب دينه ويدافع عنه ويلتزم بقيمه ويتذوق حلاوة تعليماته.

ان قرار نفي ابا ذر الغفاري الى صحراء الربذة تعتبر اهانة كبرى للاسلام وتجاوز فاضح لحدود الشرع، أبو ذر هو حل لا مشكلة، لكن السلطة الاموية جعلت منه مشكلة لانها تعيش على الحقد والاعتماد على المفسدين، أبو ذر يتكلم عن الحق، والسلطة تتكلم عن الباطل، أبو ذر يتكلم عن العدالة، والسلطة تتكلم عن الظلم، أبو ذر يتكلم عن المساواة، والسلطة تتكلم عن التمييز والعصبية القبلية، أبو ذر يتكلم عن الآخرة، والسلطة تتكلم عن الدنيا، أبو ذر يتكلم عن الروح، والسلطة تتكلم عن الجسد، أبو ذر يتكلم عن الامانة، والسلطة تتكلم عن الخيانة، أبو ذر يتكلم عن القرآن، والسلطة تتكلم عن قريش، أبو ذر يتكلم عن الحلال، والسلطة تتكلم عن الحرام، أبو ذر يتكلم عن محمد(ص)، والسلطة تتكلم عن ابي سفيان، أبو ذر يتكلم عن الانسانية، والسلطة تتكلم عن القبلية، أبو ذر يتكلم عن الخلافة، والسلطة تتكلم عن الامارة، أبو ذر يتكلم عن الايمان، والسلطة تتكلم عن الاسلام، أبو ذر يتكلم عن الحرية، والسلطة تتكلم عن العبودية، وأبو ذر يتكلم عن المبدأ، والسلطة تتكلم عن السياسية، وأبو ذر يتكلم عن الزهد، والسلطة تتكلم عن الجشع، وانطلاقاً من هذه الرؤيا الفكرية القيمية، وقف أبو ذر بوجه الظلم فانتقل من دور الصحابي الذي رافق الرسول الاعظم(ص) في كل مواقفه

الى ثائر متمرد يصرخ بصوت عالي لتخليص مسيرة الاسلام من الانحراف وتحقيق الخير والعدالة التي بدأ بها الاسلام، انه مسلم حقيقي وعى دينه وفهم قيمه وبهذا تجاوز الخوف وارتبط بالحضرة الآلهية فحق له قيادة المجتمع نحو قيم الاسلام المتطورة وتعميقها في نفس الانسان وبدرجة عالية جداً من الثقة بالنفس وقدرته على هزيمة الباطل، وكان الألتزام الديني المحور الذي إتكأ عليه في ثورته اضافة الى الاعتداد بالنفس وبالتسامي بها والشعور بقيمة الانسان الذي كرمه الله ((**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**)) سورة الاسراء – الآية ٧٠.

ولعل ثورة أبو ذر الغفاري كانت اضخم الثورات واوسعها، فقد انشأ أبو ذر سلوكاً ثورياً، فتلاحقت الصرخات بعد صرخة أبو ذر، وتعلم الناس كيفية تكون صرخة الاحتجاج في وجه الظلم والاستغلال، وهذا يعني ان صرخة ابا ذر حملت عناوين قيمة كثيرة، عناوين تمجد الخالق وتسخر من المخلوق من خلال عجائب الكون وامتداح الاسلام في قوة قيمه وشرائعه ورفضه للفشل الاخلاقي الذي يصيب الراعي ((الحاكم)) عناوين تعلم الانسان ماذا عليه ان يفعل وسط التدمير الروحي والقيمي.

ان نقطة البداية في المعركة التي خاذها أبو ذر الغفاري تمثلت عندما رأى عثمان الخليفة الجديد نأى بجانبه عن المهاجرين والانصار، وانحاز الى فئة من اهله مكانهم في الذيول والاعقاب اذا ذكرت منازل ذوي الفضل من المسلمين السابقين الى الاسلام، وترك صوالح السلطة بايدي شرذمة مفتونة من غلمة بيته ينفذونها الى استعباد اهل الامصار، واوسع

للاثرياء في رحابه يستظلون بآلائه ويغرقون من نعمائه، والنفير المحروم مقطوع بينه وبين ماله في تراث الغنى من حق محروم، وارهف الشدة فكانت سلاحاً ذا حدين ! واحد قاطع قمع به شكوى المظلوم، وآخر مثلوم داعب به بغي الظالم، ولا مقياس له عند الحساب غير سريعة الانساب... ثم بدأ في نهاية الامر كمن آلى على نفسه ان يقرأ النصائح الموجهة له من كبار الصحابة فيأتي من بعد بكل نقيض لها، فآثر الاضطهاد والنكال عند محاسبته ناقديه ! يستذلهم وينفيهم ويضربهم ويقطع عنهم موارد عيشهم من الفيء والعطاء كلما جاؤوه بنقد او ارادوه على التزام اصلاح كذلك فعل الرجل وكذلك رأيناه.. تحدث أبو ذر بما فاض بذهنه من افكار وآراء بادئ الامر في المدينة فنبذه الى الشام، وارتفع صوته هناك لحق الفقراء في اموال الاغنياء فرده للمدينة شر ردة، واعضلت به الدعوة من بعد فنفاه بفلاة وفي ظنه ان النفي والتشريد هو السلام القاطع لالسنة المصلحين ودعوة الدعاة وصرخات الحق.

وانكرت فئة من خيرة صحب رسول الله عليه بعض اخطائه فناب عنها لدنه عمر بن ياسر يحضه على الاقلاع عما وقع فيه، ويبصره بالخير في النزوع والرجوع فلم يلق منه سوى الغضب الذي غلب كل روية والعنف الذي بلغت حدته اقسى التنكيل والايذاء، وخالفه ابن مسعود في رأيه عن جمع القرآن فلم يعالجه بالاقناع او يصرفه بالمعروف والاحسان، بل أمر به ان يؤدب على يد طريد رسول الله(ص) مروان بن الحكم وهو يعلم من هو ابن مسعود، انه من قراء القرآن في الاسلام لاجترائه فضربه ضرباً مبرحاً وضربوا به الارض إمعاناً منهم في الشدة

عليه حتى كسروا اضلاعه، ثم لم تقر عين الحاكم حتى ابتع هذا التعذيب بقطع العطاء عنه، انه فعلاً لأمر مستغرب جداً، ان يكون المعاقب من لعنه رسول الله(ص) ولعن من يأتي من صلبه، والمعاقَب اجلَ الصحابة واقربهم الى نفس رسول الله(ص)، مروان بن الحكم ابن عم الخليفة يكسر اضلاع الصحابة ويطرحهم ارضاً بمرأى وموافقة عثمان انه لواقع مؤلم، فكان بمثابة نقطة تحول في حياة المجتمع الاسلامي، لقد بدأت فعلاً معركة الحسم مع الاسلام وقيمه ورموزه من الصحابة، الا ان الاكثر غرابة ان نقرأ ونسمع من يبرر هذه الاعمال الاجرامية والانحراف عما جاءت به الدعوة الاسلامية، انهم وعاظ السلاطين الذين يوزعون الفتاوى بما يرضي ويسعد صاحب القرار، انهم اشرار الامة يتلاعبون بالنظريات والاحاديث ويتجاوزون حدود الله ليقدموا الظالم مظلوماً، والجلاد ضحية، والقاتل مقتولاً.. وهكذا.

الفصل الخامس

المبحث الاول:
الربذة المنبه لإعادة كتابة التاريخ

هذه الصورة السلبية جعلت من سياسة الحاكم السبب الأول للمآسي التي عاناها المجتمع الاسلامي، سياسة رسمت لوحة سوداء من الفقر والاضطهاد والاذلال والتمييز الطبقي والمجاعة.

لقد عاش المجتمع الإسلامي في عهد عثمان ظروفاً استثنائية تبهض الناس بثقلها، كان هؤلاء الناس يعانون من آثار تحكم شرذمة معروفة بعدائها الفاضح للاسلام وقادته وفقهائه، عثمان الاموي متهم بقمع كل شكل من اشكال النقد، وبملاحقة صحابة رسول الله(ص)، وممارسة التعذيب والسجن والحرمان، ومن الاتهامات الاخرى الموجهة الى عثمان هدر الاموال العامة، وتوزيعها كهدايا وعطايا الى اهل بيته وافراد قبيلته بالرغم من معرفته بتاريخ هؤلاء الاسود وموقفهم من الاسلام ونبيه، وهكذا نرى في عثمان ومروان بن الحكم والوليد بن عقبة وعبد الله بن ابي السرح وغيرهم من البيت الاموي اوجهاً لقوة واحدة قمعية، قوة تستعمل كل الوسائل لاستعباد المسلمين واذلالهم، ونحن على يقين بوجود تآمر اموي يستهدف الاسلام بعامة والصحابة بخاصة، بقصد ارجاع السلطة الاموية التي فقدتها بدخول الاسلام كحركة اصلاحية منافسة وملاحقة لكل انواع الاضطهاد والاستغلال، فهذه القبلية شعرت

بفقدان هيبتها أو سلطتها ومكانتها بسبب الاسلام ونبيه محمد(ص)، لذلك تربصت بهذا الدين وانتظرت الحلقة الاخيرة للاجهاظ عليه والتخلص منه والى الابد، ومن المفروغ منه ان اختيار الدين غطاءاً لتحقيق هذا الهدف العريض ليس عبثاً، وهكذا تبدو المعادلة معكوسة، فهذا عثمان يظهر بلبوس من يخشى الله وانه من المسلمين الاوائل، وهذا مروان بن الحكم طريد رسول الله (ص) يضرب بسيف عثمان وينطق بلسانه فينقل الدولة من مرتبة السمو الاسلامي الى مرتبة الوضاعة الانسانية.

اذن هناك ازدواجية في موقف عثمان من الاسلام، ففي حين يرفض التنازل عن السلطة او الخلافة لانها كما يقول ثوب البسه الله له وهو بهذا لايمكن التخلي عنه، ومن جهة اخرى يبقي لعدو الله وحاشيته من صبيان بني امية حضوراً متميزاً في مجلسه واتخاذ القرارات المصيرية، ثم انه لايستطيع ان يستوعب رجالاً يتكلمون ويعطون آرائهم ويستوقفونه بمواقفهم، ولا يتردد في معاقبتهم والانتقام منهم واحياناً قتلهم، والآن نسأل: هل ان البعد الزمني بين وفاة الرسول الاعظم (ص) وولاية عثمان هو السبب الكامن وراء هذا التغير في الرؤية؟، ام هو تغير واقع الحال الذي يجعل من انتمى الى الاسلام بهدف بروكماتي اقل حماساً للحفاظ على ديمومة شمس الاسلام وضيائه؟، للاجابة نقول ان الشطر الأول من السؤال والشطر الثاني منه يمثل مزحة الحياة وسواد الموت، فرحة عودة القرار لبني امية، وسواد من من وقف مناصراً للاسلام ودعوة نبيه وشهر سلاحه بوجه رجالات هذه القبيلة السلطوية.

اذن يمكن القول ان عهد عثمان هو بداية الغيمة السوداء التي اخترقت صدر الاسلام واستقرت فيه هماً كالرصاص، وليومنا هذا، كل شيء قد تغير، كل شيء اصبح صامتاً، واذا ما انقشعت الغيوم قليلاً وهو امر نادر في المجتمع الاسلامي، فالحاكم او السلطان او الامير او الرئيس العربي او الاسلامي بقى ومنذ ذلك العهد الغريب الثقيل على شعبه، انه يمثل حالة الغروب التي لايتبعها شروق.

مروان بن الحكم السهم السام الذي وجهه عثمان الى قلب الاسلام، وبهذا السهم حدد عثمان موقفه حين اختار عدو الاسلام ليكون الناطق باسم الاسلام، ولا ندري هل من المبالغة ان نقرر ان يكاد لا يخلو قرار من قرارات عثمان من بصمات مروان بن الحكم، فالقرار الذي كان يصدر من ديوان الخلافة وليد تفكير عميق، واتصال شديد بين الماضي والحاضر ونظر بصير لمروان بن الحكم، انه قرار مستخرج من صلب الحياة العدائية وتجاربها التي خاضها هذا الاموي ضد الدعوة الاسلامية.

ان القرارات التي كان يتخذها مروان بن الحكم الرئيس الفعلي للدولة الاسلامية ليست هي بمثابة الفاظ عبثية، او جملة من كلمات تحمل قدسية الخلافة وتأكيد هيبتها، وليس هي طباقات ساذجة بسيطة لاترى في الامور الا ظوارهها، وانما هي قرار تحمل في فقرة من فقراتها الغموض والالتواء والصعوبة والعسر والاهداف الخفية الخبيثة التي من شأنها مخالفة القيم الاسلامية ودحظها والانقاص من شأنها، انها قرار عميقة الدلالة لما فيها من حضور اموي معهود بعدائه المفرط الاسلام ورموزه واصحابه ومناصريه.

مروان بن الحكم كان هو القائم الفعلي وبتخويل تام وشامل من قبل الخليفة عثمان على تنفيذ مشيئة ما يريد وما يهدف.

انه صاحب المشيئة الغلابة او منفذ المشيئات على الصورة النابية التي ترضي خبلاءه... اعترض سبيل الامام علي بن ابي طالب (ع) وقد خرج في جماعة من مريديه ومن كبار الصحابة يشيعون ابا ذر حين ترك المدينة في طريقه الى منفاه، وحاول بما ركب في نفسه من طبائع الصلف والغرور ان يبدو فيعين الجمع كأكبر مما يطيقه وسع ثوبه الاموي... جلس مزهواً على راحلته، مزهواً لأنه يحمل كل صلاحيات حاكم البلاد وبصورة مطلقة، وبهذا ركض بتا يسبقهم إلى الرجل الذي جاءوا لوداعه ويسد عليهم طريقهم اليه... وعقله الساذج، وشخصيته السطحية، ودماغه البدوي، ودمه الاموي الخبيث دفعه لان يختار من بين المودعين رئيسهم وزعيمهم وامامهم وارفعهم قدراً، انه ابن عم الرسول(ص)، وزوج البتول، وابو السبطين والوصي الشرعي للرسالة وحركة الاسلام يوجه اليه الحديث بنبرات الكبرياء والغرور كالاملاء.

قال سليل الشجرة الملعونة:

((يا علي... ان امير المؤمنين قد نهى الناس ان يصحبوا ابا ذر في مسيره او يشيعوه، فان كنت لم تدر بذلك فقد بلغتك واعلمتك !)).

فلم يطق منه الامام علي(ع) هذا التهديد الذي جمع الى عنف التبليغ جفوة التنفيذ، وبادره بالسوط يضرب به وجه الراحلة التي سدت عليه الطريق، وهتف يقول: ((تنح.. نحاك الله الى النار !)).

وتذاكرعماربن ياسر ونفر من الصحابة ما خالف فيه عثمان من سنة وشريعة رسول الله(ص) فانتهى بهم الرأي الى كتاب رفعوه اليه... فلما دخل به عليه عمار، قال له الخليفة وهو لايخفي الاستياء:

((انت كتبت هذا؟)).

((نعم، انا كتبته)).

((ومن كان معك؟)).

((نفر من الصحابة تفرقوا فرقاً منك)).

((فمن هم؟)).

((لا اخبرك بهم)).

((فلم اجترأت عليَّ من بينهم؟))

قال مروان بن الحكم مدير ديوان الخلافة وقد وجد من خلال ما طرحه ابن عمه عثمان الفرصة مواتية لتحقيق اهدافه الخفية واشباع غريزته الشريرة، وحمل عثمان على ايذائه والانتقام منه على موقفه الجريء.

((يا امير المؤمنين... ان هذا العبد الاسود قد جرأ عليك الناس، وانك ان قتلته نلكت به من وراءه)).

ينبغي ان نتوقف هنا لنرى هذا الانسجام التام بين عثمان وابن عمه مروان، فما اقبح ما نطق به مروان ((ان هذا العبد الاسود)) وما اقبح ما وافق عثمان عليه، عمار بن ياسر ابن اول شهيدة في الاسلام وابن اول شهيد في الاسلام، عمار الذي يخاطبه الرسول الاعظم محمد(ص):

((يا عمار تقتلك الفئة الباغية، وآخر زادك في الدنيا وضاح من لبن))، عمار الذي شارك الرسول الاعظم(ص) في كل معاركه الاسلامية وكان من بين ابرز الفدائيين للنبي(ص) ومعركة احد تشهد بذلك، المعركة التي هرب فيها الجميع وانسحبوا من ساحة المعركة، وكان عمار بن ياسر هذا الصحابي الجليل والمقاتل المبدئي من بين الذين صمدوا ومن بين الذين احاطوا بالنبي (ص) وانقاذه من يد المشركين امثال ابي سفيان ومروان بن الحكم وغيرهم، هذا الصحابي الجليل يلقب بالعبد الاسود !! وفي حضرة الخليفة، والخليفة يوافق مروان ويؤيده على سلوكه المنحرف هذا، ماذا يريد عثمان؟ اكثر الظن انه كان يريد ان يرفع منزلة طريد الرسول(ص) مروان بن الحكم ويحط من منزلة عمار بن ياسر.

اننا بحاجة امام هذا الموقف الشاذ ان نعيد قراءة التاريخ مرات ومرات حتى يستقيم في اذهاننا المعنى المتناقض تناقضاً، ينسرب في اعماق الموقف ويتحد به ليشكل تناقضاً من نوع فريد، تناقضاً يجمع بين شخص فدى الرسالة الاسلامية ونبيها بنفسه وشخص رفع راية الحرب بوجه الاسلام ورسوله.

انه شيء غريب ان ينسى خليفة المسلمين قوله تعالى في كتابه العزيز:

((**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**)) سورة الحجرات- الاية١٣.

ان الله عز وجل يؤكد في هذه الآية انه لاوجود للفرق بين الخلق، لوناً، جنسياً، عرقاً، قومياً، الكل عباد الله والكل متساو في الحقوق والواجبات، فلا فرق بين عربي واعجمي الا بالتقواى، انّ الخليفة في موقفه هذا يدرك الفاعلية الغريبة التي تتبلور في هذا الفعل المنافي لقيم الاسلام وتوجهاته، انه موقف يثير حقلاً من الانفعالات والدلالات في وضع دين جديد، دين يحدث في المفاهيم والمعاني والاشياء هزة، وتصفها تحت ضوء فكري متناقض ومتنافر، فعثمان اذاً وبموافقته على ما قاله ابن عمه مروان بن الحكم على وعي كامل لما قصده مستشاره، وما العوامل التي دفعته الى هذا المنطق الذي يشكل خرقاً في جسم الامة الاسلامية، انه منطق يثير الجراح القديمة ويعمقها، انه منطق اضاف الى المعنى القديم، المعنى الجاهلي فلسفة والى تجربة الانسان البدوي الذي لم يدخل الايمان قلبه بعداً جديداً لفهم الاسلام.

عثمان قد نهض بمهمة شاقة الا انها شيقة، انها مهمة تأسيس الدولة الاموية، ومن هنا تحول تاريخ الاسلام عن مجراه، وتحولت بذلك معطياته، فرجع الاسود اسوداً والحر حراً وتآكل الاسلام واصابه الدمار واكلت قيمه النار الاموية، حتى غدا خربة موحشة لا انيس فيها، فالفقير يعاني والغني مرفه، والاموي حاكم والبقية عبيد، لقد عادت المياه الى مجاريها بعد غياب طويل، وبهذا فالموقف الان يختلف وعلى عمار بن ياسر الذي كرمه الاسلام ان يعرف حدوده وسياق وجوده، انه كائن مسطح مبتور، ولا اهمية له عند الدولة العثمانية الاموية الفتية، فاي عقلية فذة لائمت بين قيم الاسلام والاموية واخرجت المواقف القائمة في الوان

بديعة زاهية؟ فما ابدع هذا الاخراج، وماهي الاصباغ السحرية التي مدت يدها الى اعداء الاسلام لتجعل منهم قادته اليوم والمتكلمين باسمه، انه ضرب جديد من السياسة لانعرفها، وطرز طريف من الحكم لم نعهده.

ولاشك ان خير الادلة الاعتراف بعبقرية المخرج، فكيف استطاع عثمان ان يربط او يوفق بين المجد المقدس للاسلام ونوافر اضداده ويضعها في وضع فكري جديد يعتمد على منهجين: الاول: دولة اسلامية على رأسها خليفة يسمى خليفة رسول الله(ص)، والثاني: منهج وسياسة وقرارات واحكام وقيم اموية.

ويمكن ان تتجسد لنا ابعاد المنهجين من خلال متابعة ما جرى للصحابي الجليل عمار بن ياسر في مجلس الخليفة.

اذن القرار الذي اقترحه مروان بن الحكم يتضمن قتل عمار بن ياسر، اسرع عثمان لاقرار هذا الرأي وايد قتل عمار ((خليفة يؤيد قتل صحابي على يد طريد رسول الله(ص))) وتناول عصاه فضرب بها الشاكي، واعانه على الضرب اهل بيته ومن حضر مجلسه من بني امية حتى فتقوا بطن الرجل والقوه على جانب الطريق – ذلك اليوم البارد الممطر – وهو فاقد الرشد بين الموت والحياة... لقد فعل عثمان بعمارما فعل، عمار الذي جاءه بالنصح لانه رأى في نصحه تجاوز واجتراء من عبد على سيده، وكيف يمكن لعبد اسود ان يقدم نصائح وارشادات الى سيد من اسياد امية، الم يكن هذا التصرف من شأنه ان يكشف نواحي الضعف في الخليفة، ولم يَرَ جوانب الحق التي تنطوي عليه المظالم والشكايات في اغلب الاحايين.

في هذه الوقائع تبدو لنا من عثمان ناحية اصيلة ومتجذرة في طبعه الاموي هي القسوة البالغة التي دعته الى الامعان في النكال ! بالتشريد وفتق البطون وكسر الاضلاع وقطع الارزاق !.. ولم يكن يبالي باستخدام هذه الوحشية في العقاب فالشدة من اهم الصفات التي جبل عليها بني امية، فهي اذن صفات مكتسبة وسلوك متجذر في عرق هذه الشرذمة الاموية، وقد سرت هذه الدماء بيولوجياً في دماء الشيخ وراثة ولعل موقف عثمان من قارئ القرآن عبد الله بن مسعود يلقي ضوءاً على هذه الدماء القاسية:

رجل كبير السن، صحابي جليل، كل وقته يعلم القرآن في مسجد رسول الله(ص)، ويفسر القرآن وآياته ويتزود كل الناس بعلمه الوفير دون اجر او مقابل، انه كرس كل وقته لله، مرتبط بالسماء ليل نهار، هذا الصرح الكبير في الاسلام دفعته غيرته على الاسلام ان يدلوا بدلوه ويطرح رأيه على الخليفة في موضوع جمع القرآن وضرورة الاعتماد على المصادر والمراجعة التي تتوفر فيها النزاهة والمصداقية والتقوى دفع هذا الصحابي ثمن رأيه، حيث امر في مجلس عثمان ونال جسمه الضعيف ما نال من قسوة اليد الاموية، وكسرت اضلاعه، ورمي في قارعة الطريق، لقد تحول مجلس الخليفة الى مقر من مقرات الامن والمخابرات، ولم يكتف عثمان بضرب عبد الله بن مسعود، بل امر بقطع رزقه وعطاءه المقرر له، وعاش بقية ايامه يشكو آلام الجوع والعوز والمرض والحرمان والحسرة على ما آل اليه الاسلام من انحراف وتغيير وتسلق اولاد الطلقاء منابره.

اخبر عثمان ان عبد الله بن مسعود يعيش ايامه الاخيرة !!

خف الرجل يعوده في بيته، ورأى عند وصوله ان الموت قد خيم جسم هذا الصحابي الجليل، وان ايامه معدودة، فقال له يواسيه:

((يا ابا عبد الرحمن... ما تشتكي؟))

قال ابن مسعود هادئاً وعينيه على السماء:

((ذنوبي))

((فما تشتهي؟))

((رحمة ربي))

((الا ادعوا لك طبيباً؟))

فلاحت على وجهه بسمة ساخرة واجاب:

((الطبيب امرضني !...))

فغص عثمان بريقه، فقد عرف ماذا يقصد عبد الله بن مسعود، وذكر في هذه الآونة التي تدنى غريمه من آخرته كم كان متجنياً عليه، متحاملاً غاية التحامل، ظالماً له حين اتبع ايذاءه وضربه اياه بقطع حقه ونصيبه من العطاء امعاناً في النكال والاذلال.

وراح من بعد يحاول ان يصلح خطأه، فقال:

((افلا آمر لك بعطائك؟))

فرماه ابن مسعود بنظرة ثاقبة فيها ترفع وغباء وفيها استنكار وازدراء، وقال: ((منعتنيه وانا محتاج اليه وتعطنيه وانا مستغن عنه !))

((يكون لولدك))

((رزقهم على الله))

ومنا تتجسد لنا عظمة وعمق وحكمة المقولة التي اطلقها المفكر معمر القذافي: ((في الحاجة تكمن الحرية)) لقد رفض الصحابي عبد الله بن مسعود الحاجة مقابل حريته، حريته التي من خلالها يكسب التطهير المعنوي والمادي، فهي محور الحياة وهي الزمان والمكان وهي المساحة الاكبر للانسانية، ومن هذا المنظور لمفهوم الحاجة وارتباطها بمفهوم الحرية يجوز لنا القول: ان اعادة انتاج المنظومة الجمالية للانسانية تتمثل في ضرورة دراسة جدلية الوعي المعرفي من خلال حالة الممارسة الحية بين قيمة الانسان كقيمة كبرى والفكر الجماهيري.

نعود لنرى كيف استطاع عبد الله بن مسعود ان يتعمق في ابعاد جدلية الوعي المعرفي ويوظفه في مواجهة السلطة.

فلما اعي الخليفة ان يذكر له ما يرضيه نهض عنه وهو يرجو منه العفو ويقول: ((فاستغفر لي يا ابا عبد الرحمن...)).

ولكن عبد الله بن مسعود اباها، وقال عوضاً عن المغفرة والرضا: ((اسأل الله ان يأخذ لي منك حقي !))

وذهب عبد الله بن مسعود إلى ابعد من هذا الموقف حين أوصى أولاده بعدم إخبار عثمان بوفاته وعدم السماح له بتشييعه أو الصلاة على جنازته، ولما علم عثمان مشى إلى عمار بن ياسر بعنفه لأنه اخفى عنه نبأ الوفاة فقال له عمار: ((عهد إلي عبد الله بن مسعود إلا أؤذنك))

المبحث الثاني:
أبو ذر ديمومة شمس الاسلام

لقد نكب هذا الصحابي الجليل اشد نكبة، وهو يرى ان الدعوة الاسلامية وما افرزته من منهج قيمي انساني قد تخذت جادة اخرى، غير الجادة التي رسمها خاتم الانبياء وسيد الرسل محمد(ص) لقد تسرب الالم إلى نفس ابي ذر وهزت وجدانه واخذت الثورة تأخذ مأخذها في اعماقه، انه ثورة تعبر بكل مضامينها وابعادها عن محنة الانسان الذي دخل غربة الدين، غربة بدأت بمرحلة عن الذات الاسلامية، غربة فجرت المأساة لدى ابا ذر، حيث ذهب هنا وهناك، في المدينة، في دمشق، في مكة، فلم يجد من يسمعه ويصغي إلى صوته إلا القليل، ومع كل هذه الغربة لم يقعد الحزن واليأس هذا الثائر، وكان ردة فعل ثائرة على الواقع المر، تطفي عليه الحماسة وارتفاع الغيرة على الاسلام، غيرة يرافقها صوت مرتفع يعانق السماء ((هل من حل للخروج من هذه المحنة))، ((ايها الناس لقد اتضحت الرؤية فانهضوا لتجاوز هذا الواقع وانقذوا الاسلام وتحرير الارض والانسان)).

ومن اللافت إن في هذه الفترة العصيبة من فترات الإسلام نجد إن أبا ذر ازداد التصاقاً بدينه، وحشد القطيع اخذ موقف السكوت والتفرج على ما يحدث وما يجري من اختراقات فاضحة لبيضة الإسلام

ومنظومته القيمة، ولكن عندما نحط الرحال في رحاب القرآن الكريم سنرى إن هذا الانسحاب من الموقف وترك أبا ذر وحيداً فريداً ينادي ولكن لاحياه لمن ينادي من الأمور الطبيعية، فالشخصية العربانية البدوية غارقة عند كل موقف مصيري، لانها شخصية عاجزة عن متابعة السير، فتعود القهقرة الى الوراء، وتظل هكذا بين اقدام واحجام، لاتستطيع إن ترجح حلاً على آخر، وهي إن فعلت فاغلب الظن نتيجة لتدخل عوامل ذاتية وانفعالية اكثر منها مراعاة لاعتبارات مبدئية، ومن هنا ندرك مدى الهدر في الجهد الذي تعرض له ابا ذر.

يقول سبحانه وتعالى مشخصاً النمط الشائع في هذه الشخصية الشاذة المريضة، العاجزة عن التصدي لظواهر الباطل، عجز شبه تام عن اتباع ومناصرة منهج الحقيقة والحق:

((وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ)) سورة المؤمنون – الاية ٧٠.

((وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)) سورة سبأ – الاية ١٣.

((الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً)) سورة التوبة – الاية ٩٧.

وبهذه المعاني السامية المقدسة عانى أبو ذر من قصور المؤيد لدعوته التحررية، التحرر من حكم نسف كل منطق اسلامي وعطل كل عقلانية، واستخدم نظام التسلط والقهر على وجوده.

لقد كانت وكما يبدو حماسة والتزام هذا الثائر المخلص لدينه بلا غد، ولذلك كانت صيحته تصبح مستحيلة، فصيحة مثل هكذا ثائر عنيد بحاجة إلى مجتمع نقدي مبدئي قيمي، مجتمع يتعامل مع الواقع من

خلال تحديد المسؤوليات والالتزامات والتعهدات التي قطعها على نفسه عندما ارتضى إن يكون الإسلام دينه ومحمد نبيه والحق طريقه إلا مجتمع يطفوا على سطح الظواهر ويكتفي بعمومياتها ويهرول وراء الضمانات الحياتية، فالمجتمع الذي يفقد السيطرة على مصيره يستحيل عليه التخطيط لهذا المصير ويظل بالتالي اسير الظروف، يعيش يومه غير عارف ما يمكن إن يحمله الغد، إن الرفض باعتباره سلوك قيمي هو الوسيلة للسيطرة على المصير وتوجيهه وجهة ملائمة للمجتمع، والمجتمع الذي يفتقد لسلوك الرفض لايمكن ان يمتلك اسباب كرامته ووجوده في الحياة، وهكذا وجد أبو ذر نفسه بين هذا المجتمع النكوصي البيولوجي محوراً شاذاً مما جعل قدرته على التصدي للواقع المنحرف ضئيلة أو شبه منعدمة يضاف إلى هذا إن ابا ذر واجه حكم له قدرة التكيف، وله امكانية استخدام السوط مع شعبه، ويفسح المجال امام الهدايا والمكرمات والعطاءات لمن يريد إن يدخل في دائرة السلطة، فالعطايا والهبات كانت مشروطة بتخلي المستهدف عن دينه ويبتعد عن السلوك الانتقادي، انه ببساطة تخلياً كلياً أو خسارة دائمة من اجلنجاح مؤقت أو جزئي، وكان امثال عبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وزيد بن ثابت، وغيرهم ممن باع آخرته بدنياه.

الذي نريد ان نؤكده هنا هو ان الشخصية البدوية المتخلفة تنطلق في نظرتها للاحداث من مبدأ العزل والفصل، الشيء أو الموت قائم بذاته، منفصل عن بقية الاحداث أو الظواهر، تطلق حكماً تقويمياً نهائياً بشأنه،

من خلال اطلاق صفة الثبات عليه، الاشياء، الاحداث، الأمور هي ماهي عليه، ((الباب الي تأتي منها الريح سِدْها واستريح)).

انها شخصية بعيدة كل البعد عن المنهج النقدي الجدلي، لذلك بدا العجز في مواجهة القرار اللا اسلامي اللا قيمي اللا انساني الذي اتخذه عثمان بن عفان في نفي الصحابي الجليل ابا ذر إلى صحراء الربذة التي مات فيها وحيداً غريباً، وكأن الحدث هذا لايعنيهم، وليس له علاقة بدينهم وقيمهم وعرفهم، انها دلالة واضحة على تكيف هذه الشخصية مع اللامعقول، حتى ولو كان هذا التكيف على حساب دينهم القائم على احترام وتقدير رموز الإسلام الذي افدوا الإسلام ونبيه باموالهم وحياتهم وبذلوا في سبيله الغالي والرخيص، إن هذه الشخصية البدوية تنظر إلى الأمور من جانب واحد فقط، انه الجانب الذي يضمن حياتهم ولا يعرضهم للتضحية، فالاشياء والحوادث تبدو لهم ساكنة بصفة مستديمة، لذلك تمادى عثمان وابن عمه مروان في اختراقاتهم للمنظومة القيمة التي اكدها الإسلام واوصى النبي محمد(ص) التمسك بها والالتزام بسلوكياتها الاجرائية الفعلية.

إن من اخطر اوجه الاختراق ما تمثل في تولية عثمان بن عفان اقاربه ممن عرفوا بالفسوق والفجور والعبث، وممن شهد لهم الجميع بحقدهم الشديد على الإسلام ورسوله(ص).

لقد زود العصر عثمان بن عفان بصنوف شتى من مثيرات الشكوك والمخاوف لأنه كان مليئاً بالكثير من اخطاء آله وما ترتب عليها من استنكار لهجت به السنة الناس ومكان على منهم مكان الامام، فلم تكن

المشادة على تشييع ابي ذر ودفعه مروان لمنع المشيعين آخر المشادات ولم تكن اولاها ايضاً، بل سبقتها وتبعتها انواع تدوالت حلقاتها حتى انقضى عهد الخليفة الشيخ على اسوأ انتهاء.

... قدم عليه من الكوفة وفد هم صورة لما انطوت عليه جوانح اهلها من السخط على واليهم: اخيه لامه الوليد بن عقبة ولم يكن مبعث نقمتهم اليوم ما اصابهم من سوء معاملة الوليد بقدر ما كان باعثه غضبهم في حق الله... فلقد فسق الوالي وشرب الخمر بمجلس سمر بدار الامارة.. وخرج تتخبطه النشوة إلى المسجد فصلى الصبح بالناس اربع ركعات... كاد إن يتبعها بركعات !....

هذا حدث خطر انبأت عنه سيرة الامير الوليد الذي عينه وولاه عثمان ((خليفة المسلمين وولي امرها)) منذ اليوم الاول الذي وطئت فيه قدماه ارض الكوفة.. وأنبأت عنه قبلها كلمات الله اذ نعته بالفسق في آية من آيات الكتاب الكريم منذ قديم، وان له لدلالته الواضحة ايما وضوح على سوء اختيار عثمان ولاته من الفسقة والفجرة واعداء الإسلام من اهل بيته بغير استكناه نفوسهم، وكان له في استكناه النفوس – لو شاء إن يفعل – ميزان سليم، ولكنه كان مفتوناً باهله، معنياً برفعهم إلى النجوم بعد إن انزلهم رسول الله(ص) إلى الحضيض وان وجد في ماضيهم ما كان يجب إن يعدل معه عن تفضيل شأنهم على كثيرين بل قليلين وبحسبك إن تعجب اذ ينسى لكل ذوي فضل فضله في سبيل إن يرفع اهله... ولعلك من بعد ستغرق في العجب إن علمتان هذا ((الوليد)) جاء الكوفة بامر الخليفة ليأخذ امرتها من يد سعد بن ابي

وقاص وليس للوليد عليه فضل معلوم إلا انه من الاقرباء ومن اهل بيته فهو الشقيق غير الاخ له.

مالامرئ يريد إن يجيش المعاذير لعثمان في توليته اخاه يستطيع جاهداً إن يقع له على عذر مقبول، حتى ولو تذرع عثمان إلى عزل سعد بما كان قد دب بينه وبين ابن مسعود من خلاف، علماً بان ابن مسعود قد مات بسبب تعرضه للتعذيب المفرط في مجلس عثمان، وانتقل إلى جوار ربه وهو غاضب على عثمان ويسأل الله في آخر كلمات قالها قبل وفاته إن يأخذ حقه منه ومن غلمانه.

الم يكن من الافضل والاصلح إن يبحث عثمان بين صفوف المسلمين من يصلح لولاية الكوفة أو غيرها من الامصار، فهناك المئات بل الآلاف من الذين يصلحون للولاية والحكم.. وبهذا ينقذ المسلمين من تحكم هذا الفاجر الفاسق الماجن الخليع... وانها لحقيقة قرت في اذهان الناس اجمعين اذ ذاك ممن قالوا وقد رأوا اميرهم الجديد: ((بئسما استقبلنا به ابن عفان... امن عدله إن ينزع عنا ابن ابي وقاص ويبعث بدله اخاه الوليد الاحمق الماجن الفاجر !)).

ولم يسعهم إلا إن يقولوا، وهم يبررون هذا الاختيار: ((اراد عثمان كرامة اخيه بهوان امة محمد))، ولئن كان تنصيب الوليد والياً قد اصاب من اهل الكوفة النقمة فانه قد اصاب ايضاً من نفس سعد غاية العجب والاستنكار.

فمثل هذا التعيين ليس وليد خلل وظيفي، انه انحطاط قيمي وتراجع

ديني، انه انحيازاً واضحاً للاقارب على حساب المبادئ إنه وليد عوامل القهر والتسلط والاعتباط التي اتسمت بها سياسة عثمان من اول يوم لاستخلافه، تكيف سمح لنفسه إن يولي فاجراً فاسقاً شارباً للخمر خليعاً لا يفارق مجالس الطرب والغناء، مستهتراً بالاخلاق منفلت السلوك على رقاب المسلمين، ايتناسب هذا مع ما جاء به وامر به الإسلام، ام إن القربى والاهل والقبيلة عوامل فرضت نفسها على الخليفة فنسي أو تناسى انه مسلم اولاً واخيراً وان على المسلم اذا رافق اسلامه الايمان، عليه إن يتقيد بما يفرضه الدين الاسلامي من شروط وضوابط في اختيار الولاة، كما ان عليه ان لايرزح تحت عبء الانفعالات العاطفية في اختياراته وقراراته، فمثل هذه القرارات أو الاختيارات لابد إن تصبغ بصبغة الإسلام وتعاليمه وان تنصب في قوالب التفكير المنطقي الموضوعي، وبهذا فان المسلم الحقيقي لايعرف إلا من خلال وضعيات الحياة الصعبة.

لقد نهج الوليد بالكوفة منحى من الحياة الخاصة كله خلاعة، ولف حوله فئة من المفتونين بالمجون، يقضون الليالي على اشهى ما تستطيعه النفوس اللاهية، ولم يعن مطلقا بان يرى حق المنصب وما يجدر من توفيره له من توفير، ولم يعن ايضاً بان يرعى حق اخيه عليه، فكان للامراء اضل مثال، ولاسرته كلها اسوأ عنوان، وراح يجمع من ضروب اللهو والتسلية بدار الامارة ما جر عليه السخط والانكار وهو ابداً سادر في غيه، لايكبح نفسه، ولايحاول إن يستر مساوئه عن العيون، وانطلق يعبء من من الخلاعة حتى جرأ الناس على مجلسه فاستباحوه.. دخل

عليه ذات ليلة جندب بن عبد الله الازدي فوجده قد انس إلى ساحر اصطفاه، يلعب بين يديه، ويغر الناس بمكره وخداعه، فغضب جندب لهذا المجون المرذول المتنافي مع القيم والمبادئ الاسلامية، ومضى بسيفه امام سيده الوليد فاطار رأس الساحر وقال له: ((إن كنت صادقاً فأحيي نفسك)).

وكانت هذه الجرأة علامة الانذار للوليد لو شاء ان يفيد منها، ولكنه لم يرعو عما كان فيه، ولم يتناول الامر كله إلا من ناحية الظاهرة، فحبس الازدي لاجترائه حتى فر فيما بعد فكان اشد الثائرين حتى تمكن من اسقاطه واقتلاعه من موقعه موقع الامارة الذي حظي به مجاناً من اخيه الخليفة.

غير ان الذي يدمغه الله لايهديه الانسان، بل يظل موسوماً ابداً بفسقه لايتحرر منه، وتبقى السبة عالقة به ما بقي القرآن الابدي الخالد البقاء.. وكفى بالوليد عاراً، أن وسمه الله في تنزيله: ((**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا...**)) سورة الحجرات - الاية٦.

ثم وسمه من بعد شعر تندرت به المحافل وتناقله السمار، ونظمه الحطيئة سيد الهجائين فجاء فيه باقذع الهجاء..

قال الحطيئة:

شهد الحطيئة يوم يلقي ربه ... ان الوليد احق بالغدر
نادى وقد تمت صلاتهم ... ((أأزيدكم؟)) ثملاً وما يدري
ليزيدهم اخرى... ولو قبلوا ... منه لقادهم على عشر

فابوا، ابا وهب، ولو فعلوا لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك في الصلاة ولو خلو عنانك لم تزل تجري

انها حقيقة ملامح الدولة الاسلامية، سواء من ناحية العبادة، أو من ناحية الاحكام، ملامح تستدعي التفسير والتعليل من هذه التفسيرات القول إن الخليفة الذي نصب هذا الفاجر وجعله سيفاً على رقاب الناس، مستهتراً بصلاتهم، مستخفاً بدينهم يستحق حقاً لقب ((ذا النورين)) نور اختاره ليكون والياً في الكوفة، ونور اختاره ليكون والياً في مصر ((عبد الله ابن السرح)) فهذين النورين كانا والجميع يعرف من صب النيران على رأس رسول الله(ص) وهو قائم يصلي.

وهما ايضاً اللذان قال رسول الله(ص) فيهما عند فتح مكة: ((والله الذي بعثني رسولاً، لو تعلقا باستار الكعبة لما عفوت عنهما، واني هادر دمهما، ولعنة الله عليهما وعلى اصلابهما))، وكان معهما ايضاً الحكم بن ابي العاص ومروان بن الحكم، واصدر امره (ص) باهدار دمهم.

هذه السيرة الذاتية التي اطلع عليها ذو النورين عثمان وعلى اساسها انطلق لتنصيبهما على الولاية، واكثر الظن ان هؤلاء لو كان تاريخهم يقول انهم من التقاة الورعين ومن الاشداء على اعداء الإسلام وانهم شاركوا الرسول الاعظم(ص) في معاركه وغزواته وابلوا بلاءاً حسناً لما كانوا من الذين يتم عليهم الاختيار ولقرر الخليفة ((ذو النورين)) ابعادهم من هذه المهمة.

يتضح من هذا التعيين لمثل هؤلاء الفساق الفجرة انها سياسة اتخذها

الخليفة عثمان ((ذو النورين)) تتضمن عنصر قهر حياتي يقع على الانسان المسلم ليتجسد بذلك دور الحاكم في التسلط وتقييد الحرية وخاصة حرية الموقف، فكل حركة تشير إلى حرية الموقف تصبح بنظر هذه السلطة العثمانية الجديدة إثماً يستحق العقاب الشديد ((النبذ، النفي، التصفية، السخرية، فقدان المكانة...الخ)) كل موقف نقدي يصب في مصلحة المجتمع الاسلامي وسير حركة الدولة يصبح اعتداءاً على المحرمات والاقداس التي لايجوز ان تمس، فالخلافة وكما اشار عثمان وفي اكثر من موقف ((ثوباً البسه الله له ولايمكن خلعه)).

ولعل ما نذكره الان يؤكد ما ذهبنا اليه:

ومع ما كان قد سبق إلى علم عثمان من سيرة اخيه، ومن حكم الله عليه بالفسوق ومن خوض الناس فيه، فانه عز على نفسه إن يسمع من اهل الكوفة كلمة واحدة تؤنبه بخلاف رأيه الذي يأبى إلا ان يعتقد له الصواب دون جميع الآراء، وبلغ من تعصبه ان سبقت رحمته لاخيه وثقته به الغضبة على الرجلين الذين اليه شكوى الشاكين، قال لهما.. ولم تخف من كلماته رنة سخط مكتوم: ((وما يدريكما انه شرب الخمر؟)).

((هي الخمر التي كنا نشربها في الجاهلية)).

وكأنما رأيا الريب في عيني الخليفة ((ذو النورين)) فاتياه من لدنهما بالبرهان القاطع البين الذي لايقبل الشك أو النقض: خاتم الوليد سلباه اياه وهو في صرعة الخمر غارق لايفيق.. ولكنه الدليل الذي يفقد قيمته اذا نظر اليه بعين المستريب في كل ناقد، المسيء تأويل المشاعر والشكايات، لأنها – في ظنه – لاتزيد عن كيد اريد به أو اريد ذووه، وما

دامت الشكوى تمس اهله، وتعلق ادرانها باذيالهم فانها اذن حسد حاسد أو تبييت موتور.

وهم الخليفة من مكانه، وتقدم إلى الشاهدين وعلى وجهه علامات الحقد والانتقام والنفور، ثم دفع بقوة صدريهما محنقاً وصاح: ((تنحيا عني)).

وكذلك آثر الشيخ ألا يقعد مقعد الحكم العدل، وان يكون سياجاً لاخيه دون القصاص المفروض.

وعجب الناس لموقف الخليفة ((ذو النورين)) ولغطت الالسن حتى سمع بالامر الامام علي (ع) فاقبل يعاتب عثمان ويستنهضه أن يؤول إلى الصواب، فهو خليفة وعليه أن يكون ضمن التيار الاسلامي الدقيق، ذلك أن مقومات الإسلام الحاكم العادل، الحاكم الزاهد بالدنيا، الحاكم المتشيع بالشريعة، الحاكم النموذج، الحاكم الواضح، الحاكم الفكر، ففي الحاكم العادل ينمو المجتمع الاسلامي، وتتحد اراداته لتأخذ بعد ذلك اتجاهات قيمية وممارسات وجدانية مميزة تسمح للمجتمع الاسلامي الانضمام إلى الدائرة الحضارية التي تؤمن بتحقيق انسانية الانسان ورقيه، ومن يعجز عن السير بهذا النهج الاسلامي الذي جاهد الرسول الاعظم محمد(ص) على تثبيت دعائمه فعليه أن يتنحى ويذهب ليعيش تحت ظل شجرة اهله وقبيلته فالحكم الاسلامي كما اراده الله للبشرية جمعاء يقوم على ثلاثة اركان هي الزمان والمكان والارادة، ولكي تقوم هذه الاركان على قاعدة صلبة مفيدة يجب أن يكون هناك حاكماً عادلاً يحقق الفكرة الانسانية لهذه الاركان، وهذا يعني أن المعنى

الحقيقي لمفهوم الحكم في الإسلام يتمثل في حاكم عادل منصف قيمي يملك الاتجاه الانساني والانا الواعية التي تتيح للمجتمع تحديد اختياراته بحرية وحيوية بين ما هو حقيقي وبين ما هو زائف.

الفصل السادس

المبحث الاول:
رحيل النبي ((ص)) وظهور المتغيرات الدخيلة

ارتفع مقام المدخلات بعد وفاة النبي محمد (ص)، وزادت الهوة بين الطبقات الاجتماعية، وصعد رصيد مروون بن الحكم ابن ابي العاص هذا الذي خاض ابو معارك في رسول الله(ص) من فحش القول والاشارة مما لم يغفر له فتح مكة ونفي من اجله إلى الطائف لا يبرحها بامر رسول الله(ص) كما إن رسول الله(ص) لم يكتف بنفيه وانما صب لعنة الله عليه إلى يوم الدين، ولكن ما كاد ابن عمه الاموي عثمان بن عفان أن يتقلد السلطة بمباركة من صهره عبد الرحمن بن عوف حتى اكرم هذا الطريد لرسول الله(ص) ورد إلى المدينة ومنح بامر الخليفة مبلغاً قدره مائة الف دينار.

ثم جاء دور مدخل آخر من المدخلات يحظى بمثل ما حظي فيه الحكم بن العاص، انه ابن ابي سرح الذي اسلم – وفق خطة المدخلات – نكاية وتربصاً بالاسلام، حتى اذا وكل اليه النبي (ص) كتابة بعض الوحي خان الامانة وحاول ان يبدل ويغير في التنزيل، فاهدر الرسول (ص) دمه اينما وجد.

لقد تسرع ابن ابي سرح في سلوكه، وكان عليه ان يتكيف للموقف ويبقى كرفاقه في حالة الانتظار حتى تأتي اللحظة المناسبة للانقضاض

على الإسلام ونبيه، كان يعوز هذا الرجل الاحتيال والتلون المطلوب، فوقع في المصيدة، ولكن مع ذلك فان الخطة سارت كما مخطط لها، وجاء من اهم وابرز المدخلات لينصفه ويكافؤه على موقفه من النبي (ص) ورسالته ووحيه ورموزه ثم أن هناك غبياً آخر سلك مسلك اقاربه ابن ابي السرح انه الوليد بن عقبة الذي عاد إلى رسول الله(ص) وقد كان بعثه إلى بني قريضة بعد اسلامهم، فزعم انهم هموا أن يفتكوا به، وغضب له المسلمون، وكادوا إن يشعلوها حرباً من اجله لولا إن تداركتهم آية من عند الله كما اشرنا إلى ذلك قالت فيه: ((**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**)) سورة الحجرات- الآية٦.

هذا التاريخ المعلوم لهؤلاء ((المدخلات)) اعداء الإسلام ورسوله هو الذي رشحهم واهلهم لشغل المناصب العليا في الدولة الاسلامية، الان تسلمت ((المدخلات)) مقاليد الحكم، فلقد صبرت طويلاً، وتعبت كثيراً، لقد اصبح مروان بن الحكم بن ابي العاص هو الحاكم للدولة الاسلامية، فانتقل بهذا من دور المتربص إلى دور السلطان المطلق، ولكي تسير الاستراتيجية في المسار المحكم الدقيق عليه إن يعزز سلطته بالزواج من ((ام ابان)) ابنة عثمان، انها صفقة رابحة كل الربح، فبهذا الزواج تزداد شوكته، وبهذا الزواج يستطيع إن يلقن من وقف محمد (ص) ابان الدعوة الاسلامية درساً لاينسى، واول هذه الدروس المنحة الكبيرة التي استلمها من ابن عمه عثمان خليفة المسلمين واامير المؤمنين وولي الامر، فلقد اهداه عثمان في يوم عرسه

مائتي الف، ولكن ليست من امواله الخاصة، بل من بيت المال، وليس هذا فقط بل منحه من الاملاك والاراضي والمقاطعات، ولابنته العروسة الكيلوات من الذهب، فالاقربون اولى بالمعروف، هذا ما يؤكد عليه الإسلام، فلا ضير اذن ان يهب الخليفة لمن شاء من الاقارب والاصدقاء، وان كان هذا قد ازعج ابن الارقم، فهناك غيره الكثير الذي لايرى ولايسمع ولا يتكلم.

هذه الحلقات التي نفذت في عهد عثمان ماهي إلا حلقات تكملة لما سبقتها، واخطرها الحلقة التي تركوا فيها جنازة الرسول (ص) يغسله ويدفنه اهله، وذهبوا إلى سقيفة بني ساعدة ليتصارعوا على الحكم !، نبي الله ورسوله وخاتم الانبياء وحبيب الله، صاحب اعظم رسالة سماوية، تهمل جنازته، ولاتحاط باصحابه كما يدعون، انه موقف ليس بالغريب والعجيب للذي له دراية ومعرفة باستراتيجية المدخلات والمخرجات، انها استراتيجية لها خططها ولها خطواتها ولها اوقات تنفيذها، وقد يصيبها احياناً بعض الاعتراضات والتي تسمى عادة بالمتغيرات الدخيلة، كما حدث في يوم الخندق عندما اراد ((محمد(ص))) زج بعض افراد المدخلات في معركة خاسرة مع عمر بن عبد ود العامري، إلا أن الظروف تدخلت وانقذت الموقف، وسارت الاستراتيجية كما هو مرسوماً لها.

المهم حلقة كبيرة وواسعة من حلقات الاستراتيجية انتهت بوفاة النبي ((محمد(ص))) وعلى واضعي الاستراتيجية اكمال أو انجاز الحلقات الاخرى، حتى يرجع الحكم والسلطان إلى اهله، إلى قريش

وابي سفيان ومروان بن الحكم ومعاوية بن ابي سفيان وغيرهم من رموز الاستراتيجية لقد دخل متغير دخيل شديد الخطورة على قريش وسلطانها هو ((محمد (ص))) ولكن الأمور تقاس بنتائجها وهذه هي نتيجة ((محمد (ص))) !!.

لقد ولي وضع رسول الله(ص) في قبره رهط قليل جداً بعد أن اكملوا تغسيله، هذا الرهط تمثل بمعه العباس بن عبد المطلب، وابن عمه علي ابن ابي طالب (ع)، والفضل بن العباس، وصالح مولاه، وخلى اصحاب الاستراتيجية بين رسول الله(ص) واهله، فولوا اجنازه[١]، ودخل القبر وصيه وابن عمه وزوج فاطمة الزهراء(ع) وابو الحسنين الامام علي بن ابي طالب(ع)، وابن عمه الفضل بن العباس وكذلك ابن عمه قثم بن العباس وشقران مولاه، وهم نفسهم الذين تولوا غسله وتكفينه وامره كله[٢] وان ابا بكر الذي رافقه في حياته وكان معه في الغار عند الهجرة إلى المدينة، وعمر بن الخطاب الذي اهداه ابنته حفصة اكراماً له لم يشهد دفنه[٣] وقالت عائشة: ((ما علمنا بدفن الرسول حتى سمعنا صوت الناعي من جوف الليل، ليلة الاربعاء)).

من المتعارف عليه منذ بدأت الخليقة إلى يومنا هذا هو اذا توفي احد الرموز في المجتمع كرئيس قبيلة، شيخ من شيوخها، أو وجيه من وجهائها، أو مدير ناحية بسيط، أو محافظ، أو وزير وانتهاءاً برئيس

(١) انظر إلى: النص لابن سعد في الطبقات ج/ق٢ / ٧٠، وفي البدء والتاريخ وكنز العمال / ٥٤/٤ و ٥٠ وهذه عبارته: ولي دفنه واجنازه اربعة من الناس ثم ذكر ما اوردناه.

(٢) انظر إلى: العقد الفريد ٤١/٣، وكنز العمال ١٤٠/٣.

(٣)انظر إلى: ابن هشام ٣٤٤/٤، والطبري ٤٥٢/٢، وابن كثير ٢٧٠/٥، وابن الاثير في اسد الغابة ٣٤/١.

الدولة، يكون هناك حداد، وتشييع مهيب، وحزن يعم البلاد، وتوزيع للطعام، وقراءة للقرآن، والصلاة على روح المتوفي، واعطاء الاموال ترحماً لروح الفقيد، فما بال هذا النبي، يترك ويهمل بهذه الصورة التي لايمكن أن يصدقها عاقل ولا مجنون !!. ما بال صاحب اعظم رسالة سماوية يدفن على يد اربعة من اهل بيته !!، اين اصحابه، اين الذين دخلوا الإسلام على يده، اين الذين بايعوه في بيعة العقبة الصغرى والكبرى، ربما لم يسمعوا بوفاة الرسول(ص)، فهو رجل ادى واجبه وبلغ رسالة السماء وذهب واصبح بعد ذلك كأي رجل عادي كما تقول الحركة السلفية الوهابية، وهذا يعني أن لهذه الحركة جذورها منذ عهد الرسول(ص)، وبهذا يكون العذر كل العذر لمن يحضروا تغسيل ودفن الرسول(ص)، والغائب كما يقول المثل الشعبي ((عذره معاه))، اما نحن فنقول للكثير من حشد القطيع من هذه الامة الهزيلة والسطحية في تفكيرها ودورها انها استراتيجية المدخلات والمخرجات فهذا الذي توفي يمثل الحلقة الاولى التي سقطت، ولا زالت هناك حلقات يجب أن تسقط، حتى تتحقق كل مفردات الاستراتيجية ويرجع الحكم والسلطان لاصحابه، الدولة الاموية ثم الدولة العباسية ثم الدولة العثمانية فالسلجوقية، واخيراً وليس آخراً إلى السلاطين والامراء والرؤساء إلى أن يحكم الله والله خير الحاكمين.

صدقت يا زعيم قريش وزعيم الكفر والالحاد، يا ابا سفيان: تلاقفوها يا بني امية، والذي يحلف به ابو سفيان لاخبر جاء ولا وحي نزل، انها اكذوبة جاء بها محمد وانتهت دون رجعة، وقد قلناها لهم إلا انهم لم

يصغوا لنا، وهاهو ابن عمنا وشيخنا عثمان ابن عفان قد اخذ الامر على عاتقه وارجعها لنا سالمة مسلحة، فشكراً لابطال السقيفة وشكراً لعبد الرحمن بن عوف وشكراً لكل من ساعد على ارجاع الباطل لاهله لقد ذهب الإسلام الذي ساوى بين زعيم قريش وعمار بن ياسر، لقد ذهب الإسلام الذي ساوى بين مروان وسلمان الفارسي، لقد ذهب الإسلام الذي ساوى بين بلال ومعاوية، انها واللات والعزى والهبل الكبير مهزلة ما بعدها مهزلة، دين يساوي السيد والمسود !!!، تنفس ابو سفيان الصعداء واخذ بثأر لبدر، واخذ بثأر لذلك اليوم الذي سمع به صوت محمد(ص) وهو يقول اذهبوا فانتم الطلقاء، والآن يا محمد من هم الطلقاء، نحن الآن الخلفاء لا الطلقاء، نحن الآن نحكم باسمك وننهب باسمك، ونقتل باسمك، ونشيد القصور باسمك، ونكنز الذهب والفضة باسمك، فنم يا محمد قرير العين فالاسلام الذي اسسته وقاتلت في سبيله وفرحت لانتصاره، اصبح جسراً لنا، نعبر عليه كلما اقتضت الحاجة، انه جسر وقنطرة واداة تحت الطلب، هكذا انتهى اسلامك يامحمد !!!.

إن هدية عثمان لمروان ولابنته العروس أم أبان مثلت البداية أو الحلقة الاولى، فقد حرص خليفة رسول الله(ص) أن يتخم الطلقاء وابناء الطلقاء باسباب الجاه.. فحيثما جرت العين في سطور تاريخية رأيت اغراقاً في البذل تكاد إن تحسبه من خيالات الاوهام، حتى في بدء حكمه وفي ذات اليوم الاول لخلافته منح ابا سفيان شيخ بني امية مائتي الف درهم... ففيم هذا الكرم المغرق العجيب؟.. وهل كان اداؤه لسبب

ما؟ نعم لسبب معلوم، اليس هو القائل في اول يوم توج فيه عثمان تاج الخلافة يخاطب سيد الشهداء الحمزة بن عبد المطلب:

يا ابا عمارة: إن الامر الامر الذي اجتلدنا عليه بالسيف امسى يا ابا عمارة يا عم الرسول الذي ادعى النبوة وكسر اصنامنا وحطمها واذلها واذلنا معها، في غلماننا يتلعبون به !)).

هنيئاً لعثمان، هنيئاً لهذه العاقبة التي امسى بها احد غلمان ابي سفيان، هنيئاً لهذه النهاية التي سلم بها الامانة السماوية إلى اعدائها، كان عثمان يعلم حق العلم أن هذه الاموال هي اموال المسلمين، وانها اموال الكادحين من الفقراء والمساكين والمستضعفين.

يقال أن عمر مر ذات ليلة باردة من ليالي الشتاء بأمرأة وحولها صبيانها يتصارخون من الجوع، وكانت المرأة قد وضعت ماءاً في قدر واشعلت تحته النار لتوهم اطفالها بانها تطبخ لهم طعاماً فيسكتون، فتألم عمر من ذلك الماً شديداً وذهب إلى دار الدقيق فحمل منه شيئاً واتى به المرأة.

وعاظ البلاط، فقهاء السلطة اتوا بهذه القصة لكي يذكروا بها فضل عمر وعطفه وحنوه على الرعية، والاولى بهم أن يأتو بها لكي يبينوا للتاريخ والانسانية ما كان عليه الفقراء في ظل الدولة الاسلامية من عوز وفقر واملاق واضطهاد، فاذا كانت الصدفة التي كشفت امر هذه المرأة الفقيرة، فان الصدفة نفسها اخفت الكثير الكثير من يعاني معاناة هذه المسكينة المسلمة.

والآن نسأل:

اين الزكاة التي تجمعها الدولة من الناس؟

اين الاموال الطائلة التي تجمع من كل امصار الدولة الاسلامية؟

اين اموال الزكاة التي كانت تجبى من الناس وتتقاسم الدولة معهم اموالهم واغنامهم ومواشيهم ومحاصيلهم؟

اين الاموال التي جمعها ابو بكر وسلط خالد بن الوليد على رقاب الناس تجمعها باسم الزكاة؟

اليس من حق هذه المرأة وامثالها من الفقراء والمحتاجين أن يكون لهم حصة بالقدر الذي يحفظ لهم كرامتهم من هذه الاموال الطائلة، اموال امتلأ فيها بيت المال حد التخمة.

اين الإسلام الذي رفض الانفراد بالسلطة والتجبر؟

أين الإسلام الذي قال واكد ((إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ))؟

اين الإسلام الذي قال واكد ((كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته))؟

اين الإسلام الذي قال ((هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ))؟

هل هذا تغير بتغير الظروف والاحوال، فصعدت النخبة المختارة من الطغاة والدهماء والسوقة ليتلقوا مقاليد السياسة والحكم.

نعم هذه هي الحقيقة فلقد تغيرت المراحل، وبدأت مرحلة المدخلات التي تربصت كثيراً بالاسلام، وانتظرت طويلاً متحينةً الفرص

حتى تقفز فجأة لتعود بالاسلام إلى ايام الجاهلية كمنبع لسلوكهم وتصرفاتهم واتجاهاتهم وتعاملهم، لقد نظرت المدخلات إلى الدين كعقبة وكقوة دفع الفقراء إلى أن يكونوا طاقة وقرار وفكر، فبعد أن كان هؤلاء الفقراء والمضطهدين عبيداً يساقون بالسوط من قبل اشرار قريش وطغاتها اصبحوا اليوم يمثلون في ظل الإسلام منهجاً سياسياً ويرسموا للحياة دستوراً، ويعطون للدنيا ادلة قوة الانسان الثائر، انها الحرية التي جاء بها الإسلام، فلا قيود ولا استغلال ولا تكبيل.

جاء الإسلام نعمة كبرى على العرب عندما جعلهم امة واحدة في ظل دين واحد وزعيم واحد، بعد أن كانوا شراذم وقطيع تائه في الصحراء، كما كان الإسلام دين الرحمة لكل الانسانية.

لقد فرض الإسلام نفسه، بوصفه نظاماً متكاملاً قادراً على تنظيم الحياة وعلى جميع الاصعدة، لهذا دخلت قيم الإسلام فضاء الفرد والمجتمع والانسانية كمنطلقات عقلانية، ومنها اصبح الإسلام الفعل الذي رفع الشقاء من اجل أن تستمر الحياة على جناح الخير.

إن الصراع التاريخي بين الخير والشر حسمه الإسلام، وترك للانسان الخيار الذي يمكنه من خلاله أن يفرز بين بين هذا وذلك، ولغرض أن يصل الانسان إلى الخيار الصحيح وهبه الله قوة الاستشارة، فالانسان السوي يستشير حواس عقله في موقف يتوجب عليه الاختيار.

وفي كل فعل يود القيام به.

وفي كل فكرة تشاء أن تتأمل معالمها.

وفي كل معرفة يرغب أن يبلغها.
وفي كل كلمة ينظر في قولها.
في كثير من الافعال التي لا تلزمه.
في كثير من الافكار التي لا جدوى منها.
في كثر من المعارف التي لا اهمية لها.
في كثير من الكلمات التي تكون في غير موضعها.

تحت ظلال هذه الاستشارة تكمن معالم قوة وصواب الاختيار وبهذا يمكن القول إن روح الفضيلة تكمن في قدرة الاختيار، فعندما يوفق الانسان للاختيار الأصح يشعر ويدرك انه ارتقى في درجات الفضيلة، كما يشعر ويدرك انه مشارك حقيقي في توسيع ساحة العطاء، من هذا ارتبط الإسلام بمفهوم الفضيلة، ومن هنا ارتبطت عظمة الإسلام بالانجازات الانسانية على صعيد تخليد حركة الحياة، تحول الإسلام من رحمة إلى نقمة، من حرية إلى استعباد، من عدل إلى ظلم، هكذا ارادوه أن يكون من يوم خططوا له فلقد جاء دور المدخلات لتحاكي قصة الامس الذي انحنى فيها شيخهم وزعيمهم ابا سفيان لفقراء واذلة القوم، قصة قلبت كل الموازين وكل المعادلات، قلبت الثوابت التي كانت سائدة قبل أن يعلن محمد(ص) دعوته، ثوابت البداوة، والتخلف، والفقر الحضاري والهمجية، والغزو والسلب والنهب، واغراق في علم الكلام ((الشعر)) اضافة إلى الخرافات والاساطير والمسميات القديمة، ومن هنا بدأت الازمة، ازمة العلاقة بين الانسان قبل الدعوة الاسلامية وانسان بعد الدعوة الاسلامية، وقد اذنت هذه العلاقة بصعود التيار المعارض وبدأ

الصراع وعلى جوانبه المختلفة، القتالية، التآمرية، الفكرية، الاقتصادية، الاجتماعية، وبسياقات واسعة، وعندما فشلت كل محاور الصراع هذه، تم التفكير بالبديل وفي نسيج محبوك بالاعتماد على مفاهيم التعايش والتعاون مع الوضع الجديد دون نسيان الهدف العريض، وهذا ما تم فعلاً.

ولكي تحقق الخطة البديلة اهدافها وتقوم على ارضية قوية كان لابد لها من مستويات يتحقق فيها شروط معينة مثل: القيادة الواعية، التكيف مع الموقف، الرؤية لما يحدث حولها من متغيرات وفي ضوء هذه المعايير قررت قريش ادخال رموزها لتكون قريبة من زعيم الدعوة الجديدة محمد(ص)، فلا يمكن ايقاف المد العارم لهذا الدين إلا عن طريق اختراقه والاجهاز عليه من الداخل.

هذه هي الحقيقة بشكلها الأبعد والأكثر والأعمق، ونظن أن التاريخ قدم لنا المزيد من الادلة الشاخصة التي لايمكن للانسان المسلم الصادق المؤمن أن يفتخر بها، وعليه يكون على هذا المسلم أن يؤرخ لنفسه تاريخاً جديداً يشاهد من نوافذه ادق تفاصيل مصرع الإسلام الحقيقي الذي جاء به محمد(ص) وولادة اسلام جديد، اسلام له ممثليه، ومخرجه، ومنتجه، وكاتب السيناريو له، اسلام جديد ينسجم مع ايقاعات حياة الجاهلية ولكن مع نوع من الربط بين الحاضر وجذور الماضي، فالماضي هو الاصل، وهو القيم اما الحاضر فهو الكسب والملك، اسلام بني امية، اسلام يتلوع فيه الشعب من الجوع ويعاني اشد انواع العوز والاملاق، وبنات عثمان أم إبان وعائشة وزوجيهما مروان

والحرث يجزل عليهم الامير العطاء ويمهرهما الذي هو الاغلى ماتمهر النساء، أي سخاء هذا ((اهدى الامير بما لايملك)) انها مئات الآلاف من الدنانير دخلت بيت اعدى اعداء رسول الله(ص) احكم بان ابي العاص، هذا اضافة لما جناه بيت بني امية من عطاءات فلقد منحهم الامير وفي بداية تسلمه مقاليد الحكم مائة الف هذا فقط لآل ابي سفيان، ومئات مؤلفة اخرى لبقية افراد من اسرته الوفيرة الفروع والافخاذ والافراد.

اننا نظن أن قول الله تعالى في صرف اموال الصدقات ((**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**)) سورة التوبة – الآية ٦٠.

كان المقصود منها آل امية وخاصة آل سفيان وخاصة ابو سفيان واولاده واخوته وعياله، وان المسلمين أو الفقهاء قد اخطئوا تفسير هذه الآية، وقد اجتهد الخليفة امير المؤمنين حتى وجد المعنى الحقيقي لها وانقذ الشرع الاسلامي من هذه الخطيئة والذي يصر من الفقهاء بان عثمان بتوزيعه اموال بيت المال على أقاربه من بني امية مخالفة دينية خطيرة، فان هذا يدخل في باب الحسد والحقد والغيرة، فمثل هؤلاء نسوا أو تناسوا الآية التي تشير إلى أن ((**الاقربون اولى بالمعروف**)) فما هو الخطأ واين هو العيب لو أن الخليفة المؤتمن منح الآلاف ومئات الآلاف من اموال الفقراء الكادحين والمستضعفين على اهله من بني امية، اليس هؤلاء هم الاقربون، وان عدم منحهم

الهبات والعطاءات والمكرمات مخالفة صريحة لقيم وتعاليم الشريعة الاسلامية.

اما اذا ادعى هؤلاء الحساد بان من اهدى لهم الخليفة هذه الآلاف من الاموال المنقولة وغير المنقولة هم من طريدي رسول الله(ص) فهذا صحيح، إلا إن هؤلاء استأنفوا الحكم لدى السلطان الجديد واجتمع السلطان مع اهل المعرفة والحل والعقد، وتوصلوا إلى براءة هؤلاء الناس، واصدر القرار علناً وصدق من قبل الكاتب العام للدولة الاسلامية مروان بن الحكم ولايزال هذا القرار نافذ المفعول لليوم هذا، فاين المشكلة اذن، اين المشكلة والذي يطلق عليه لقب طريد رسول الله(ص) اصبح بعد ذلك القرار السلطاني خليفة رسول الله(ص) ثم انتقلت الخلافة المقدسة المحمدية، وبشكل تلقائي إلى أولاده من بعده، هذا كله يعطي الحق لعثمان بن عفان ايواء ابن عمه الحكم بن ابي العاص، ومن ينكر هذا فقد عصى ولي الامر.

هذا اذا علموا هؤلاء الحساد الحاقدين أن جريمة ابن عم الخليفة الحكم بن ابي العاص التي نفي بسببها واصبح طريداً بامر رسول الله(ص) لم تكن بالحجم الذي يستحق كل هذا العقاب، المشكلة وما فيها هو إن الحكم بن ابي العاص كان يرمي القاذورات على رأس النبي(ص) كلما رأه يصلي كما كان يمشي وراء النبي ويستهزء بمشيته، حيث كان يقلد مشية النبي(ص) ويصف حركاته خفية فالتفت يوماً رسول الله(ص) فرأى الحكم يتخلج في مشيته.

صحيح أن النبي (ص) اغضبه هذا السلوك إلا انه مع ذلك لايمكن

اعتباره من الجرائم التي تستحق هذا العقاب، فالنبي محمد(ص) كما يرى المذهب الوهابي والحركات السلفية ماهو إلا بشر مثلنا وليس له أي ميزة أو خاصية تميزه عن غيره، انه انسان عادي كسائر البشر وبهذا فلماذا يجوز الضحك أو الاستهزاء على عامة الناس مثلاً ولايجوز الضحك والاستهزاء على محمد(ص)؟

ثم انه من جهة اخرى اين الخطأ أو العيب اذا جاع الشعب وتلوى من الفقر تضحية منه ووفاءاً لعشيرة الخليفة واهله، اليس لخليفة المسلمين حق الطاعة عليهم؟، اليس هو ولي امرهم؟، اليس هو اميرهم؟، فاذا شبع مروان وابو سفيان والوليد بن عقبة وعبد الله ابن ابي السرح وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم وجاع عمار بن ياسر وبلال الحبشي والمقداد وأبو ذر الغفاري وعبد الله بن مسعود، اليس في هذا حكمة توصل اليها الخليفة عثمان، يزيد هؤلاء النفر الصابرين ثواباً وجزاءاً، الم ينسجم هذا السلوك بالآية الكريمة التي اشارت إلى جزاء وثواب من صبر ((**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**)) سورة البقرة – الآية١٥٥.

هكذا اراد الخليفة المؤتمن أن يعجل دخول هؤلاء الجائعين الجنة، فلماذا انقلب فضل الخليفة إلى معصية فالخليفة مسلم وولي امر اجتهد في موقفه هذا، فان اصاب فله حسنتان وإن اخطأ فله حسنة، وبالنتيجة فهو الفائز في نهاية المطاف إن كان صائباً أو مخطئاً، ففي كلا الحالتين سيفوز بالحسنات وهذا هو الإسلام الجديد الذي لا زلنا نبث قيمه واخلاقه واتجاهاته فمن عثمان إلى معاوية ومن معاوية إلى يزيد ومن

يزيد إلى مروان ومن مروان إلى أولاده ومن أولاده إلى اولاد عثمان ومن اولاد عثمان إلى اولاد سلجوق ومن اولاد سلجوق إلى السلاطين والامراء والحكام والرؤساء، انه اسلام برايات جديدة وقيم جديدة يعيش المسلم وغير المسلم في ظله، فشعاره اطع الحاكم وان ضرب ظهرك ونهب اموالك وانتهك عرضك، فما اجمل هذه المبادئ الانسانية اننا والله من حقنا أن نفخر بهذا الإسلام، ولابد لنا إن نتقدم بالثناء والشكر والتقدير لمن قاد الحركة التصحيحية للاسلام من يوم السقيفة وترك النبي (ص) مسجى وحده لا صحابة ولا رفاق إلى دفنه من قبل اربعة انفار من اهل بيته إلى يومنا هذا، شكراً وتقديراً لابي سفيان الذي سطر لنا كيف نكون، شكراً لتلك النصيحة التي اسداها لابن عمه الخليفة ((تلاقفوها يا بني امية، كتلاقف الاطفال للكرة)) ما اجمل هذه البلاغة، وما اجمل هذا الصبر الذي صبره زعيم قريش حتى نال مطلبه وثأر لاهله الذين جند لهم ((محمد وحواريه)) يوم بدر، فيوم بيوم يا محمد، هاهي السلطة والملك يرجع لاهله ولكن بغنائم لا تعد ولا تحصى وبابن عم لم يبخل على اولاد عمومته، فتح الابواب والمراعي والكنوز لهم ليعوضهم ما حرم منه ايام محمد(ص)، فبارك الله بالمعطي وبارك الله بالمستلم، فالمعطي والمعطى اليه في الجنة ولوكره الحاقدون الحاسدون، فالمعطي ليس بالانسان العادي، انه الخليفة وولي الامر، والمعطى اليه، زعيم قريش وشيخها، فاين الاعتراض، إن العدل العثماني الذي اختطته من بعده الحركات السلفية الوهابية موسوم بانه قمة العدل، وان سياسة السخاء التي اختطها عثمان لنفسه والتزمها اشد الالتزام كانت دوافعها

اسلامية، ولمن غابت عنه هذه الحقيقة عليه أن يراجع ذاكرته وعلى ذاكرته أن لاتنسى دعوة ابي سفيان لذويه يوم استخلاف عثمان، أن يجعلوا الإمرة ملكاً تتوارثه الاسرة.

المبحث الثاني:
التأسيس الاول لمفاهيم الخدعة

الصورة التي حملها الإسلام بعد وفاة النبي محمد(ص) صورة متكررة لحياة الجاهلية ايام كان ابو سفيان يصول ويجول، ثم تلاحقت الاحداث لتعمق الصورة بسيل من الدماء والقمع والظلم والاستغلال ولكن وكما اشرنا باسم الإسلام وتحت رايته.

في حضور الرعب والخوف وغياب المبدأ الديني تدهور النظام القيمي في المجتمع الاسلامي، وظهر غول جديد اسمه ((الخلافة)) واصبحت السلطة التي من خلالها يسرق كل شيء، واصبحت الطريق لنيل المكاسب واصبحت المبرر لكل الاختراقات.

وما هو مفقود في هذه الدولة الجديدة انسانية الانسان والتي كانت الشرارة التي اطلقها الإسلام وعمل على تحقيقها، ليعيش الانسان بلا قهر ويعيش حياته بلا تهديد، ففي الإسلام وقوانينه كفالة لا تمييز بين حاكم ومحكوم وسيد ومسود فالكل في حماية النواميس الاسلامية.

الخلافة وامير المؤمنين وولي الامر مفاهيم مثلت المستويات العليا لابعاد مفهوم ((الخدعة)) مفاهيم تسترق من ورائها ((المدخلات)) من اجل مطامعها وديمومة الحكم بيدها، وليبقى الانسان يعيش سلباً كالبهيمة لايوظف ارادته في شيء، لذلك اصبح هذا الانسان الضعيف

المغلوب على امره هو المستهدف وهو الاول الذي تدور عليه الدوائر فاذا حدث أي خلل امني في هذه الدولة القمعية الاستبدادية فهو أو من يسجن ويضطهد وتراقب خطواته بتهمة انه العنصر اللامنتمي الذي يعوق حركة الخليفة ويخون تعاليم الإسلام ويخرج بالتالي من الشريعة والملة.

إن الدعوة الاسلامية التي انتصرت وانتشرت على اكتاف الضعفاء والفقراء والمساكين، تحولوا هؤلاء ليكونوا اول ضحايا هذه الدعوة، يطحنون تحت اضراس حاشية الخليفة وولي الامر واميرالمؤمنين، والحق بالطبع مع ولي الامر وحاشيته المقربة، فهؤلاء الضحايا الذين نهضوا بالدعوة الاسلامية، شكلوا الان خطراً على الدولة، فقد تحولوا بغريزتهم المتدنية إلى من هو فوقهم حسباً ونسباً يحاولون هؤلاء الاوباش أن يسحبوا من ولي الامر وخليفة المسلمين واميرهم الكرسي الذي منحه الله له ليقفزوا مكانه.

إن المشكلة الاساسية تكمن في أن هذه الشرائح دائماً ما تتسم بالجنون أو الخرافة، فهم على سبيل المثال صدقوا أن الإسلام نبع محبة واخوة وتعاون وتراحم، وانه دافع ومحفز للتضحية والفداء والبذل، ولا يقوم مجتمع يسوده قيم المحبة والتعاون بدونه.

هل من المعقول ايها السادة أن يحكم البلاد اراذل الناس وفقرائهم، رحم الله من عرف قدر نفسه، قد تطول المسيرة ويطول المشوار، ولكن من قال أن الذي اصطف مع محمد(ص) هو الذي يصل اولاً.

الم يقل الحكيم القديم لسائق العربة: ((سر ببطء حتى تصل بسرعة)).

ها قد سرنا ببطء ووفق استراتيجية محكمة وادخلنا رموزنا في حركة محمد(ص) واخذوا مكانهم بين الصحابة، ومنذ دخولهم بدأوا العمل وبذلوا الجهد دون ملل أو كلل، حتى انتهى بهم الامر إلى تسلم زمام الأمور وجاء جيلنا الذين يطلقون عليه انه جيل الكذابين أو الافاكين والانتهازيين ظلماً وعدواناً وحسداً، جيل لا تشم انوفهم إلا رائحة المادة والجنس والدم.

هكذا تغيرت نتيجة المعركة، وذهب دم شهداء بدر والخندق وحنين واحد وغيرها هدراً، وذهب دم سيد الشهداء الحمزة سدى، فلقد جاء جيل الوحشي اليوم منتصراً يملك المعنويات العالية التي فقدها زمناً طويلاً، جاءت امية يقودها ابن العم عثمان، ابن العم هذا مملوء الوفاء لقريش عامة وآل امية خاصة، جاء عثمان لدفة الحكم وبمباركة كل النفعيين الذين ينتظرون الجزاء وهو مقوداً بزمام نزعة قديمة كالغريزة، انتقلت مع الاجيال الاموية المتعاقبة في عروقه وجرت دماً قانياً لايغيض، وراح باملاء هذه النزعة بود اهله ويرفعهم عالياً فوق رقاب الناس، ثم لايعدم – لو وقف موقف لوم أو موقف حساب – أن يتلمس لنفسه المعاذير فلا يعيبه أن يقع عليها في حسن اضطلاع بالامور فضلاً عن صلة الرحم ترك عثمان تقدير الله له إن سار بالمجتمع السيرة الاسلامية وجسد اخلاق الرسول(ص) واحاديثه، ولجأ إلى تقدير الزعماء والوجهاء من قريش لتثبيت حكمه وتقوية سلطته.

ترك عثمان المقاييس الاسلامية والتزم المقاييس العشائرية معتمداً في هذا الالتزام على ثلة من المنافقين ووعاظ البلاط، ومن باع آخرته بدنياه لقاء الكسب الرخيص، هؤلاء الذين لايبصرون سوى اطماعهم ومكاسبهم وحجز مقاعدهم بالقرب من صاحب القرار.

لنرى كيف بدأ عثمان حكمه في تطبيق وترسيخ القيم الاسلامية وتعاليم الشريعة، والتي اصبحت بعده منهجاً سياسياً للدولة الاموية المستبدة.

لقد كانت قضية عبيد الله بن عمر بن الخطاب اول ما نظر اليها عثمان ابن عفان عقب توليه الخلافة، فقد اندفع عبيد الله بن عمر بن الخطاب بعد وفاة ابيه غاضباً ثائراً ليقتل كلاً من ((الهرمزان)) و((جفينة)) باعتبارهما متواطئين مع ابو لؤلؤة في مؤامرة اغتيال ابيه، وكذلك ابنة ابي لؤلؤة، ثم قبض على عبيد الله وهو في ثورة الغضب يهدد المهاجرين والانصار: والله لاقتلن رجالاً ممن شرك في دم ابي.

ومن الجدير بالذكر أن عبيد الله بن عمر اقدم على قتل هؤلاء الناس دون دليل ولابينة، بل اكتفى لاخذ القصاص منهم برواية عبد الرحمن بن ابي بكر، حيث قال هذا الاخير غداة طعن عمر بن الخطاب، انه شاهد خنجر له رأسان فصابه في وسطه، وهو يشبه الخنجر الذي طعن به عمر وكان الهرمزان مسلماً[1].

(١) انظر إلى: الطبري (الجزء الرابع) / ص٢٤٠.

وعلى اساس هذا الادعاء من عبد الرحمن بن ابي بكر نفذ عبيد الله بن عمر بن الخطاب قرار القصاص وقتل من قتل.

جيء بالمتهم للمحاكمة امام الخليفة، وهنا بدأ الاختراق: شاور الخليفة من حضره من المهاجرين والانصار في قضية هذا الذي ثار لنفسه من دليل أو بينة أو شاهد، فقتل رجال دون تحقيق ودون مبالاة ودون اعتبار لنصوص الدين وقيمه وتعاليمه ودون اعتبار لسلطة الدولة وهيبتها، فعرض عثمان القضية بقوله: ((اشيروا عليَّ في هذا الذي فتق الإسلام ما فتق)) وهو يعرف لا شك إن جزاءه القتل في التشريع الاسلامي وبذلك اشار الامام علي بن ابي طالب(ع): ارى إن ينال جزاءه، انه قاتل، وعليه جب أن يقتل، فالنفس بالنفس هذا هو القصاص وهذا هو الحكم الذي ينسجم ويتماشى وشريعة الله ورسوله.

دخل عثمان ((رئيس المحكمة)) في دائرة الحيرة والقلق، ماذا يفعل فالقاتل هو ابن من دفع اليه الخلافة، وهو ابن من رسم الخطة لتنتقل الخلافة اليه وبنتيجة مسبوقة، انه ابن صاحب الفضل الاكبر، فهل من باب الوفاء أن يقتل ابن من قلده الحكم والسلطة دون معاناة الم يؤكد الله على قيمة الوفاء حيث ذكر في كتابه المجيد: ((**هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلا الْإِحْسَانُ**)) سورة الرحمن- الآية ٦٠.

فهل يكون جزاء عمر بن الخطاب قتل ولده، حتى ولو قتل الفاً أو الفين أو اكثر لاسيما وان القتلى من عامة الناس ((فهم لا بالعير ولا بالنفير)) وقد يكون من المعقول النظر في هذه القضية لو كانوا القتلى من زعماء قريش أو من وجهاء القوم أو من كبار القوم في المدينة.

دخل رئيس المحكمة الاسلامية في هذه الدوامة، فكرة تأتيه وتذهب، رأي قريب ورأي بعيد، ولكن لايدري أن بين اعضاء المحكمة شخصاً ذو دراية وحكمة ورثها من امه النابغة التي بذكائها ودهائها الحقت من يملك الذهب والفضة، انه العاص بن وائل احد الذين ضاجعوها حيث كانت هذه الام الخالدة من ذوات الرايات الحمر، وبهذا الذكاء غير العادي اصبح اسم عضو هذه المحكمة ((عمر بن العاص))، وما اكثر الحكام والامراء والسلاطين المسلمين الذين ينحدرون إلى امهات شبيهات بام القائد الاسلامي عمر بن العاص من حيث الشرف والعفة وسلامة الانحدار.

تدخل هذا المستشار الداهية عندما رأى رئيس المحكمة الاسلامية في موقف الحرج فاقترح عليه الابتعاد عن الخوض في هذه القضية الجنائية، لأنها لا تدخل ضمن مسؤولياته، فالحادثة قد وقعت في زمان غير زمانه وفي عهد غير عهده، وفي وقت لم يكن مالكاً للحكم أو السلطة فيه، وبهذا فاني أرى أن الله غير مساءل لك، وانت في مأمن الحساب أو المساءلة.

اننا بدورنا نرى أن هذا الحكم صائباً وصحيحاً فنحن العرب لدينا مثل يقول ((الماتْ فاتْ)) فلماذا يشغل الخليفة باله بهذا الموضوع ما دام هو موضوع فات، لذلك نرى أن الكثير من الجرائم تغلق ولا يتم النظر فيها اذا وقعت في ايام حاكم توفى أو تنحى أو طرد من منصبه، واذا كان هناك من يخالفنا الرأي، نقول له اليس الحكم الاسلامي يجب يعمم على الزمان والمكان والانسان، فهل يجوز أن يكون حكم ابن

الباغية صالحاً في عهد عثمان وباطلاً في عهد آخر هذا اولاً وهل إن هذا الحكم المقترح صادر من سواد الناس أم انه صدر من قائد اسلامي يفتخر به العرب والمسلمين، اليس هو ابن العاص ضجيع امه من العشرات من الرجال، اليس هو ابن من آذى النبي (ص) اشد الاذى، اليس هو ابن من كان يقف بطريق النبي(ص) ليكيل علي السب والشتم ويسمعه ابشع واقبح الالفاظ، اليس هو ابن من كان يجمع اطفال قريش ليرموا سيد الكائنات وخاتم الانبياء رسول الله محمد(ص) بالحجارة، فاذا كانت هذه سيرة حياته وانحداره العائلي المشرف، فلماذا لايأخذ الخليفة برأيه واقتراحه، ويهمل حكم واقتراح ابن عم الرسول(ص) وزوج فاطمة البتول وابو الحسن والحسين (عليهم السلام) والذي قال فيه الرسول الاعظم (ص): ((انا مدينة العلم وعلي بابها ومن اراد العلم فاليأتي من الباب))، كما قال فيه وفي هذا الصدد بالذات: ((اسمعوا لعلي فأنه افقهكم)).

فكر وتأمل الخليفة في رأي ابن النابغة إلا انه بعد التحليل لجأ إلى الحل الوسط قائلاً: ((أنا وليهم وقد جعلتها دية، واحتملتها في مالي))[1].

والآن نسأل: من اين جاء عثمان بهذا الحل؟ اليس في هذا الحل تعطيلاً صريحاً لحدود الله؟ وهل هو المسؤول عن قتل هؤلاء الابرياء حتى يقوم بدفع الدية بنفسه؟ واذا افترضنا أن حكم الدية صحيحاً، اليس من الاجدر إن يتحملها القاتل نفسه دون غيره؟ وهل تم الحصول على

(١) انظر إلى: الطبري / مصدر سابق / ص٢٣٩.

موافقة اهل وذوي القتلى؟ وهل أن ما جاء في النص القرآني: ((**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**)) سورة البقرة- الآية١٧٩ ، ينسجم مع هذا الحكم العثماني؟ وهل أن الدية تدفع دون أن يتعرض القاتل لاي حكم بالسجن مثلاً؟ وهل أن الدية يعني ارسال القاتل بكل احترام وتقدير وتوديع رسمي إلى مدينة ((الكوفة)) وانزاله داراً مؤثثة ومترفة ويزخر في الخدم والحشم وغير ذلك من مستلزمات العيش الرغيد[1].

والاخطر من كل ذلك هل يكون هذا الحكم الذي صدر من خليفة المسلمين وولي امرهم واميرهم قانوناً يؤخذ به في كل زمان ومكان؟ وهل يمكن بعد هذا الحكم أن نخلي سبيل من قتل ((اربع)) من الناس ونطلق سراحه لقاء فدية يدفعها الحاكم أو الوالي أو المحافظ أو رأيس البلدية؟ وهل من لايأخذ بهذا الحكم لايكون مسلماً؟... مثل هذه الاسئلة وغيرها على وعاظ السلاطين الاجابة عنها !!!.

ولابد أن نذكر صاحب هذا الحكم أو من يؤيده أو يتعاطف معه، إن الانسان في الإسلام هو امة، بل عالم بأسره، بل الانسانية كلها في قيمته، تقول الآية: ((**مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً...**)) سورة المائدة- الآية٣٢.

إلى هذه الدرجة تبلغ قيمة الانسان وقيمة كرامته وامته، إن جميع الانجازات التي يدعي من يقوم بها لا تعدل قتل فرد واحد ظلماً، أو

(١) انظر إلى: تاريخ اليعقوبي / الجزء الثاني / ص١٦٤.

ايداع بريء في السجون.. لان قتل هذا الواحد ظلماً يعني قتل الانسانية كلها وهدمت الناموس.

والظاهر إن هذه السياسة في اصدار الاحكام ((البروكماتية)) والمغلفة بغطاء الإسلام قد امتدت إلى اليوم الحاضر فكم من الناس قتل على يد احد افراد عائلة الحاكم المسلم ولم تطالهم يد القانون، وفي احسن الاحوال ينتهي الامر إلى فدية يقرها الحاكم والد القاتل أو أحد افراد عائلته أو أن القاتل من الاقارب أو الحاشية اقتداءاً بالحكم الذي اتخذه خليفة المسلمين وولي امرهم عثمان بن عفان، وهذا بالطبع امر جيد ومحبذ، فالحاكم المسلم اليوم عندما يقتدي بسلوك وقرارات خليفة من خلفاء صدر الإسلام فهذا يعني عمق اسلامه وايمانه وتمسكه بالشريعة، ولغرض أن نعطي الصورة الواضحة لمثل هذا الاقتداء والذي اصبح سنة يسلكه امراء وسلاطين ورؤساء وملوك العالم الاسلامي.

كنت اسير في احدى شوارع العواصم العربية الاسلامية، وشاهدت جمهرة من الناس مجتمعين على جثة شاب وسيم، عليه من الملابس ما يوحي أنه من عائلة ميسورة، بادرت بالسؤال: ماذا حدث؟ اسرع إلي احد المتفرجين وطلب مني السكوت والاكتفاء بالمشاهدة دون النطق بأي حرف، امتثلت لنصيحة هذا الانسان، إلا إن الفضول دفعني إلى معرفة اسباب قتل هذا الشاب، وبصورة واخرى حصلت على ما اريد، وعلمت أن ابن احد الوزراء، لاحق هذا الشاب وخطيبته بالسيارة، ثم اوقفهما وطلب من الفتاة الخطيبة مرافقته، فلما اعترض خطيبها الشاب صارخاً انها خطيبتي وهي بهذا تشكل عرضي وشرفي، بادره ابن

المسؤول بثلاث طلقات في صدره ثم اخذ بيد الفتاة وادخلها سيارته وغادر المكان تاركاً جثة الشاب لكل من يريد أن يتفرج، وعلى المتفرج أن يكون له هذا المنظر أو الموقف درساً وعبرة له، اذا ما واجه نفس الموقف فعليه أن يتصرف بهدوء ويسلم مابيديه إلى طالبها دون ازعاج أو صراخ.

هذا ابن الوزير والقارئ يكون على ثقة تامة، لو كان القاتل ابن الرئيس لكان القرار بالقتل يشمل الشاب وافراد عائلته جميعاً واذا كان خليفة المسلمين وولي امرهم عثمان قد امر أو الحكم بالفدية التي لم تنفذ اصلاً، فلم يكن هناك فدية ولم يكن هناك من استلم الفدية، وكان الحكم لتهدئة النفوس واعلام لحشد القطيع فقط فان دم هذا الشاب ذهب هدراً، فلا فدية ولا تعويض، وتسارع اهله لنقله من الشارع واجراء مراسيم الدفن بسرعة تجنباً لاي ملاحقة امنية أو قانونية، فالقاتل له حصانة من منطلق اسلامي فهو مصون غير مسؤول، وبما إن والده هو احد الهيئة الحاكم لهذه الرعية، فان فقدان واحد أو اثنين أو حتى الف من الرعية لايشكل تهديداً أو خرقاً للدولة الاسلامية التي قبعت وتحيا تحت ظل صاحب المقام الاعلى حاكم هذه الدولة اطال الله في عمره وابقاه ذخراً لامة العرب والاسلام انه السميع المجيب.

كما أن ((صدام حسين التكريتي)) الرجل المؤمن لم ينسى ما سار عليه خليفة المسلمين عثمان بن عفان في كيفية تطبيق القواعد والاحكام الاسلامية من حيث نهب الاموال الطائلة له ولافراد عشيرته واسرته

والاقارب الاقربون أو من حيث الحكم في نزاعات القتل التي قد يقوم بها بعض افراد العائلة الحاكمة حفظهم الله.

نترك الآن نهب الاموال وبناء القصور وتشييد البحيرات فهذه كلها لاتساوي اراقة دم انسان بريء.

عاد احد الضباط من جبهات القتال ايام الحرب العراقية الايرانية وهذا الضابط قد حصل على اربعة اوسمة شجاعة لحسن أدائه وشجاعته في معارك سابقة.

انتهز هذا الضابط فرصة اجازته والتقى بخطيبته التي كان قد عقد عليها القران منذ سنة منتظراً الفرصة المناسبة والملائمة للزواج، خرج هذا الضابط وخطيبته إلى بحيرة الحبانية بقصد النزهة وقضاء وقت ممتع مع شريكة حياته المستقبلية.

حظه العاثر أن يصادف خروجه ذلك اليوم إلى بحيرة الحبانية خروج ابن الحاكم المؤمن ((عدي صدام حسين)) وحمايته لنفس المكان، هذا الضابط الساذج اعتبر الموقف اعتيادياً، فهذا الابن الفاسق الفاجر عنده من الفتيات ما لايعد ولايحصى ومن غير المعقول انه سيلتفت إلى خطيبته، كما إن هذا الابن من عائلة مؤمنة جعلته لايعرف الصحو ولو لدقيقة واحدة، فهو سكران ليل ونهار وبهذا يكون سكره سبباً يعدم اهتمامه أو تركيزه على خطيبته هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى فان جلستهما لم تثر الشكوك فهي جلسة اعتيادية حيث اتخذا من احد المقاعد المنتشرة في المتنزه مكاناً لتداول الحديث والتخطيط للمستقبل.

مر موكب ابن الرئيس المؤمن ولمح وبعين ثاقبة الفتاة تتحدث مع خطيبها، فوقف قليلاً ثم تابع المسيرة، إلا انه طلب من افراد حمايته جلب الفتاة واللحاق به إلى فندق البحيرة، وهو فندق خاص لافراد عائلة الرئيس المؤمن عبد الله زعيم العروبة صدام حسين، فليس هناك من ابناء الرعية أن يتجاسر أن يمر ولو مرور بهذا الفندق، أو انه يفكر بالمرور، فليس من حق الرعية ازعاج أو مزاحمة ولي الامر وحامي الديار الاسلامية.

قيدت فرقة الحماية الفتاة واجبرتها على مرافقتها إلى أن وصلوا الفندق، وسلموها بيد الحيوان المفترس الذي ينتظر فريسته..! لحق بها خطيبها أو في الحقيقة زوجها وهو يصرخ: انا ضابط في الجيش العراقي انا الذي بذلت كل شيء في سبيل حماية العراق، انا صاحب اربعة اوسمة شجاعة، اهذا هو جزائي؟ هل جزائي الاعتداء على عرضي، وانا الذي دافعت وحميت اعراضكم !!! ضاع صياح المسكين في ثنايا الثرى، ذهب دون جدوى، فلا من سامع يسمع لندائه، ولا من شريف يحن عليه، ولا من ضمير استيقظ لنجدته، فلقد ادخلت الفريسة إلى غرفة الاغتصاب وتم اغتصابها، وخرج المفترس تاركاً فريسته تندب حظها العاثر، ففي لحظة من لحظات القدر فقدت كل شيء، فقدت عفتها، فقدت شرفها، فقدت خطيبها، فقدت كل حياتها، ولم يبق لها شيء يستحق أن تعيش من اجله.

هذه اللحظات المثيرة والمؤلمة دفعت الضحية إلى قرار الانتحار فتسلقت الدراج، وصعدت إلى الطابق السادس ورمت بنفسها من فوق

السطوح إلى الارض، وانتهت جثة هادمة لا حراك فيها، وأثار الجريمة النكراء تغطي جسمها الطاهر، الجسم الراقي الذي دنسه ابن عبد الله المؤمن وولي امر المسلمين، وابن رمز العروبة والاسلام، الرمز الذي يتغنى به العرب صباح مساء، رمز ملأ العراق من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه بالمعتقلات والسجون والزنزانات واعواد المشانق، ولكن والحق يقال ((ذبح وطني)) مصحوب بالطريقة الاسلامية، فلا يعدم عراقي إلا وقد تمت فوق رأسه قبل اعدامه سورة عفلق مؤسس حزب البعث العربي الاشتراكي، المسيحي الاب، اليهودي الام، سورة تقول ((امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة)) وعلى المعدوم قبل اعدامه أن يردد النشيد الوطني ((الله يخلي الريس الله يطول عمره)) فتهانينا للعرب والمسلمين برمزهم الحاضر وبرموزهم السالفة الذي اخذ منهم الرمز الحاضر قوانين احترام الانسان والحياة والالتزام بالشريعة الاسلامية، ولكي نؤكد هذه الحقيقة لنرى ما كان مصير الضابط المفجوع بخطيبته.

عندما رأى هذا المسكين زوجته وهي تحتضن الارض جثة هامدة، ينزف الدم من كل جزء من اجزاء جسمها، انهار انهياراً هستيرياً واخذ يصيح.. اين العدالة؟ اين الرحمة؟ اين الإسلام؟ اين شهامة العرب؟ اين غيرة العرب؟ اين الرئيس من اعمال ابنه وافراد عائلته؟ اهذا هو جزائي؟ اهذه هي مكافأتي؟

طلب ابن الرئيس المؤمن من حمايته ايقاف هذا الازعاج والقاء القبض على هذا الضابط، واحالته محكمة عسكرية بتهمة النيل من عدالة وشخصية الرئيس ((حفظه الله)).

وفعلاً تم القاء القبض على هذا المسكين واحيل إلى المحكمة العسكرية لتقوم هي بدورها تنفيذ رغبة ابن الرئيس المؤمن وتصدر امرها باعدام الضابط لتجاوزه على ذات الرئيس، وتم تنفيذ حكم الاعدام بهذا المسكين، الضابط الحاصل لاربع من الاوسمة في اليوم الثاني وفي ساحة العرضات رمياً بالرصاص، كما تم تبليغ اهله وذويه بعدم قيام مجلس الفاتحة أو العزاء لان فقيدهم هو خائن للوطن.

لنتابع الافرازات التي افرزتها المدخلات التي دخلت الإسلام، واسست لدولة الاستبداد والظلم بعد وفاة النبي محمد(ص) إلى يومنا هذا، افرازات دفع ولا زال يدفع ثمنها الانسان العربي والمسلم.

عبد الله المؤمن الرئيس ((صدام حسين)) حفظه الله ورعاه.!! زار احدى المدارس وشاهد احدى المعلمات فاعجب بجمالها واناقتها المميزة، سأل عنها واخبروه ((حفظه الله ورعاه)) انها معلمة في هذه المدرسة منذ سنوات، وهي متزوجة ولها ابناء، وان زوجها يشغل منصب مدير الخطوط الجوية العراقية.

في اليوم الثاني ارسل حمايته لجلب المعلمة واسمها بالتحديد ((سميرة الشابندر)) والتقى معها وابدى لها اعجابه بها وانه شغف بها ودخلت قلبه دون استئذان، فاخبرته انها متزوجة ولها اولاد كبار قسم منهم في الجامعة، وزوجها موظف في الدولة ابتسم الرئيس المؤمن ((حفظه الله ورعاه)) فقال لها: يا سميرة ليس هناك مشكلة؟ كيف يا سيادة الرئيس؟ انتظري وسوف ترين، وبعد دقائق احضر زوج الضحية ((حسين الصافي)) مدير عام الخطوط الجوية العراقية، ليجد الرئيس

المؤمن وبجانبه زوجته سميرة الشابندر، رحب الرئيس بالضيف الجديد وطلب منه الجلوس، وبعد فترة وجيزة قال له الرئيس ((حفظه الله)) اسمع يا نوري، قد احضرنا القاضي وعليك أن تقوم باجراءات الطلاق، ماذا تقول يا حسين الصافي؟ ماذا اقول يا سيدي الرئيس، انا واولادي وزوجتي تحت تصرفكم ياسيدي، انا جاهز وحاضر لأطلق، شكراً يا حسين انـي اراك عـاقلاً، وتعـرف الاصـول، وفعـلاً تـم الطلاق وانتقلت الزوجة، من بيتها الاول إلى احد البيوت أو قل إلى احد القصور الذي خصصه الرئيس ((حفظه الله)) لها وعاشت الزوجة واولادها عيشة الرغد والرفاهية والغنى، فالمال وفير، والنفط يسيل، والبنوك ممتلئة، وان ولي الامر له حق التصرف بكل اموال الرعية كما تنص الشريعة الاسلامية، فلماذا حلال على عثمان أن يمنح ويعطي الاهل والاقارب والحاشية الآلاف ومئات الآلاف ولا يحق لعبد الله المؤمن صدام حسين أن يسلك سلوك اسلافه الصالحين، اليس عثمان كان امير المؤمنين وخليفة المسلمين وولي امرهم، وهذا صدام ايضاً رئيسهم وولي نعمتهم، فهو العاطي وهو المانع، وهو الذي يحيي وهو الذي يميت، فاذا منح فالكرم خصلته، واذا امر بالاعدام فالحزم ديدنه، واذا امر بالعفو فالحياة بيده، نصر الله الإسلام بحكامه ورؤسائه وسلاطينه.

المبحث الثالث:

التاريخ صور متكررة

نرى من المفيد أن نكمل القصة، حتى يتبين للقارئ درجة التزام الحاكم المسلم بتعاليم ومبادئ الشريعة الاسلامية، ويفخر بماضيه وحاضره، ويتفاءل بمستقبله.

ثارت ثائرة الزوجة ((زوجة الرئيس المؤمن)) عند سماعها بزواج زوجها من ((سميرة الشابندر)) وبهذا قامت بتحريض ابنها المتهور الفاسق وغير الموزون بكل تصرفاته وسلوكه على الانتقام لكرامتها.

سمع الابن كلام امه، وانتظر حتى يطلع على تفاصيل الحدث وعلم أن الوسيط لهذا الزواج كان المراسل الاقدم للرئيس المدعو ((كامل حنا)) وهو مسيحي وكان يعمل قبل مجيء صدام للسلطة عام ((١٩٦٨)) في انقلاب قاده ضابط يعمل بمديرية التموين والميرة وبالتحديد في مديرية رعاية ابقار الجيش يدعى ((احمد حسن البكر)) وهو ضابط مسلكي تدرج من معلم ريفي ابتدائي إلى أن اصبح ضابطاً ولكن ليس من صنف الضابط المقاتل بل من صنف ضباط التموين الذين يزودون الجيش بالارزاق مثل ((الخبز، الخضراوات، الحليب، الملابس)) كان هذا المراسل يعمل ((كرصون)) في نادي الصيد، واختاره صدام لخبرته الطويلة في هذا النادي الارستقراطي ليكون قريباً منه في يوم من ايام

حفلات ((عدي صدام حسين)) الحمراء والماجنة كانت هناك حفلة بجواره يقيمها المراسل الاقدم لابيه ((كامل حنا)) انتهز الفرصة عدي، وادعى بان هناك الكثير من الازعاج يصدر من المحتفلين الساهرين في حفلة ((كامل حنا))، وبخطة رسمها في ذهنه طلب من حمايته مرافقته حيث يوجد ((كامل حنا)) وما إن شاهد ((كامل حنا)) وكان في اشد حالات السكر حتى انهال عليه ضرباً بالعصا الكهربائية، ثم اجهض عليه بتسع طلقات وانهى الامر.

سمع الاب المؤمن ما قام به ابنه المحروس وقتله لمراسله المحبوب والعزيز ((كامل حنا)) ثار غضبه، وامر بالقاء القبض على القاتل ((عدي صدام حسين)) واودعه احدى صالات القصر الجمهوري بصفة موقوف.

شكل الرئيس هيئة قضائية للتحقيق مع القاتل ثم الحكم عليه بما يتفق مع القانون الجنائي العراقي، وكانت الهيئة تتألف من وزير العدل ورئيس الاستئناف وتسع من كبار القضاة اضافة لرجل الدين الشيخ جلال الحنفي.

بدأت المسرحية ولكن على الطريقة الاسلامية التي اتبعها الاسلاف حيث طلب جهاز المخابرات من المنظمات الحزبية، والنقابات والتعليم وبكافة المراحل الخروج بمسيرات وتظاهرات مطالبة بالعفو والسماح للمحروس ابن الرئيس المؤمن ((عدي صدام حسين)) واستمرت هذه المسرحية عدة اسابيع، خلالها تدخل الكثيرين من رؤساء وملوك الامة العربية والاسلامية وعرضوا وساطتهم طالبين من الرئيس المؤمن العفو

عن ولده، فاذا كان الله غفور رحيم، فلماذا يصر عبد الله المؤمن على قراره ولايعفو عن المحروس ((عدي)) ومن بين هؤلاء الذي اخذ مساحة كبيرة من سيناريو الوساطات ((الملك الراحل حسين بن طلال)) حيث كانت تربطه علاقة وطيدة جداً بصدام بسبب تأييده له في حربه مع ايران ووقوفه مع صدام سياسياً واعلامياً وعسكرياً ودولياً، إلا أن الذي حدث هو اصرار صدام على موقفه وعدم قبوله كل الوساطات وهتافات حشد القطيع مؤكداً على ضرورة أن يشمل القانون العراقي كل العراقيين، فلا شخص في العراق فوق القانون، وبهذا تتحقق العدالة والمساواة كما تتحقق قواعد وقيم ومبادئ الشريعة الاسلامية، لاسيما وان البلد الذي حدثت فيه الحادثة يحكمه دين محمد(ص) اضافة إلى دين ((ميشيل عفلق)).

بعد أن انتهت المسيرات فلم تبق منظمة حزبية أو هيئة حكومية أو نقابية إلا وخرجت متظاهرة، كما انتهت الوساطات التي ابداها الملوك والرؤساء والمسلمين العرب، اعلنت هيئة المحكمة تفاصيل الحادثة على الشعب العراقي من اذاعة بغداد السمعية والمرئية جاء فيها:

بعد أن قامت هيئة التحقيق برئاسة وزير العدل وعضوية كبار القضاء وممثل عن المؤسسات الدينية بالتحقيق اللازم مع ((المحروس)) عدي صدام حسين، والاستفسار منه عن حيثيات الحادثة التي ادت إلى وفاة المدعو ((كامل حنا)) اتضح للهيئة أن ((المحروس)) عدي لم يكن متعمداً القتل، بل إن الذي حصل هو إن ((المحروس)) عدي تلقى من كامل حنا بعد مشاجرة بسيطة ضربه بالعصا تلقاها المحروس بيده

فارتدت العصا إلى رأس كامل حنا، مما ادى إلى ارتجاج في المخ ادت إلى وفاته، وهذا يعني إن ((المحروس)) عدي صدام حسين، كان في حالة دفاع عن النفس، وعليه قررت الهيئة القضائية المشكلة بأمر الرئيس صدام حسين ((حفظه الله ورعاه)) براءة ((المحروس)) عدي والافراج عنه فوراً.

كما قامت الهيئة القضائية بتزويد القائد الرئيس صدام حسين ((حفظه الله ورعاه)) بنص القرار الذي افهم علناً.

ذهب كامل حنا إلى مثواه الاخير مخموراً دون رجعة وخرج البريء المحروس عدي صدام من الصالة التي احتجز فيها، وعاد لمزاولة مهامه اليومية هو وحمايته بانتقاء الفتيات الجميلات وايداعهن في قصره العامر في منطقة المسبح والمسمى ((قصر المئة غرفة)) فالفتيات المختطفات بامر المحروس عدي يبقين في حالة انتظار لحين مجيء المحروس إلى القصر مخموراً ليختار من بينهن لتلك الليلة وليقوم مشكوراً ومؤيداً بروح الإسلام والعروبة بتخليص الفتيات اللواتي تم اختيارهن من عذريتهن، فما اسعد الفتاة التي تكون ضجيعة ابن عبد الله المؤمن المسلم رمز العرب وقائدهم البطل صدام حسين.

وفي هذه المناسبة احب أن احيي الشاعر الذي توصل إلى ابلغ بيت شعر سمعته في حياتي والذي يقول فيه:

قومٌ إذا صفع النعال وجوههم

شكى النعال بأي ذنب أُصفع

انها شتائم تطال الإسلام بيد من تخاف وجوههم المرايا لنكمل الحتوتة ايها القاريء الكريم ولتكون على بينة من دور وعاظ السلاطين على مر التاريخ المرسخ لسلوكيات الحاكم الجائر، قلنا أن من بين اعضاء هيئة التحقيق التي شكلها صدام حسين للتحقيق مع ابنه المحروس بالله عدي من كان يمثل المؤسسة الدينية وكان هذا الشخص يدعى ((الشيخ جلال الحنفي)) وهذا الشيخ تربطني معه صداقة متينة، وكنا نلتقي تقريباً كل يوم، والشيخ جلال الحنفي هو امام جامع الخلفاء في بغداد.

احد الايام وكالمعتاد زرت صديقي في مقره الكائن في محلة سوق الغزل في بغداد واعني به جامع الخلفاء !!، وتبادلنا الحديث ثم تطرق هو وتكلم عن دوره في هيئة التحقيق، وقال لي كنا نلتقي يومياً مع عدي صدام حسين في مكان احتجازه في احدى صالات القصر الجمهوري، وكانت الصالة مجهزة بصورة كاملة بكل وسائل الراحة وكذلك كانت تحتوي على اجهزة رياضية يستخدمها عدي لمزاولة الرياضة ومنها لعبة الطاولة والبليارد ثم استطرد قائلاً ومن خلال اللقاءات المتكررة مع عدي اتضح لدينا وبالاجماع انه بريء من التهمة الموجهة اليه، حيث كان في موقف الدفاع عن نفسه، وهذا حق مشروع لكل انسان يتعرض للخطر.

ثم تابع حديثه ليقول وبعد اكمال كل اجراءات التحقيق من قبل الهيئة القضائية المكلفة، جلسنا وكتبنا التقرير اللازم والموجه إلى الرئيس صدام حسين ((حفظه الله ورعاه)) وتضمَّن بوضوح وصراحة براءة المحروس بالله عدي صدام حسين، وبهذا طلبنا موعداً نستطيع به اللقاء

بالرئيس لتسليمه التقرير الذي توصلنا اليه، وفي غضون ايام معدودة جاءنا الرد وتبلغنا بيوم اللقاء، وفعلاً توجهنا إلى لقاء الرئيس بالموعد المقرر في القصر الجمهوري، رحب بنا الرئيس اشد الترحاب، وشكرنا على جهودنا المضنية، وشكرناه نحن بدورنا على ثقته العالية بنا، وبعد استراحة بسيطة تبادلنا من خلالها الاحاديث مع الرئيس صدام، بادرنا بالسؤال التالي: اخبروني، هل انتهيتم من التحقيق والى أي شيء توصلتم؟ وما هو القرار الذي انتهيتم اليه، وحسب الاتفاق الذي تم بيننا تكلم رئيس لجنة التحقيق القضائية وزير العدل، واخبر الرئيس بان اللجنة وبعد اكمال كافة اجراءات التحقيق مع المحروس عدي توصلت إلى قناعة تامة بان المحروس بريء من التهمة الموجهة اليه، وعليه قررنا وبالإجماع براءة المحروس عدي والافراج عنه فوراً.

سأل الرئيس ثانية: هل أن قراركم جاء بمحض ارادتكم وبصورة لايريبها الشك؟ وهل انتم على يقين بما توصلتم اليه؟ وان عدي بريء من هذه التهمة؟

كان الجواب بالاجماع: نعم سيدي الرئيس، حفظك الله ورعاك وجعلك ذخراً للامة العربية والاسلامية، فلقد كانت التهمة المنسوبة للمحروس عدي لا اساس لها من الصحة، وان عدي كما تأكد لنا كان في حالة الدفاع عن النفس، وهذا حق تقره المحاكم كما تقره الشريعة الاسلامية، فالانسان المدافع عن نفسه أو ماله أو عرضه لا جنح عليه ولا يخضع للمساءلة القانونية.

قال الرئيس: نعم اشكركم على قراركم العادل والمنصف كما اشكر

جهودكم الاستثنائية وادعوا الله أن يثبت العدل في هذا البلد بوجودكم ووجود امثالكم.

ثم سأل الرئيس: اذن هل يمكن اذاعة قراركم من خلال اجهزة الاعلام دون تحفظ؟

الجواب: نعم ايها الرئيس حفظك الله ورعاك، وسيادتكم تشاهد أن القرار موقع من قبل جميع اعضاء هيئة التحقيق دون استثناء، فكل القضاة وممثل المؤسسة الدينية لهم قناعة تامة بمضمون القرار وعدالته القانونية والاسلامية.

بعد هذا كلف الرئيس وزير العدل باذاعة القرار، من اذاعة العراق السمعية والمرئية، وضرورة نشره في الصحف كافة.

ثم عاد وسألنا الرئيس: هل فكرتم بفدية لعائلة المقتول كامل حنا، فاني لا اجد في قراركم ما يشير إلى ذلك؟

الجواب: نعم يا سيدي الرئيس، قرارنا لايتضمن اية فدية فالمقتول مسيحي، والمسيحي لا يدخل ضمن احقية الفدية.

اعترض الرئيس حفظه الله على هذا الجواب، وقال اذا كانت الشريعة الاسلامية تمنع اعطاء الفدية للمسيحي، فلنجعلها هدية، فماذا تقولون؟

الجواب: يا سيدي إن كان ولابد وجعل الفدية هدية كما تفضلتم فلتكن الهدية بمقدار ((٥٠٠٠)) خمسة آلاف دينار فقط.

اعترض الرئيس حفظه الله وقال هذا مبلغ ضئيل واني ارى رفعه إلى مبلغ قدره ((١٠٠٠٠)) عشرة آلاف دينار.

وافقنا على مقترح الرئيس، وقررنا انسجاماً مع ما طرحه الرئيس حفظه الله إن تكون الهدية ((١٠٠٠٠)) عشرة آلاف دينار.

إلا أن الذي تفاجئنا به هو طلب الرئيس والذي يتمثل بالاتي !!.

الرئيس: ايها السادة اتفقنا على ((١٠٠٠٠)) عشرة آلاف دينار، إلا أن هذا المبلغ لا املكه في الوقت الحاضر، لذلك ارجو من حضراتكم اذا كان بالامكان إن تمنحوني فرصة، استطيع من خلالها تدبير المبلغ المقرر للفدية.

سألنا الرئيس: وماهي المدة التي تطلبها؟

اجاب الرئيس: املك بيتاً عتيقاً في منطقة ((التكارته)) في الكرخ ورثته من اهلي، وسأعلنه للبيع غداً، وانتظر حتى يتم بيعه، وبعدها استطيع تسديد المبلغ لحضراتكم، واني ارى إن عملية بيع الدار لا تتجاوز الـ ((١٠)) ايام.

قلنا: سيادة الرئيس، نحن بالانتظار على أن لا تتأخر عن دفع الفدية، حتى نستطيع اكمال الاجراءات كاملة.

بدت على وجه الرئيس البهجة والسرور عندما سمع بموافقتنا على طلبه، ثم شكرنا شكراً جزيلاً على موقفنا المتسامح هذا.

بعد هذا ودعنا الرئيس وغادرنا على امل اللقاء ثانية بعد انتهاء الفترة الممنوحة لبيع الدار وتسديد مبلغ الفدية.

انتهت فترة الـ ((١٠)) ايام ولم يصلنا أي خبر من قبل الرئيس يفيد بيع البيت، وفي اليوم الثاني عشر جاءنا الخبر من السيد الرئيس حفظه

الله، أن الدار تعثر بيعه لأنه قديم جداً، ولهذا فان الرئيس يرجوكم أن تمهلوه مدة اضافية لاتتعدى الخمس ايام.

وافقنا على طلب الرئيس ((حفظه الله ورعاه)) وقبل انتهاء مدة الخمس ايا تبلغنا بالحضور إلى القصر الجمهوري للقاء السيد الرئيس حيث علمنا بعد ذلك أن الدار قد تم بيعها بمبلغ قدره ((١٣،٠٠٠)) الف دينار، وفرحنا لهذا الخبر.

تم اللقاء مع السيد الرئيس وبكامل اعضاء هيئة التحقيق واستقبلنا الرئيس بحرارة، وكان الفرح والسرور يعلوا وجهه الكريم، وبعد استراحة قليلة، تحدث الرئيس وقال: الحمد الله رب العالمين، فلقد بيع الدار بمبلغ ثلاث عشر الف دينار، فرحنا مع الرئيس وشاركناه سروره وقدمنا له التهنئة.

قال الرئيس: اخواني اعضاء الهيئة ارجو أن توافقوني على اقتراحي هذا.

تفضل سيادة الرئيس: اني ارى إن نزيد المبلغ الذي قررناه كهدية لعائلة كامل حنا المبلغ اثنا عشر الف، فان الله ساعدنا على بيع الدار باكثر مما توقعنا.

قلنا: مثل ما تريد ايها الرئيس المؤمن ادامك الله وحفظك.

قال الرئيس: وانتم تعلمون أن المبلغ المتبقي من مبلغ البيع هو الف دينار فقط.

قلنا: نعم يا سيادة الرئيس فاثني عشر الف إلى عائلة كامل حنا والباقي من المبلغ الاصلي الف دينار فقط.

قال الرئيس: لهذا اطلب من حضراتكم الموافقة على منحي هذا المبلغ المتبقي الـ ((١٠٠٠)) دينار لاتمكن من صرفه على عائلتي، فاني اصدقكم القول إن العائلة ولمدة طويلة جداً لم يتذوقوا طعم ((مرقة البامية)).

قلنا وبالاجماع: الف مبروك، فقد وافقنا على منحك المبلغ وندعو الله إن يساعدك على تمشية بعض امورك العائلية شكرنا الرئيس جزيل الشكر، وغادرنا القصر ونحن براحة نفسية عالية و اطمئنان للضمير، وسلامة موقفنا الاسلامي.

استمعت للقصة كاملة من الشيخ جلال الحنفي، وبالطبع لم اعلق أي شيء ولم اتفوه بكلمة واحدة خشية أن يظن بي ظنون بعيدة تؤدي بي إلى المصير المحتوم، فالشريعة الاسلامية واحاديث السلف الصالح المنقولة عن — عن — عن — عن — عن..! تؤكد أن من شك في اقوال ولي الامر أو كذبه أو انتقده أو اعترض عليه يموت ميتة جاهلية ويكون مصيره جهنم وبئس المصير.

اعلن قرار هيئة التحقيق القضائية على لسان رئيس الهيئة وزير العدل من خلال جميع وسائل الاعلام، وخرجت حشود القطيع تعلن بهجتها وسرورها لبراءة المحروس بالله عدي ابن الرئيس المؤمن، وامتلأت شوراع بغداد وجميع المحافظات بالمحتفلين، وزينت باحلى زينة وبأجمل الالوان، وانهالت البرقيات من كل مكان على الرئيس المؤمن تهنئه ببراءة الابن البار وعدالة قرار هيئة التحقيق القضائية.

حقيقة والحق يقال فلقد كان الرئيس المؤمن عنيداً في موقفه صلباً لم يتزعزع عنه قيد انملة بالرغم من تدخل الكثير من الملوك والرؤساء، وكان بعناده هذا ينطلق من ايمان بقيم السماء ودين محمد(ص)، والآن وقد اخذ القانون مكانه ونطق بكلماته النهائية، لايمكن للرئيس المؤمن حفظه الله ورعاه إن يعترض، وليس امامه إلا الرضوخ والقبول لامر القانون.

مضت عدة ايام على نهاية القصة، وزرت صديقي الحميم الشيخ جلال الحنفي كعادتي في مقره في جامع الخلفاء حيث هناك مكتب للشيخ ملحق بالجامع.

تبادلنا الاحاديث في مواضيع ثقافية وتراثية شتى، وبينما كنا على هذه الحال، دخل علينا اربع من الحرس الخاص، سلموا علينا ثم بعد اقل من دقيقة طلبوا الانفراد بالشيخ، وفعلاً رافقهم الشيخ واختلى بهم في مكان بعيد عني، وبعد فترة وجيزة رجع الشيخ وبيده ظرف مغلق.

بادرني الشيخ بالقول: انك الصديق الاعز، وارجو منك مساعدتي.

قلت له: تفضل يا ابا لبيد، فاني حاضر لكل مساعدة.

قال الشيخ: اقرأ الظرف فهو مرسل من قبل الرئيس حفظه الله فتحت الظرف وقرأت ما فيه، وكان يتضمن قرار الرئيس بمكافأة الشيخ جلال الحنفي بمكافئات عديدة على النحو الآتي:

- مبلغ من المال قدره (٢٥٠،٠٠٠) مائتان وخمسون الف دينار.

- سيارة يستلمها من الشركة العامة للسيارات وبالنوع الذي يرغب فيه الشيخ.

- قطعة ارض يختارها الشيخ في أي منطقة من مناطق بغداد وبمساحة ((٦٠٠ متر مربع)).

التفت إلى الشيخ جلال الحنفي، ولم اتمالك نفسي وتجرأت لأساله السؤال الاتي:

ياشيخ جلال: هل هذه المكافئات منحها الرئيس حفظه الله من مبلغ الدار الذي قام ببيعه؟

استفز سؤالي الشيخ، وقال لي، يا صديقي ارجوك انت موضع ثقتي ولا تدخلنا في متاهات ومشاكل نحن بعيدين عنها كل البعد، ولاتنسى يا صديقي أن النبي(ص) نفسه قبل الهدية.

ومرة اخرى ادخل الشيخ الرشوة في سلوك النبي(ص) دون خشية من الله ورسوله(ص)، واخذت بنصيحته وسكت.

وفي اليوم الثاني استلم الشيخ المبلغ وفي اليوم الثالث استلم السيارة وقام ببيعها إلى احد الاصدقاء، وفي اليوم الرابع بدأنا واياه بالبحث عن افضل المناطق في بغداد لاختيار القطعة التي يرغب بها، وفعلاً وبعد ايام من البحث عثرنا على القطعة المرغوب فيها وكانت في منطقة ((الصليخ – السبع آبار)) ومساحتها ٦٠٠ متر مربع.

وبعد ايام طلب مني صديقي الشيخ مرافقته إلى وزارة الاوقاف لمقابلة وزير الاوقاف، وفعلاً توجهنا سوية وقابلنا الوزير وفي هذا اللقاء

طلب الشيخ من الوزير أن تتكلف الوزارة ببناء قطعة الارض، لأنها هدية الرئيس حفظه الله، ووافق الوزير على الفور على طلب الشيخ بصفته امام جامع الخلفاء التابع إلى وزارة الاوقاف.

إن حكام العالم الاسلامي اليوم هم تعبيراً عن سياسة المدخلات فقد سار هؤلاء بنفس الاتجاه ولكنهم قطعوا اشواطاً كبيرة في مضمار الظلم والاستبداد والاستهتار بامور الناس واموالهم واعراضهم وانفسهم، وهذا يعني أن السياسة الحاضرة في العالم الاسلامي لم تكن مستوردة، بل جاءتهم جاهزة وبشكل كامل، وهذا الامتداد التاريخي من السلف والخلف يعد اساساً للفشل التاريخي للحكم والنظام الاسلامي.

وعليه نرى إن الدول الاسلامية ومن بينها بالطبع الدول العربية لا تستطيع تأسيس دولة مدنية حضارية لها فاعليتها في المجتمع الاسلامي، فلا يمكن لدولة حقيقية أن تقوم على الادعاءات وعلى قراءات تاريخية غير مقبولة انسانياً وقيمياً وحضارياً، فعلى سبيل المثال فان كرم وعطاءات الحكام في الدول الاسلامية جاء عن قراءات لما كان يعمل به الخليفة أو السلطان دون وازع أو رادع ديني أو ضميري، فيهب من يشاء ويمنع من يشاء وكأن الدولة بما فيها من موارد طبيعية أو غير طبيعية ملكاً ورثه من الآباء والاجداد.

فصدام حسين اطلع دون شك على حجم العطاءات والمكرمات والهبات التي قدمها عثمان بن عفان وغيره من خلفاء المسلمين واستعار منهم هذا السلوك الحاتمي.

في احد الايام استدعى صدام حسين جميع الشعراء الشعبيين بقصد

اللقاء بهم وتوجيههم باتجاه السياسة التي يريدها أو يرسمها، وفي يوم اللقاء نهض احد الشعراء ويدعى ((غازي ثجيل)) وهو شاعر شعبي وغير حاصل على أي تحصيل دراسي، ولانه يكثر في شعره في مدح الرئيس ((حفظه الله ورعاه)) امر الرئيس بتعيينه مديراً عاماً في وزارة الثقافة، قلنا هذا الشاعر نهض عند افتتاح اللقاء من قبل الرئيس طالباً الاذن من الرئيس بالحديث، رفض الرئيس أو الامر، إلا أن هذا الشاعر اكثر من التوسل والرجاء وأن يسمح له الرئيس بالكلام، وعند اصرار وتوسل هذا الرجل سمح له بالحديث، فتحدث قائلاً:

((يا صدام حسين انت الكعبة التي نصلي اليها)) صفق له جميع الحضور، وتوهج وجه الرئيس فرحاً وسروراً، وشكر الشاعر على هذا الطرح البليغ وامر له بمنحة كبيرة تمثلت في سيارة ((سوبر)) ومبلغ ربع مليون دينار، وهذا يعني أن هذا النكرة من الناس اصبح لديه الآن اربع سيارات سوبر واكثر من ثلاثة ملايين دينار، حصل عليها في مناسبات سابقة من الرئيس حفظه الله.

الشاعر غازي ثجيل تحصل على هذه الهدايا والمكرمات الضخمة في الوقت الذي كان الشعب العراقي يعاني الفقر والحرمان بسبب الحصار المفروض عليه، وكان راتب استاذ الجامعة لا يتجاوز ثلاث دولارات فقط.

ولتأكيد ما ذهبنا اليه من سياسة المدخلات التي رافقت الحكم الاسلامي انتجت لنا المخرجات المتشابهة نسأل السؤال الآتي:

الم يشبه موقف هذا الشاعر الذي جعل من صدام الكعبة التي يصلي اليها، موقف الحجاج بن يوسف الثقفي؟ عندما صعد المنبر وخطب الناس في الكوفة قائلاً لهم: ((ألا تركتم الطواف حول هذا الحجر البائس الناصب بين الرمال الجرداء وطفتم حول قصر امير المؤمنين عبد الملك بن مروان)) وكان الحجاج يقصد طواف الناس حول الكعبة، وهذه الجرأة على رموز الإسلام وقيمه هي نفس الجرأة التي صدرت من هذا الشاعر المنافق، فقد فضل هذا المنافق الغنائم التي تأتي من هذا الحاكم الطاغية، على دينه وآخرته، وهذا يعني بالضبط اننا نعيش نفس الزمن في عهد عثمان ومعاوية والرشيد والمتوكل وسلاطين الدولة العثمانية المتخلفة، وغيرهم من حكام التخلف والهمجية، وصدق رسول الله محمد(ص) حيث قال: ((ما ازداد رجل من السلطان قرباً إلا ازداد من الله بعداً، ولا كثرت اتباعه إلا كثرت شياطينه، ولا كثر ماله إلا اشتد حسابه))[1].

(١) انظر: احمد الهاشمي / مختار الاحاديث النبوية / ص١٤٨.

الفصل السابع

الحاكم الإسلامي وظاهرة النفاق

إن المخرجات التي افرزتها لنا المدخلات التي دخلت الدائرة الاسلامية تكيفياً لا ايمانياً صنعت لنا افواجاً لاتعد ولاتحصى من المنافقين المهرة، الذين يفوق نفاقهم منازل الشر بكل صفوفه، وبهذا تركونا نركض وراء اللامعقول من غير جدوى، كمن يركض وراء السراب.

إن الحاكم المسلم ومنذ تأسيس الدولة الاسلامية يحتاج إلى النفاق حتى يحصل على التقدير الاجتماعي الذي يفتقر اليه اساساً، لأنه جاء إلى كرسي الحكم دون أية شرعية، لذلك نراه يلجأ إلى وعاظ وفقهاء السلطة لإضفاء هذه الشرعية عليه، وهو في هذه الحالة يفتح خزائن الدولة امام هؤلاء المنافقين، كما فتحها صدام حسين امام هذا المنافق الذي تطاول وبكل وقاحة وصراحة على الكعبة المشرفة، فبدلاً من أن نرى هذا الحاكم يثور غيرة على ابرز اهم مقدسات المسلمين نراه يستجيب لها، ويكافئ قائلها مكافأة كبيرة، وهذا ليس بالغريب ولا العجيب، فهو عبد الله المؤمن وهو رمز العروبة والاسلام، فقد انشأ قواعد الإسلام وثبت اركانه يد بيد مع المؤسس المناضل ميشيل عفلق وطارق عزيز ومنيف الرزاز والياس فرح وغيرهم من الصحابة الأجلاء.

لقد وصف ((مكيا فلي)) مثل هذه المجتمعات المنافقة بقوله:

((من الممكن إن يقال بوجه عام إن الإنسان منافق سليط اللسان منكر للجميل يحب الربح ويكره الخطر، وما دمت تنفعه فهو من أتباعك اذ هو يقدم في سبيلك دمه وروحه وأمواله واطفاله... والامير الذي يعتمد على اقوالهم وحدها... يحطم، فالصداقة التي ينالها بالشراء... لا تبقى، وقد تنقلب عليه لحظة...))[1].

وهذا ما حدث فعلاً مع صدام حسين عندما رحب واستجاب لقول هذا الشاعر، المنافق، فقد مرت الايام وجاءت المخابرات العراقية بتقرير إلى صدام حسين يتضمن قصيدة طويلة للشاعر غازي ثجيل تناول فيها تاريخ أم صدام وسلوكها وتكرار زواجها والكثير من الأمور التي لايمكن قبولها وفق معيار الرجولة والشهامة، لان قيمة الرجولة تلزم الابتعاد عن مثل هذا السلوك اللاسوي، على كل حال تسلم صدام التقرير ودهش لما فيه وعادته الذاكرة إلى قول هذا الشاعر المنافق ((يا صدام انت الكعبة التي نصلي اليها)) فهل هذا التقرير ينسجم مع ذاك المدح الخارق للحدود؟

كان هذا الشاعر يظن أن ما كتبه ونظمه من الشعر لايمكن أن يصل إلى صدام حسين، لأنه كان حريصاً على اخفائه، ولم يطلع عليه إلا الثلة القليلة جداً المقربة منه.

على اية حال قرر الحاكم المسلم صدام حسين ((حفظه الله ورعاه)) باعدام هذا الشاعر ولكن بطريقة يعيد بها ما كان معمولاً به ايام

(1) Machiavelli, the prince & the Discorses, p.61.

المدخلات، حيث امر باعدامه عن طريق وضعه في التابوت بكامل ملابسه حياً ثم دفنه في ملعب الادارة المحلية في مدينته ثم نقله بعد ثلاث ايام ليرمى في مجاري الصرف الصحي، كما امر الرئيس أن يحضر جميع كوادر حزب البعث إلى الملعب ويشاهدوا باعينهم اجراءات الدفن وما بعده ليكون هذا المصير عبرة لمن تسول له نفسه النيل من الحاكم أو احد افراد اسرته.

بهذا الاجراء نرى أن صدام استفاد من مقولة ((مكيا فلي)) حيث يقول: ((إن من الصعب أن يكون الامير مهيباً ومحبوباً في آن واحد، ولو خيرت بين إن تكون مهيباً ومكروهاً أو تكون محتقراً محبوباً فالاسلم أن تختار المهابة بدلاً من المحبة... فالناس لايتورعون أن يؤذوا المحبوب، ولكنهم لايقدمون على ايذاء المهيب، فالحب عاطفة... لاتلبث أن تخمد اذا نالت مراسها.. اما المهابة فسيسندها خوف العقوبة وهذا امر لا مفر منه))[1].

اذن ظاهرة النفاق للسلطة واصحاب القرار ليست ظاهرة جديدة في المجتمع الاسلامي وخاصة العربي، بل انه ظاهرة وراثية جاءت من ايام تكوين الدولة الاسلامية أو العربية، فسلوك وتوجهات حكام المجتمعات الاسلامية والعربية دفع هذه الظاهرة لتدخل كل مفصل من مفاصل الدولة، لذلك نرى أن الشخص المنافق والذي يمتلك القدر الكافي لممارسة هذا السلوك اللاسوي يستطيع النجاح في المجتمع والحصول على الكثير من المكتسبات من السلطة، اما الشخص المغلوب على امره

(1) Machiavelli, Cit. p.62.

الذي لايعرف ممارسة مثل هذا السلوك فان النجاح لايحالفه وقد يكون شخصاً منبوذاً.

والآن نأتي لنسأل: الم ينهي الإسلام عن النفاق واعلم المنافقين بانهم في الدرك الاسفل من الجحيم؟، والناس ايضاً يتقون شر المنافق ويتجنبونه بما امكن لان النفاق في واقع الامر يكاد يجمع بين مختلف النزعات السلبية التي ظهرت في الإنسان غير السوي، فالنفاق اخذ شيئاً من الرياء وشيئا من السادية، وشيئاً من السيكوباتية، وشيئاً من المازوخية، وشيئاً من الشيزوفرنيا، والمنافق يعيش كل هذه النزعات داخله فيبلغ مرحلة متطورة من النفاق إلى انه يمارس النفاق في كل حركة تبدر منه، والناس يدينون المنافق ويتصرفون معه بغاية الحذر لانهم يدركون بانه شخص لايصدر منه الحق طرفة عين.

المنافق هو اذن كائن منبوذ في كل الاعراف والاديان وكذلك العقائد والتقاليد الاجتماعية، كما انه وفي بعض الحالات يوصف المنافق بـ ((الخيانة العظمى)) لكونه يعيش على تراب الوطن ويتشمس بشمسه وبذات اللحظة يعادي مواطنيه.

فلماذا يشجع الحاكم المسلم والعربي هذا السلوك الشاذ بين المواطنين، علماً بان هذا الحاكم الذي يدعي الإسلام على دراية تامة أن الإسلام وضع شرط الايمان كخطوة اولى دخول أي انسان كتاب المؤمنين؟.

اذن يمكن إن نخلص إلى النتيجة التي تشير إلى إن الحاكم في الدول الاسلامية والعربية بعيد كل البعد من شرط الايمان لان قلبه ونفسه

تفتقر إلى مياه الايمان المباركة، انه حاكم يتظاهر بكل اركان الايمان بالرغم من انه يعيش في قطيعة عنه، وهذا يعني انه لبس ثوب الايمان نفاقاً، فالحاكم المسلم العربي وكما هو معروف يعلن الايمان وهو في دواخله ابعد مايكون عن الايمان.

لقد اخذ النفاق في الدولة الاسلامية منذ وفاة الرسول محمد(ص) اشكالاً والواناً مختلفة، وربما ظهر في كل عهد بوجه يحقق ديمومة التاريخ السياسي للمجتمعات الاسلامية والعربية، ويمكن إن نرى الآن لوناً من الوان النفاق الذي ترسخ في مفاصل الدولة الاموية التي تدعي الإسلام وتعمل على ترسيخ قيمه.

ذكر ابن ابي الحديد إن الحجاج بن يوسف الثقفي كان يلعن ابن عم الرسول(ص) ووصيه وزوج البتول وابا الحسنين، ويأمر بلعنه، وقال له متعرض به يوماً وهو راكب: ايها الامير، إن اهلي عقوني فسموني علياً، فغير اسمي، وصلني بما أتبلغ به، فاني فقير، فقال: للطف ما توصلت به قد سميتك كذا، ووليتك العمل الفلاني فاشخص اليه[1].

وروى المسعودي في مجال النفاق والذي كان سائداً في الدول الاسلامية ومتفشياً كالوباء بين الناس قائلاً: قال الحجاج بن يوسف الثقفي يوماً لعبد الله بن هاني وهو رجل من اود في اليمن، وكان زعيماً في قومه، وقد شهد مع الحجاج مشاهده كلها، وشهد معه ضرب الكعبة بالمنجنيق وتحريقه للبيت الحرام، وكان من انصاره وشيعته:

---

(١) انظر إلى: شرح ابن ابي الحديد / الجزء الاول / ص٧٥.

((والله ما كافأناك بعد، ثم ارسل إلى اسماء ابن خارجة – وكان من فزارة – أن زوِّج عبد الله بن هاني ابنتك فقال: لا والله، ولا كرامة، فدعا له بالسياط، فقال: انا ازوجه، فزوجه، ثم بعث إلى سعيد بن قيس الهمداني رئيس اليمانية أن زوِّج عبد الله بن هاني، قال: ومن اود؟ والله لا ازوِّجه ولا كرامة، قال: هاتوا السيف، قال: دعني حتى اشاور اهلي، فشاورهم، فقالوا: زوِّجه لايقتلك هذا الفاسق، فزوجه، فقال له الحجاج: يا عبد الله، قد زوجتك بنت سيد بني فزارة، وابنة سيد همدان وعظيم كهلان، وما اود هنالك، فقال: لا تقل – اصلح الله الامير – ذلك، فان لنا مناقب ((مواقف نفاقية)) ماهي لاحد من العرب، قال: وما هذه المناقب؟ قال ما سُبَّ امير المؤمنين عثمان في نادٍ لنا قط، قال: هذه والله منقبة، قال: وشهد منا صفين مع امير المؤمنين معاوية سبعون رجلاً، وما شهد مع ابي تراب منا إلا رجل واحد، وكان والله ما علمته امرأ سوء، قال: وهذه والله منقبة، قال: وما منا احد تزوج امرأة تحب ابا تراب ولا تتولاه، قال: وهذه والله منقبة، قال: وما منا امرأة إلا نذرت إن قتل الحسين إن تنحر عشر جزائر لها، ففعلت، قال: هذه والله منقبة، قال: وما منا رجل عرض عليه شتم ابي تراب ولعنه إلا فعل، وقال: وازيدكم ابنيه الحسن والحسن وامهما فاطمة، قال: وهذه والله منقبة، قال: وما احد من العرب له من الملاحة والسباحة مالنا، فضحك الحجاج، وقال: اما هذه يا ابا هاني فدعها، وكان عبد الله بن هاني قبيحاً دميماً شديد الأدمة، مجدوراً، في رأسه عجر، مائل الشدق، احول قبيح الوجه، شديد الحول[1].

(١) انظر إلى: مروج الذهب / الجزء الثالث / ص١٤٤.

من تحليل مضمون ما قاله هذا المنافق ((عبد الله بن هاني)) فرأى انه استطاع من خبرته أن يرصد كل ابعاد شخصية امير الفساق الحجاج بن يوسف الثقفي الصريحة والضمنية، وينطلق منها لكسب رضاه والحصول له بالتالي على ما يريد، فهو يعلم هذا المنافق أن الحجاج كان من ألدّ اعداء الامام علي واهل بيته جميعاً (عليهم السلام) دون استثناء، فاخذ يرتب حديثه بحيث يغطي كل ميول واتجاهات الحجاج، هذا الفاسق الذي زوّجه تحت تهديد السيف والاجبار، فاي اسلام هذا، واي دين هذا، واي عقيدة هذه، التي تنص أن يكون الزواج بالاجبار، ومن رجل منافق، قبيح، رذيل، احول، ملأ وجهه الجدري، ومن رجل تخلى عن كل دينه وعقيدته من اجل المكاسب الدنيوية، فاي مسلم يمكنه أن يسب أو يشتم وصي رسول(ص) وابن عمه وقاتل عمر بن ود العامري والحامي لرسول الله(ص) يوم احد عندما هرب الكل، واي مسلم يمكنه أن ينال من سيف الله وفتى الإسلام الذي قال فيه الرسول الاعظم (ص) يوم خيبر عندما انهزم الجميع ولاذوا بالفرار وانكسرت راية الإسلام واقترب اليهود وحلفائهم من اعلان الانتصار.

((والله لاعطين الراية غداً رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، كرار غير فرار، يكون الفتح على يده))، واي مسلم يستطيع أن يتجاسر على سيدة نساء العالمين والتي قال فيها رسول الله(ص): ((فاطمة بضعة مني يغضب الله لغضبها ويرضى لرضاها))، فاطمة الطاهرة الزكية العالمة التي كان النبي (ص) لا يفارقها يوماً واحداً ويناديها ((أم ابيها)) انها أم الامامين الطاهرين الحسن والحسين سيدا شباب اهل الجنة.

واي مسلم يمكنه النيل من ابي الاحرار ابا عبد الله الحسين(ع) الذي قال فيه النبي الاعظم(ص): ((حسين مني وانا من حسين فمن احب حسيناً احبني، ومن احبني احبه الله، ومن بغض حسيناً ابغضني، ومن ابغضني ابغضه الله، واكبه يوم القيامة في جهنم)).

وهل نسى هذا الامير الفاسق والذي يعتبر من ابرز المدخلات التي تسللت إلى الإسلام متربصة به حتى تحقق لها ما ارادته على يد الدولة الاموية الاستبدادية القمعية الفاجرة، عدوة الله ورسوله، وعدوة الحرية والانسانية والقيم.

ولكن صدق الشاعر حين قال:

وإذا أتتك مذمة من ناقصٍ

فهي الشهادة انك كاملُ

نعم علي وزوجته وابنائه صورة كاملة، كملها الله بارادته حين ذكر: ((**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**)) سورة الأحزاب-الآية٣٣.

والناقص هذا الامير الفاجر، واذا قلنا ناقص فهو ليس من باب الغضب أو الادعاء، فابوه يوسف الثقفي الذي رفع راية الحرب على الإسلام بكل شراسة، وامه الفارعة بنت همام وهي العاهرة من ذوات الاعلام الحمر، فنعم هذا النسب ونعم هذا الانحدار العائلي، وكان حظ اهل البيت راجحاً من الله عز وجل عندما جعل الله عدوهم ومبغضهم من هذا النوع المنحط وصدقت يا رسول الله(ص)

حين قلت: ((يا علي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق))[١].

انه الرسول الاعظم (ص)، انه خاتم الانبياء، انه حبيب الله، انه سيد المرسلين، لاينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، فعن تبليغ الخالق يبلغ هذا الرسول ما اتاه من الله فاخبر وبلسان عربي فصيح يسمع القاصي والداني، المحب والمبغض، المسلم والمؤمن، العرب والعجم، بان علياً وصيه وابن عمه ودرعه وسيفه وحاميه في كل شدة ومحنة، لايحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق، كما رواه الامام علي عليه السلام، كما روته أم المؤمنين أم سلمة[٢].

---

(١) الامام علي ابن عم الرسول ابي طالب بن عبد المطلب ، ولد في جوف الكعبة ، كما رواه الحاكم في المستدرك / الجزء الثالث/ص٤٨٣ ، والمالكي في الفصول المهمة وابن المغازلي الشافعي (ت: ٤٨٣هـ) في المناقب ، الجزء الثالث / ص٧ ، والشيخلي في نور الابصار ص٩٤ ، وكانت ولادته في ((١٣ رجب)) سنة ثلاثين من عام الفيل ، وبايعه المهاجرين والانصار ، سنة ((٣٥ هـ))، وضربه اشقى الاشقياء كما اخبره بهذا النبي محمد(ص) ، اللقيط ابن ملجم المرادي الليلة التاسعة عشرة من شهر رمضان سنة ((٤٠ للهجرة)) في محراب مسجد الكوفة ، وتوفي في يوم ٢١ منه ، روى عنه اصحاب الصحاح ٥٣٤ حديثاً، راجع ترجمته في الاستيعاب واسد الغابة والاصابة وص٢٧٤ من جوامع السيرة.

وروايته في المنافقين في صحيح مسلم ٤١/١ / باب الدليل على إن حب الانصار وعلي من الايمان وبغضهم من علامات النفاق، وصحيح الترمذي ١٧٧/١٣ / بابا مناقب علي(ع) ، وسنن ابن ماجة الباب الحادي عشر من مقدمته ، وسنن النسائي ٢٧١/٢ ، باب علامة المؤمن وباب علامة المنافق ، كتاب الايمان وشرائطه ، وخصائص النسائي ص٢٨ ، ومسند احمد ٨٤/١ و ٩٥ و ١٢٨ ، وتاريخ بغداد ٢٥٥/٢ و ٤١٧/٨ ، و ٢٤٧/١٤ ، وحلية الاولياء لابي نعيم ١٨٥/٤ وقال: حديث صحيح متفق عليه ، وتاريخ الإسلام للذهبي ١٩٨/٢ ، وتاريخ ابن كثير ٣٥٤/٧ ، وبترجمته في كل من الاستيعاب ٤٤١/٢ واسد الغابة ٢٩٢/٤ وكنز العمال ١٠٥/١٥ ، والرياض النضرة ٤٨٢/٢ ، والمناقب لابن المغازي ح٢٢٥/ص١٩٠.

(٢) أم سلمة هند ابنة ابي امية المغيرة القرشي المخزومي: كانت قبل رسول الله (ص) عند ابي سلمة بن

كمار رواه ابن عم الرسول(ص) عبد الله بن عباس حبر الامة ورواه الصحابي الجليل امام العدالة الاجتماعية أبو ذر الغفاري (رضي الله عنه)[١]، وانس بن مالك[٢]، وعمران بن حصين[٣]، وكان ذلك شائعاً ومشهوراً في عصر رسول الله(ص).

قال أبو ذر: ما كنا نعرف المنافقين إلا بتكذيبهم الله ورسوله والتخلف عن الصلوات والبغض لعلي بن ابي طالب(ع)[٤].

عبد الاسد المخزومي اسلما قديماً وهاجرا إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، ولما جرح ابو سلمة باحد وتوفى سنة ثلاث من الهجرة ، تزوجها رسول الله(ص) وكانت صبية وتوفيت بعد قتل الامام الحسين عليه السلام سنة احدى وستين ، روى عنها اصحاب الصحاح ٣٧٨ حديثاً ، راجع ترجمتها وترجمة زوجها باسد الغابة ، وجوامع السيرة ، ص٢٧٤ ، وتقريب التهذيب ، ٤١٧/٢ ، وحديثها في شأن المنافقين في سنن الترمذي ١٤٨/١٣ ، ومسند احمد ٢٩٢/٤ ، والاستيعاب ٤٤٠/٢ ، بطرق متعددة ، تاريخ ابن كثر ٣٥٤/٧ ، وكنز العمال ط/الاولى/ ، ١٥٨/٤.

(١) أبو ذر جندب أو برير بن جنادة أو عبد الله أو السكن أو غير ذلك: تقدم اسلامه وتأخرت هجرته ، فشهد ما بعد بدر من غزوات رسول الله(ص) ، توفي منفياً بالربذة بامر عثمان بن عفان، وباشراف مروان بن الحكم بن العاص طريد رسول الله (ص) سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة ، روى عنه اصحاب الصحاح ٢٨١ حديثاً ، ترجمته في التقريب ٤٢٠/٢ ، وجوامع السيرة ص٢٧٧.

(٢) انس بن مالك بن النضر الانصاري الخزرجي: روى هو انه خدم النبي عشر سنين ، كان يخلق ذراعه بخلوق للمعة بياض كانت به ، وكان ذلك من دعاء الامام علي (ع) عليه لكتمانه الشهادة بحديث الغدير أن يضربه الله بيضاء لاتواريها العمامة ، اشار اليه في الاعلاق النفيسة ص١٢٢ ، وتفصيله بشرح نهج البلاغة ٣٨٨/٤ ، وتوفي في البصرة بعد التسعين ، روى عنه اصحاب الصحاح ٢٢٨٤ حديثاً ، ترجمته باسد الغابة والتقريب وجوامع السيرة ص٢٧٤ ، وروايته في شأن المنافقين بكنز العمال / الطبعة الاولى/ ١٤٠/٧.

(٣) ابو نجيد عمران بن حصين الخزاعي الكعبي: اسلم عام خيبر ، وصحب الرسول (ص) وقضى بالكوفة ، وتوفي بالبصرة سنة ٥٢ ، روي عنه اصحاب الصحاح ١٨٠ حديثاً ، وروايته بشأن المنافقين بكنز العمال / الطبعة الاولى ١٤٠/٧ ، ترجمته في التقريب ٧٢/٢ ، وجوامع السيرة ص٢٧٧.

(٤) مستدرك الصحيحين ١٢٩/٣ ، وكنز العمال ٩١/١٥.

وقال ابو سعيد الخدري: إنا كنا لنعرف المنافقين – معاشر الانصار – ببغضهم علي بن ابي طالب(ع)[١].

وقال عبد الله بن عباس: إنا كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله (ص) ببغضهم علي بن ابي طالب(ع)[٢].

وقال جابر بن عبد الله الانصاري: ما كنا نعرف المنافقين إلا ببغض علي ابن ابي طالب(ع)[٣].

لهذا كله ولقول رسول الله(ص) في حق الامام علي(ع): ((اللهم والِ من والاه وعادِ من عاده))[٤].

---

(١) ابو سعيد بن مالك بن سنان الخزرجي الخدري: شهد الخندق وما بعدها ، مات بالمدينة سنة ثلاث أو اربع أو خمس وستين وقيل سنة اربع وسبعين ، روى عنه اصحاب الصحاح ١١٧٠ حديثاً ، ترجمته باسد الغابة ٢٨٩/٢ ، والتقريب ٢٨٩/١ ، وجوامع السيرة ٢٧٤ ، وحديثه في شأن المنافقين في صحيح الترمذي ١٤٧/١٣ ، وحلية ابي نعيم ٢٨٤/٤.

(٢) عبد الله ابن عم النبي(ص) العباس بن عبد المطلب ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، وتوفي سنة ثمان وستين بالطائف ، وروي عنه اصحاب الصحاح ١٤٤٠ حديثاً ، ترجمته باسد الغابة والاصابة ، وجوامع السيرة ص٢٧٤.

(٣) جابر بن عبد الله بن عمرو الانصاري السلمي: صحابي ابن صحابي ، شهد بيعة العقبة مع ابيه ، وشهد ١٧ غزوة مع النبي(ص) وصفين مع الامام علي(ع) ومات بالمدينة بعد السبعين ، روى عنه اصحاب الصحاح ١٥٤٠ حديثاً ، ترجمته باسد الغابة ٢٥٤/١-٢٥٧ ، والتقريب ١٢٢/١ ، وجوامع السيرة ص٢٧٤ ، وروايته في شأن المنافقين في الاستيعاب ٤٤٤/٢ ، والرياض النضرة ٢٨٤/٢ ، وفي تاريخ الذهبي ١٩٨/٢ ، ولفظه (ما كنا نعرف منافقي هذه الامة..)) وفي مجمع الزوائد ١٣٣/٩ ، ولفظه: ((ما كنا نعرف منافقينا معشر الانصار..)).

(٤) سنن الترمذي ١٤٥/١٣ باب مناقب علي (ع) ، وسنن ابن ماجة باب فضل علي / الحديث المرقم ١١٤ ، وخصائص النسائي ص٤ و ص٣٠ ، ومسند احمد (٨٤/١) و (٨٨) و (١٨١) و (١١٩) ، (١٥٢) و (٣٣٠) و (٢٨١/٤) و (٣٧٠) و (٣٧٢) و (٣٠٧/٥) و (٣٤٧) و (٣٥٠) و (٣٥٨) و (٣٥٨) و (٣٤١) و (٣٤٤) و (٤١٩) و (٥٤٨) ، ومستدرك الصحيحين (٢٩/٢) و (٩/٣)، والرياض النضرة (٢٢٢/٢٠-٢٢٥) ، وتاريخ بغداد (٣٧٧/٧) و (٢٩٠/٨) و(٣٤٣/١٢).

وقوله (ص): ((علي مع الحق والحق مع علي)).

يكون كل من حكم ويحكم المجتمعات الاسلامية منافق واذا كان المجتمع يقوده منافق فلنتصور مستقبل مثل هذا المجتمع قبل حاضره، وبالتأكيد لا جلال فيه هو مجتمع ظلامي في سلوكه وفي مواقفه، فالنبي محمد(ص) يقول عن شخصية المنافق: ((آية المنافق ثلاث: إن تحدث كذب، وإن وعد اخلف، وإن أؤتمن خان)).

وكلام رسول الله (ص) يعني كلامه فصلاً يفهمه كل من يملك عقل، إن المجتمع الذي يحكمه منافق يعني يحكمه شخصاً لا يصدق ولا يؤتمن، وانه وفي كل سياساته يكون مخادعاً لشعبه أو رعيته.

يؤكد ما ذهبنا اليه قول الله تعالى في فئة المنافقين: ((لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصداً لاَّتَّبَعُوكَ وَلَـكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)) سورة التوبة- الآية٤٢.

حتى قال: ((لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ من قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاء الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ{٤٨} وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ{٤٩})) سورة التوبة.

وقال الله تعالى: ((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)) سورة الحشر- الآية١١.

دخلت ((المدخلات)) الدائرة الاسلامية، وشكلت خلايا نائمة، وهي التي شكلت مجموعة المنافقين، إلا إن هذه الخلايا حجم تحركها في عهد النبي(ص) فلم يكن لسلوكها تأثيراً فعالاً هذا اذا علمنا إن اهل الايمان في زمن النبي لهم ثقلهم ودورهم ومتابعة كل صغيرة وكبيرة حرصاً منهم على لحمة الإسلام وتماسكها ولاسيما إن الإسلام كان في المهد، هذا من جانب ومن جانب آخر فان المدخلات التي اندست في الإسلام كانت تخشى الفئة المؤمنة وتتحاشى الصراع أو الاصطدام معها منطلقين في سلوكهم هذا من ايمانهم بالمثل الذي يقول ((من صبر ظفر)) إلا انه ومع ذلك فاننا نرى الساحة الاسلامية في عهد الرسول الاعظم (ص) شهدت بعض مشاهد أو مواقف الصراع مع المدخلات النافعة، وبلغت المواجهة بين اهل الايمان والمدخلات ((المنافقين)) حداً انزل الله فيه سورة من القرآن حملت اسم ((المنافقين)) وبدأ اهل الايمان الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه يطاردون المنافقين ويطردهم من المساجد، فعندما رأى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن هذه الظاهرة تفاقمت وتسربت إلى بيوت الله، وذات يوم رأى اناساً منهم يتحدثون خافضي اصواتهم وقد لصق بعضهم ببعض، أمر بطردهم في الحال.

فقام ابو ايوب خالد بن زيد بن كليب إلى عمر بن قيس احد ابناء بني غنم بن مالك بن النجار – صاحب آلهتهم في الجاهلية – فاخذ برجله فسحبه حتى اخرجه من المسجد وهو يقول: اتخرجني يا ابا ايوب من مربد بني ثعلبة؟!.

ثم اقبل ابو ايوب ايضاً إلى رافع بن وديعة، احد بني النجار فلبسه بردائه ثم نتره نتراً شديداً، ولطم وجهه ثم اخرجه من المسجد وابو ايوب يقول له: اف لك منافقاً خبيثاً، ادراجك يا منافق من مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقام عمارة بن حزم إلى زيد بن عمرو وكان رجلاً طويل اللحية، فأخذ بلحيته فقاده بها قوداً عنيفاً حتى اخرجه من المسجد، فقال: خدشتني يا عمارة، قال: ابعدك الله يا منافق، فما اعد الله لك من العذاب اشد من ذلك، فلا تقربن مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقام ابو محمد مسعود بن النجار إلى قيس بن عمرو بن سهيل، وكان قيس غلاماً شاباً، وكان لايعلم في المنافقين شاباً غيره، فجعل يدفع في قفاه حتى اخرجه من المسجد، وقام رجل من بلحدرة بن الخزرج، رهط ابي سعد الخدري يقال له عبد الله بن الحارث إلى رجل يقال له الحارث بن عمر، وكان ذا جمة، فأخذ بجمته فسحبه بها سحباً على ما مر به من الارض حتى اخرجه من المسجد، فقال: لقد اغلظت يا بن الحارث، اجابه ابن الحارث، انك اهل لذلك، أي عدو الله لما انزل الله فيك فلا تقربن مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فانك نجس[1].

قال الله: ((**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ{٨} يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ{٩}**)) سورة البقرة.

(١) انظر إلى: سيرة ابن هشام ج٢ / ص١٣٦-١٣٧ / ط٢ / دار الحديث / القاهرة – ١٩٩٨.

ويقول: ((وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ)) سورة البقرة- الآية ١١.

ويقول الله فيهم: ((وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ{١٣} وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ{١٤})) سورة البقرة، ويصفهم الله وقد ضرب بهم مثلاً: ((مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ)) سورة البقرة– الاية١٧.

هكذا اكد الله تعالى على خطورة السلوك النفاقي، وانه يشكل خطراً على مسيرة الدعوة الاسلامية، فهذا السلوك اللاسوي كمثل جسد فسد فيه عضو خفي لبث يصدر الفساد حتى اتى على كامل الاعضاء، لايمد المنافق خطورة لافساد غيره قبل أن يكون قد مدها لافساد نفسه، لان النفس السوية الصالحة لاتنجح في مهمة افساد غيرها قبل أن يتحقق فيها فساد، لذلك ينهي الله تعالى الناس عن النفاق حتى لايكونوا منافقين، فالنفاق سلوكاً خطراً، خطراً في المراوغة، وخطراً في ازدواج الشخصية، وخطراً في الغموض، لذلك فان المنافق يعتبر ضمن المقاييس القيمة اخطر بكثير من الكافر، لان الكافر في حقيقة الامر هو شخص واضح، اما المنافق فهو شخص مشوه للحقيقة ويعتمد في مهمته على التردد إلى الاماكن الآهلة بالسكان ليجعل الفساد صلاحاً والصلاح فساداً، والايمان سفهاً، والمؤمنين سفهاء، وياتي المؤمنين بوجه يرضيهم، وياتي الكافرين

بوجه يرضيهم، فاخبر الله تعالى بان هؤلاء هم الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، وانهم الصم عن سمع ما ذكرهم الله به، والبكم عن الكلام بالحق، العمي عن النظر في آيات الله.

من هنا يمكن القول أن الإسلام اختار طريقاً سوياً للانسانية خالية من المفاهيم والقيم المتناقضة، وخالياً من السلوكيات والاتجاهات والممارسات الشاذة، فلا نفاق، ولا كذب، ولا احتيال، ولا اعتداء.

الإسلام نظام قيمي متكامل جاء بنشر السلم في الناس، واي مكان يحقق للناس هذا النظام يكون بيتاً من بيوت الله، واي مكان يفرق الناس ويدعوهم إلى التهلكة والعداوة والبغضاء يكون بيتاً من بيوت الشيطان، لقد الف الله بين قلوب الناس برسالة الإسلام وجعلهم بنعمته اخواناً.

في كل الاتجاهات تأتي الاديان لتعزز حالة الانسانية في الإنسان تجعله يشرق بنور انسانيته على ذاته وعلى العالم، والاسلام هو دين الإنسان منذ بدء الخليقة، لكنه يأتي عبر رسل وازمان وظروف، وباشكال ولغات مختلفة على اختلاف الناس، لقد كان الإنسان بحاجة إلى الإسلام فانزله الله عليه خيراً وسلاماً ورحمة ليس للمسلمين فحسب بل للعالم كافة، ولكل مخلوق خلقه الله، فيمكن لشخص ما أن يكف اذاه عن انسان أو عن حيوان أو عن نبات من خلفية الإسلام، ولا يمكن لهذا الشخص أن يلحق الاذى بكائن إلا اذا خرج عن تعاليم الإسلام، ففي اللحظة التي يعتدي فيها على حقوق الآخرين سيكون قد ناقض تعاليم دينه حتى لو كان في بين من بيوت العبادة، وعندها سيفقد بيت الله هذا

خصوصيته الاسلامية، وينزع الله منه نوره لأنه ما عاد يؤدي مهمته في نفع الناس وما عاد بيتاً من بيوت الله وقد انطفأ في نوره.

لو درسنا التاريخ الاسلامي لوجدنا كم من المنافقين اعدت وهيأت المدخلات وكم من الجهد صرفت في سبيل هدم الإسلام من الداخل، فالدخيل من هذه المدخلات يبدأ سيره في الحركة الاسلامية فرداً عادياً يسعى وراء الخير والصلاح كما يسعى أي مسلم، وقد تبدر منه في يوم من الايام حركة يكتشف من خلالها امره، فيسقط إلا أن رفاقه يتابعون المسيرة بنوع من الحذر ويشاء الحظ أن كثيراً من هؤلاء ((المدخلات)) ينجحون في مهمتهم ويحصلون على ثقة الناس مما يسهل عليهم الاندماج في ذات المجتمع المستهدف.

إن الاخطر في هذا الموضوع أن يدخل الدخيل من هؤلاء الذين دخلوا الإسلام لتغيير جادته والنيل منه في حالة نجاح مهمته التآمرية التكيفية فنرى الناس السذج والبسطاء يتهافتون عليه ويهيمون بحبه ويذوبون فيه وهو من جانبه يشعر بانه قد اصبح رمزاً حياً لهؤلاء الناس فهو لايحس بوجوده غريباً منفرداً، اذ يدخل الناس في صميم حساباته ويصيرون جزءاً لا يتجزأ من آلياتها التي يستخدمها لتحقيق اهدافه.

قال الدرامي: اخبرنا الحكم بن المبارك أنبأنا عمر بن يحيى قال: سمعت ابي يحدث ابيه قال، كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة فاذا خرج مشينا معه إلى المسجد، وبعد فترة قليلة خرج علينا ابو عبد الرحمن، فسأله ابي: يا ابا عبد الرحمن اني رأيت في المسجد آنفا امراًانكرته ولم أرد والحمد لله إلا خيراً، قال: ما هو؟ قال:

أن عشت فستراه، قال: رأيت في المسجد قوماً حلقاً جلوساً ينتظرون الصلاة في كل حلقة رجل وفي ايديهم حصى فيقول كبروا مئة فيكبرون مئة، فيقول هللوا مئة فيهللون مئة، ويقول: سبحوا مئة فيسبحون مئة، قال: فماذا قلت لهم؟ قلت: ما قلت لهم شياً انتظار رأيك وامرك، قال: افلا آمرهم أن يعدوا سيئاتهم وضمنت لهم ألا يضيع حسناتهم شيء..؟ ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة من تلك الحلقات فوقف عليهم فقال: ما هذا الذي اراكم تصنعون؟ قالوا: يا ابا عبد الرحمن حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح، قال: فعدوا سيئاتكم فانا ضامن من أن لايضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا امة محمد ما اسرع هلكتكم، هؤلاء صحابة نبيكم (صلى الله عليه وآله وسلم) متوافرون، وهذه ثيابه لم تبل، وآنيته لم تكسر، والذي نفسي بيده انكم لعلى ملة هي ما اردنا إلا الخير.

قال وكم من مريد للخير لن يصيبه، إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حدثنا أن قوماً يقرؤون القرآن لا يتجاوز تراقيهم، وايم الله لعل اكثرهم منكم، ثم تولى عنهم فقال عمرو بن سلمة: رأينا عامة أولئك الحلق يطاعنوننا يوم النهروان مع الخوارج، اجل كان هذا شعار كل دخيل من المدخلات، ادخل في حلقات حشد القطيع واغلق اجفانهم، ثم انتقل إلى غيرهم واغلق اجفانهم، هكذا ينخر الإسلام من داخله، فالمنافق من فئة ((المدخلات)) يفرض على حشد القطيع هيمنته، فيغرس في نفوسهم الثقة، فنراه يقول لهم: كبروا فيكبرون، سبحوا فيسبحون، بهذا يتمكن هذا المنافق من شل كل عناصر الاستقلال لدى

هؤلاء، ويحيطهم بعالم من الغيبيات والمخاوف حتى يتحقق الهدف والمتمثل في خلق حشد من الخرفان عاجز عن التحليل والنقد وعاجز عن التصدي فهو حشد يفتقر إلى الحس النقدي والتفكير العقلائي، ومن هنا بدأت مأساة الإسلام، ومن هنا بدأ انحراف الإسلام، ومن هنا بدأ الإسلام ينتقل من ثورة إلى ملك، ومن رحمة إلى سطوة.

اذن هي عملية خصاء ذهني، خصاء لايسمح للانسان المستهدف أن يعمل فكره، أن يقارن، أن يحلل، أن يتخذ موقفاً شخصياً، أن يختار، خصاء لايسمح له أن يكون كائناً مستقلاً ذا ارادة حرة، وبالتالي يقع ضحية لعدة من عمليات القمع والقهر، انها العمليات السائدة بعد عملية الاخصاء، فبعد أن يخضع الإنسان لعملية الاخصاء الذهني ينقل بعد هذا ليعيش الارهاب حتى لا يكون امامه فرصة للعودة إلى ما كان يعتقد به أو انه يفكر بالعودة، وعليه في هذه الحالة أن لا يرى سوى نموذج الملقن والرضوخ لتعليماته ومعتقداته.

اذن نجد أن من اهم الآليات التي تستخدمها المدخلات ((المنافقون)) تتمثل بـ ((الجبرية)) فعن طريق الجبرية يفقد العقل سيادته نظراً لتحكم التسلط في نفسية الإنسان من جماعة حشد القطيع، وبهذا فاذا قيل له أن لله يدين ووجه ورأس كسائر البشر إلا انها اكبر حجماً، عليه أن لا يجادل أو يناقش بل عليه أن يصدق، واذا قيل له إن باب الجنة سبعمائة ذراعاً فعليه أن يصدق، انها الجبرية التي اخضع لها وتعمق في ممارستها، فلا رجعة إلى السوية، والبقاء بما يمليه المنافق.

المدخلات سياسة اختطها المنافقون لنفسهم والتزموا اشد الالتزام بها، اذا وزنها الفاحص المتربص اعوزه أن يتلمس لها المعاذير وإن كان لا يعوزه أن يقدر دوافعها الخبيثة ونتائجها فلا يخطيء في التقدير، ولمن غابت عنه هذه السياسة التي بدأت مسيرتها منذ قيام الدعوة الاسلامية، ومنذ أن نادى محمداً(ص) ((لا اله إلا الله)) ومنذ أن حطم محمد(ص) الاصنام، ومنذ أن اذل محمد(ص) طغاة القوم، ومنذ أن ساوى محمد(ص) بين الناس، وان الاكرم هو الاتقى، فلا حسب ولا نسب ولا جاه، انه الإسلام، انها الدعوة الانسانية الجريئة التي اقتحمت اوكار الظلم والفساد والاستبداد، ولكن هذه الجرأة مثلت على الانذار للمنافقين، وعليه فان عليهم أ يجتروا الالم ولا ينسوا الانتقام، لتبقى الاسبقية عالقة بهم دون غيرهم.

اجل هذا هو ما اتفق عليه المنافقون ((المدخلات)) وسيرى محمد واصحابه إلى أي صورة سينتهي اليه الإسلام، وبهذا بدأ هؤلاء ببث سمومهم في نفوس الناس واحداً بعد واحداً، حتى مضى حقدهم إلى رائدة إلى جمهرة كبيرة من البهائم يلوذون بهم ويضموهم إلى صفوفهم، ويشجعوهم على رفع اصواتهم ولكن بلسان الإسلام حتى تأتي ساعة التأثر من محمد ودينه.

اقبل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى نزل بذي اوان بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار، وكان اصحاب مسجد الضرار قد كانوا اتوه وهو يتجهز إلى ((تبوك)) فقالوا: يا رسول الله، انا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، واننا نحب أن تأتينا

فتصلي لنا فيه، فقال: ((اني على جناح سفر وحال شغل)) أو كما قال (صلى الله عليه وآله وسلم): ((ولو قد قدمنا إن شاء الله لاتيناكم، فصلينا لكم فيه))، فلما نزل بذي أوان، اتاه خبر المسجد، فدعا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مالك بن الدخشم، اخا بني سالم ابن عوف، ومعن بن عدي، أو اخاه عاصم بن عدي، أخا بني العجلان، فقال: ((انطلقا إلى المسجد الظالم اهله، فاهدماه واحرقاه)) فخرجا سريعين حتى اتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: انظرني حتى اضرج اليك بنار من اهلي، فدخل إلى اهله، فاخذ سعفاً من النخل، فاشعل فيه ناراً، ثم خرجا يتشهدان حتى دخلاه، وفيه اهله، فحرقاه وهدماه، وتفرقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل ((وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ)) سورة التوبة- آلاية١٠٧.[1]

تدلنا هذه الحادثة على نوع ألآليات التي كانت تستخدم من قبل المدخلات فلولا إخبار الله نبيه الاعظم (ص) بخبر هذا المسجد الذي اتخذ مقراً للتآمر والتفرقة والنفاق لنجح المنافقون في سعيهم، كما تدلنا هذه الحادثة على الخطر الشديد الذي يشكله هؤلاء، فهم يقومون بادوار تتصف باعلى درجات الاحتيال وتتصف بعقلية خاصة.

وقد واجه الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) حشوداً من هؤلاء ((المدخلات)) الذين يتزينون بزي الإسلام، ويبنون المساجد في سبيل تحقيق الفتنة والفرقة بين الناس، يصف الامام هذه الفرق بقوله:

(١) انظر إلى: ابن كثير في تفسيره ١٣٩/٤ ، والشوكاني في فتح الغدير ٥٦٨/٢.

((اخلاكم دقاق، وعهدكم شقاق، ودينكم نفاق، وماؤكم زعاق، والمقيم بين اظهركم مرتهن بذنبه، والشاخص عنكم متدارك برحمة من ربه، كأني بمسجدكم كجؤجؤ سفينة قد بعث الله عليها العذاب من فوقها ومن تحتها وغرق من في ضمنها.

ويصف الامام علي عليه السلام الذي يفتي لهؤلاء:

((قد سماه أشباه الناس عالماً وليس به، جلس بين الناس قاضياً ضامناً لتخليص ما التبس على غيره، فان نزلت به احدى المبهمات هيأ لها حشواً رثاً من رأيه، ثم قطع به، فهو في لبس الشبهات في مثل نسج العنكبوت لايدري اصاب أم اخطأ، فان اصاب خاف أن يكون قد أخطأ وان اخطأ رجا أن يكون قد اصاب.[1] .

وعن حذيفة قال: كان الناس يسألون رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الخير وانا اسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت يا رسول الله انا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟

قال المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم): نعم، فقلت: وهل بعد هذا الشر من خير؟ قال: ((نعم وفيه دخن)) قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يستنون بغير سنتي و يستهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر، قلت: فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم فتنة عمياء ودعاة على ابواب جهنم من اجابهم اليها قذفوه فيها، قلت: يا رسول الله صفهم لنا، قال:

(١) انظر إلى: نهج البلاغة / ج ١ / ط ٢ / دار الاندلس – بيروت / ١٩٦٣.

((قوم من جلدتنا ويتكلمون بالسنتنا)) قلت يا رسول الله ما تأمرني إن ادركت ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وامامهم، قلت: فان يكن لهم جماعة ولا امام؟ قال فاعتزل تلك الفرق كلها ولو إن تقض على اصل شجرة حتى يأتيك الموت وانت على ذلك)).

يتضح من هذا إن المدخلات التي دخلت دائرة الإسلام سوف يكون لها مخرجات كثيرة، وهذه المخرجات سوف تلعب أدوارا خبيثة مدفوعة بأهداف من شأنها القضاء على جوهر الإسلام ونظامه القيمي وتوجهاته الانسانية، والعودة به إلى يد المترفين ودعاة الظلم والاستبداد وتسطيح وتهميش قيمة الإنسان، يقول القرآن: ((**وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ {٢٣} قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ {٢٤}**)) سورة الزخرف.

نعم انها الحقيقة، دخلوا الإسلام افواجاً افواجاً، ولكن من باب التآمر عليه، ليعيدوا دين آباءهم واجدادهم، فليس امامهم طريق سوى طريق التكيف والنفاق وبهذا الطريق يجسد هؤلاء مبدأ ((الانحناء امام العاصفة حتى تمر)) فان مرت فذاك يوم الحساب وتصفية الأمور، اما مشكلة الكثرة من الجياع والفقراء والمضطهدين الذين دعموا الإسلام وساهموا في نجاحه وتقوية اركانه، فهؤلاء قطيع ينعقون مع كل ناعق، والتاريخ يحدثنا انهم قوم أو جماعة غالباً ما تهزم امام المال والسيف، فكم من امام وكم من مجاهد وكم من مناضل وكم من قائد تفرقت عنه هذه الجماعات امام مغريات الحياة أو حد السيف وبقى وحيداً لا ناصر ولا

معين، لهذا نرى أن الظالم أو الحاكم الجائر لا يستطيع أن يظلم أو يطغى بمجرد رغبة تبدو منه، انه يطغى حين لا يرى مانعاً فعلياً يمنعه من الطغيان، فالوليد بن عبد الملك لم يكن قادراً على قول خطبته يوم استخلافه لو كان يعلم أن بين هذه البهائم من يرد عليه، لذلك قال: ((أيها الناس، من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه، ومن سكت مات بدائه))[١].

اما والد هذا الخليفة ((عبد الملك بن مروان)) فقد سبقه باتخاذ هذا المنهج والتعامل مع حشد القطيع حيث يقول في خطبة له في المدينة، دون أي اكتراث بهذه المدينة المقدسة التي تضم ثرى سيد المرسلين وخاتم النبيين وحبيب الله محمد(ص): ألا واني لا اداوي هذه الامة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم، والله لا يأمرني احد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه.[٢].

وفي موقف آخر سأل عبد الملك بن مروان سعيد بن المسيب: يا ابا محمد صرت أعمل الخير فلا اسر به وأعمل الشر فلا اساء به.

فقال له سعيد بن المسيب: الآن تكامل فيك موت القلب.

إذن لا عجب أن نرى اصحاب المبادئ والقيم والمواقف وهم يتساقطون الواحد تلو الآخر على مذبح العدالة والحرية، والجماهير الخرفانية تتفرج عليهم، بل وقد تهتف وتصفق لقتلهم على ايدي

(١) انظر إلى: الطبري.

(٢) انظر إلى: ابن الاثير – باب موت القلب.

المنافقين والظلمة وهم يعلمون أن هؤلاء الذين عجز الظالم أو الجائر أن يثني عزائمهم أو يروضها باموالـه مهمـا بلغـت هـذه العـروض، قـدموا انفسهم وضحوا بارواحهم دفاعاً عنهم وعن حقوقهم وعن كرامتهم.

ومن هنا يمكن القول أن ظاهرة النفاق التـي لازمـت ظهـور الـدعوة الاسلامية شكلت ومنذ البداية الخطـر الاكبـر علـى الإسـلام واصـحاب الإسلام ورجال الإسلام، كما أن المنافقين في تحركهم التآمري هذا كانوا على علم بسر الطبيعة البدوية، ويعلمـون انهـا ضـعيفة جـداً امـام المـال والجنس والسيف، فمن اراد المال اعطيناه، ومن اراد الجنس متعناه، ومن اراد السيف قطعنا رأسه.

انه منهج وبرنامج سياسي لم يتغير ولم يعدل إلى يومنا هـذا، لـذلك نرى أن الله عز وجل ولخطورة هؤلاء المنافقون وخطـورة ادوارهـم فـي تمزيق الصف الاسلامي والعبث في نظامه خـص المنـافقين بـسورة فـي كتابه العزيز يقول فيها: ((**إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّـكَ لَرَسُـولُ اللَّه وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُـولُهُ وَاللَّـهُ يَـشْهَدُ إِنَّ الْمُنَـافِقِينَ لَكَـاذِبُونَ {١} اتَّخَذُوا أَيْمَـانَهُمْ جُنَّـةً فَـصَدُّوا عَـن سَـبِيلِ اللَّـه إِنَّهُـمْ سَـاء مَـا كَـانُوا يَعْمَلُونَ {٢} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُـوا ثُـمَّ كَفَـرُوا فَطُبِـعَ عَلَـى قُلُـوبِهِمْ فَهُـمْ لا يَفْقَهُونَ {٣} وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُـوا تَـسْمَعْ لِقَـوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُـمُ الْعَـدُوُّ فَاحْـذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ {٤} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّه لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْـتَهُمْ يَـصُدُّونَ وَهُـم مُّـسْتَكْبِرُونَ {٥} سَـوَاء عَلَـيْهِمْ**

أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ{٦} هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ{٧} يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ{٨} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ{٩} وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ{١٠} وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ{١١})).

المنافقون اتخذوا نوعين من الإستراتيجية، الاولى نفذت قبل فتح مكة، أي في بداية الدعوة الاسلامية، والثانية بعد فتح مكة.

إن الاستراتيجية الاولى لها آلياتها وخططها تمثلت في استخدام كل اسلحة المقاومة، فذهبت قريش اولاً إلى ابي طالب رأس بني هاشم وقتذاك كي ينهي ابن اخيه عن الدعوة أو تسليمهم اياه للتخلص منه، سعى وفد يضم عشرة من رجالهم مرتين[1].

(١) عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، ابو سفيان ابن حرب بن امية بن عبد شمس ، العاص بن هشام بن الحارث بن اسد بن عبد العزى بن قصي ، الاسود بن المطلب بن اسد بن عبد العزى ، الوليد بن المغيرة ، وابو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة من بني مخزوم شيبة وقتيبة ابنا الحجاج بن عامر من بني سعد ، العاص بن وائل من بني سهم. ((انظر: ابن هشام / ٢٦٧/١)).

قالوا له في المرة الاولى: ((يا ابا طالب إن ابن اخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه احلامنا وضلل آباءنا، فاما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه، فانك على مثل ما نحن عليه، من خلافه فنكفيه)).

واذا كان ابو طالب قد رد رداً جميلاً وقال لهم قولاً رقيقاً فانصرفوا عنه وقد علموا أنه يحدب على ابن اخيه ويقوم دونه، فان قريشاً التي مثلت الطرف المعادي الشرس للدعوة الاسلامية.

جاءت في المرة الثانية تهدد بالعداء واستخدام السلاح، اذ قالوا: ((يا ابا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وانا قد استنهيناك عن ابن اخيك فلم تنه عنا، وانا واللاة والعزى ما نصبر على هذا من شتم آباءنا وتسفيه احلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله واياك في ذلك، وجد ابا طالب نفسه بين امرين كلاهما خطير وصعب على نفسه، عداء القوم أو خذلان ابن اخيه وتسليمه للقتل.

فذهب إلى الرسول الاعظم (ص) يخبره بهذا التهديد العدائي ويرجوه أن ينظر في امر هذا التهديد وكان رد الرسول (ص) قاطعاً حازماً بقوله:

((يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن اترك هذا الامر، حتى يظهره أو اهلك فيه، ما تركته))[1].

السلام عليك يا رسول الله وعلى موقفك، وعلى عظمتك وعلى شجاعتك، وعلى صدقك وعلى صلابة ايمانك، ايمانك بعدالة رسالتك

(١) انظر إلى: ابن هشام ، ٢٦٦/١-٢٦٨ ، وكذلك ابن الاثير ٤٢/٢.

الانسانية، ايمانك بالحقيقة فالحقيقة كل لا يتجزأ، وما دامت رسالتك الاسلامية تمثل الحقيقة فلا يمكن المساومة على تجزئتها، لذلك قدمت يا رسول الله نفسك في سبيل هذه الحقيقة السماوية.

هذا الموقف المبدئي الذي اتخذه سيد البشر وخاتم الانبياء النبي محمد(ص) دفع شريف القوم للفخر بان اخيه والاعتزاز به والتمسك بما يدعوا اليه البشرية لخير الدنيا وألآخرة وليقول له: ((اذهب يا ابن اخي، فقل ما احببت فوالله لا اسلمك لشيء ابداً)).

الفصل الثامن

وقفة تحليلية

وعثمان دلل أقرباءه وانعم عليهم وفضلهم على غيرهم في الوظائف والمواقع[١]، بصورة علنية مما ادى إلى إن يشيع خبره في الناس وتتناقله الافواه، ثم اكتفى فقط بطرح المبررات الشرعية لسلوكياته واعماله، فكان يجد في تحيزه لاقرباءه سلوكاً مماثلاً لسلوك ابو بكر وعمر من قبله، حيث قالوا له: إن ابا بكر وعمر لم يتحيزا لاقاربهما كما تحيزت، فاجابهم قائلاً: انهما منعا قرابتهما ابتغاء وجه الله، وأنا اعطي قرابتي ابتغاء وجه الله[٢].

من هنا يبدأ تزييف وتحريف الشريعة الاسلامية، فالشريعة تؤكد على أن يكفل الحاكم العدالة والحرية للجميع، والمتغير الجديد يؤكد على التحيز للاقارب حتى وان كانوا من اعداء الإسلام ومحاربيه، اشكالية تحتاج إلى وقفة طويلة، اشكالية ترتبط بالفكر في عملية تأثير وتأثر متبادل، هذا الارتباط هو الاساس الذي بنيت عليه الدول الاسلامية المتعاقبة، فهذه الدول التي انتهجت الاضداد والتخلف والاستبداد والظلم والتمييز الاجتماعي والعرفي ملازمة لجانبها التاريخي، فخلقت جواً من الحكم بعيد كل البعد عن ارادة الإنسان، هذه الدول تجاهلت انسانية الإنسان وتجاهلت علاقة الإنسان بالسماء، فانكار الإنسان أو تجاهله

(١) انظر إلى: سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام / ص١٩١.

(٢) انظر إلى: نفس المصدر السابق.

يعني انكار وتجاهل خالقه لذلك تؤكد لنا الخبرة التي قدمها لنا التاريخ انه لايمكن حدوث أي تغيير في نظام الحكم في المجتمعات الاسلامية ومنها المجتمعات العربية بالطبع فالدولة الاسلامية الاولى هي في لحمة مع الدولة الاسلامية الثانية والثالثة والرابعة وهكذا..، انها تشكل حلقات للممارسة السياسية، ومثل هذه الدول، لايمكن أن تأتي من فراغ في انتاج المجتمع القطيعي الذي يسمح بتأسيسها وديمومتها قيمياً وسياسياً وتشريعياً أو رمزياً، وهذا يعني أن أي نظام مهما كانت طبيعته ومقوماته مجتمع. فالدولة الانسانية الانتاجية الفاضلة نظام يتطلب كي يصبح سلطة قبول الآخرين ورضاهم والدولة التي تعتمد الهيمنة والاستغلال والاضطهاد كذلك تتطلب كي تصبح سلطة مجتمع يقبل بها ويساندها ولا يدخل معها في صراع.

اذن فلا سلطة إلا وتنتسب إلى مجتمع، ولا مجتمع إلا وينتسب إلى ثقافة ولا ثقافة إلا وتنتسب إلى معرفة، وهذه المعادلة تجعل القول بالشكل المنسجم أن المجتمع العرباني مجتمع لا يمارس المعرفة، لذلك فهو متدني الثقافة، وعليه لابد له من سلطة أو حكم يتوافق مع ابعاد شخصيته ((الطاعة لكل من غلب)) لذلك نرى هذا المجتمع ينتقل من حكم استبدادي جائر إلى حكم اكثر ظلماً وجوراً وهكذا إلى يومنا هذا.

وبهذا فان اللامبالاة التي ابداها عثمان من تبذير اموال المسلمين وبأشكال وحجج مختلفة ومتنوعة مروراً بتعيين الولاة ممن هدر النبي(ص) دمائهم إلى مطاردة الصحابة من اصحاب المبادئ والمواقف، اعتمدت اساساً على تحليل مضمون الشخصية العبرانية الخرفانية ذلك أن

كل ما تحتاجه هذه الشخصية هو السوط وتركها جائعة تلهث طول الوقت وبدون هوادة للحصول على ما تجود به يد السلطان، فتتحول بهذا الإنسان العرباني إلى كائن بيولوجي ((عديم اللون والرائحة والطعم)) فلا فعالية سياسية، ولا فعالية نقدية، ولا فعالية احتجاجية تميزه كانسان، لذلك لا يعنيه من يحكم ولا كيف يحكم مجسداً القول المأثور المتداول في الوسط العرباني: ((اللهم ابعد عنا الحاكم والحكيم)).

ومن هنا يكون الهدف الاساسي التي تسعى السلطة في مثل هذا المجتمع لتحقيقة هو ابعاد الفرد عن السياسة كي يتحول إلى كائن مجرد، غير محدد بزمان أو مكان، كائن لايتعامل مع الملموس، كائن تتأطر حياته ضمن قفص اشباع الحاجات البيولوجية ((الطعام – الجنس)) اما ما يجري على أرض الواقع فلا علاقة له به.

من هنا نرى وبشكل صريح أن عثمان منح زوج ابنته يوم عرسه مائتي الف درهم، فجاء خازن بيت المال، زيد بن ارقم يحتج على ذلك باكياً ويسأله أن يعفيه عن عمله، فقال له عثمان مستغرباً: أتبكي يا ابن ارقم إن وصلت رحمي؟.. فاجاب الخازن قائلاً: ((لا يا امير المؤمنين، ولكن ابكي لاني اظنك اخذت هذا المال عوضاً عما كنت انفقته في سبيل الله في حياة رسول الله(ص)، والله لو اعطيته مائة درهم لكان كثيراً)).

فغضب عثمان من هذا القول، وقال له: ((الق بالمفاتيح يا أبن ارقم فانا سنجد غيرك))[1].

(١) نفس المصدر السابق / ص١٩٠-١٩١.

اظن أن ابن الارقم قد نسى دوره، ونسى أنه من الرعية، وأن لهذه الرعية راعي، والراعي والرعية مفاهيم استعيرت من عملية الراعي لخرفانه، وهذا يعني أن على الخرفان أن تكون خرساء وهي اساسا خرساء، والخرفان عندما يسوقها الراعي للحقل لا تعترض ولا تتكلم ولا تسأل، وعندما يسوقها إلى المذبح كذلك لا تعترض و لا تسأل، فلماذا بادر ابن الارقم بسؤاله هذا وتجاوز دوره؟ هل اعتقد أنه لازال في زمن النبي(ص) وانه يعيش القيم والمبادئ السماوية التي جاء بها الإسلام؟ نظن ذلك، واننا مع الخليفة عثمان في عزلة، وطرده من عمله حتى يكون عبرة لمن اعتبر، واذا كرر فعلته هذه أو فعلها غيره فهناك من يؤدبه ويرجع له صوابه، هناك مروان بن الحكم، صاحب الختم ومدير ادارة الدولة الاسلامية وهذا الموقع من حقه، فالاقربون اولى بالمعروف كما يؤكد الإسلام ومروان ابن عم الحاكم وهو اولى بالحكم وبهذا يكون الخليفة قد اصاب في تطبيقه للشريعة الاسلامية.

اما قول زيد لعثمان أنك اخذت هذا المال عوضاً عما كنت انفقته في سبيل الله في حياة الرسول(ص)، فهذا جهل حقيقي في السياسة، فزيد بن الارقم لم يطلع على استراتيجية المدخلات والمخرجات، ولو كان اطلع لعلم أن اموال عثمان كانت بمثابة دين أو وديعة، وجاء اليوم الذي يسترد دينه أو وديعته، وعلى ابن الارقم أن يعلم ايضاً أن هذا الدين أو هذه الوديعة لها فوائد وارباح، وبما أن المدة كانت طويلة كانت الارباح والفوائد مضاعفة، وعليه استرد عثمان الودائع مع فوائدها وهذا حق تؤيده وتسانده المؤسسات المالية جميعاً ونحن بدورنا نحتفظ بحقنا في السؤال:

نحن نعلم وغيرنا يعلم أن الحقيقة لا تقبل الاحتمالية ولا تحتمل الوسطية ولا تحتمل الضبابية ولا تحتمل التجزئة، فالحقيقة تمثل الكلية اذن، فكيف نفسر كلمة عثمان بان المنح والعطاء للاقارب والتحيز لهم حلال وجائز شرعياً، وأن المنع في نفس الوقت هو حلال ومقبول اسلامياً، اين تكمن الحقيقة هل في مفهوم العطاء أو في مفهوم المنع، فالحقيقة بابعادها الاجرائية المعيارية تتطلب جواباً محدداً اما ((ابيض)) واما ((اسود)) ولا مكان للون الرمادي في حدود الحقيقة، لان اللون الرمادي هو اساساً ينتمي إلى فئة السراق المتجاوزين على حقوق الآخرين فهو سرق البياض من اللون الابيض، وسرق السواد من اللون الاسود، ليحصل بالتالي إلى غنيمة سرقته المتمثلة باللون الرمادي.

من هنا وبناءاً على المحددات القياسية لمفهوم الحقيقة نكون امام قرارين، اما أن يكون قرار ابو بكر وعمر صحيحاً ويمثل الحقيقة واما أن يكون قرار عثمان صحيحاً ويمثل الحقيقة، واذا افترضنا أن قرار عثمان هو الحقيقة، فهذا يعني أن سرقة ونهب اموال الشعوب من قبل الحكام والرؤساء والامراء والسلاطين الحالمة ولا زالت تحكم المجتمعات الاسلامية هو سلوك اسلامي وتقره الشريعة ولا غبار على صحته، وعلينا نحن الشعوب أن نبارك حكامنا ورؤساءنا على نهبهم وسرقتهم لاموالنا، كما علينا أن نبارك عطاءاتهم السخية لحاشيتهم ووعاظ وفقهاء البلاط، ولا ننسى ايضاً أن نبارك رعايتهم الخاصة والمتميزة للآلاف المؤلفة من الجواري.

انها الشخصية البدوية التي لبست ثوب الإسلام واستعارت لسانه،

هذه الشخصية السطحية لا تستطيع أن ترتقي إلى سمو وقيم والاسلام ولا تستطيع اتباع تعاليمه ومبادئه عملياً، فذلك يناقض ما نشأت عليه واعتادت عليه من عادات بدوية، عادات منزوعة اصلاً من كل مقومات الحضارة والثقافة والقيم التطورية.

وصف الامام علي بن أبي طالب (عليه السلام) هذه الشخصية في عهده قائلاً: ((واعلموا انكم صرتم بعد الهجرة اعراباً وبعد الموالاة احزاباً، ما تتعلقون من الإسلام إلا باسمه، ولا تعرفون من الايمان إلا رسمه، تقولون – العار ولا النار – كأنكم تريدون أن تكفئوا الإسلام على وجهه)).

وعلي بن ابي طالب هذا الذي ينتمي إلى البيت الذي اذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيراً، لم يكن حاكماً بالمعنى المألوف بين الناس، انه تعلم الثورة على الباطل من ابن عمه الرسول الاعظم(ص) لذلك كان ثائراً على اللامعقول وظل ثائرا حتى استشهاده (عليه السلام)، ولكن راية ثورته لم تسقط بعد استشهاده، فقد رفعها بعده اصحاب المبادئ، اصحاب الايمان، تلامذة الرسول(ص) وحواريه، امثال عمار بن ياسر وحجر بن عدي والمقداد وأبو ذر الغفاري وغيرهم.. لذلك نرى ابا ذر الثائر بدت له في المدينة – عقب نفيه اليها – في ثوب دمشق، متبرجة كالصنم في يوم عيده... لم يكد يحس فيه براحة النفس التي تمناها، بل سريعاً عاوده شعور الرفض والاستنكار وهو جوس دروبها تماماً كما كانت حالة من قبل وهو يذرع طرقات حاضرة الشام ويجأر فيها بصيحاته، ما ترك الجنوب اذن للشمال منقصة لم يباره فيها، لا ولا

مزحة!.. وهؤلاء الرجال الذين طالما شد آباءهم على بطونهم حجارة – تأسياً برسول الله – لقهر الجوع، قد اصبحوا يخطرون الآن في مصبغات الديباج مصعرين الخدود شامخين بالانف، ولا يأبه احدهم أن يطأ في خبلاته أخاً له في الدين القاه الطوى على الثرى وآذاه الجوع.. يا رحمة الله !.. هذه امة، بفضل ايمانها المبني على نكران الذات، دان لها العالم المترف ورجالها في أسمال، فما لها اليوم تدين بشريعة المال وتعو لسلطان الشهوات والملذات.

أبو ذر الغفاري: لماذا هذا الاستغراب عما رأيته في مدينة الرسول الاعظم(ص) فلقد تحول الإسلام بعد وفاة النبي محمد(ص) إلى نشاط دعائي وخطاب سياسي، تكرسه المدخلات التي دخلت الإسلام تكيفاً، لقد سقط الغطاء عند اول اختبار حقيقي، انهار التكيف، وانكشف المخفي واخليت الساحة لموجة من الاختراق الصريح والمستتر لقيم الإسلام وما جاء به من شرائع وتعاليم.

و لا بأس ونحن بصدد هذا الاختراق أن نتملى صوراً من اختراق المدخلات لحصن الإسلام المتين:

كتب المنصور يوماً إلى ((سوار بن عبد الله)) قاضيه على البصرة[1]، انظر الارض التي تخاصم فيها فلان القائد وفلان التاجر، فادفعها إلى القائد))! فكتب اليه سوار: ((إن البينة قد قامت عندي انها للتاجر، فلست اخرجها من يده إلا ببينة)).

(١) سوار بن عبد الله العنبري ((ت ٢٥٤)) ، عالم بالفقه والحديث ، وله شعر ، سكن بغداد – وولي بها قضاء الرصافة أيضا.

فكتب اليه المنصور: ((والله الذي لا اله إلا هو لتدفعها إلى القائد)).

فكتب اليه سوار: ((والله الذي لا اله إلا هو لا اخرجها من يد التاجر إلا بحق))!

بعدها استدعي القاضي إلى ديوان المنصور ليقف موقف الند للند، واثناء المحاورة عطس المنصور، فلم يُشَمِّتْه سوار، فسأله المنصور: ((عطست فلم تُشمِّتني...؟)).

فقال سوار: لانك لم تحمد الله !

فقال المنصور: ولكني حمدته في قلبي.

فقال سوار: وأنا شمَّتُّك في قلبي !!![1].

إننا من خلال هذا المثال لا نجد سمة مشتركة بين القاضي سوار وبين المنصور أو بينه وبين عثمان أو بينه وبين معاوية وغيره من خلفاء المسلمين الذي تعاقبوا على الحكم بعد وفاة الرسول(ص) لذلك يمكن أن نتساءل : الم يكون اجدر بالمنصور أو عثمان أو معاوية أم يكون سوار الذي طبق العدل وانصف المظلوم بالرغم من وقوف الحاكم مع الظالم.

لقد برزت الفئة الثائرة منذ أن غاب الرسول(ص) امثال هذا القاضي وغيره، إن هذه الفئة تجد سمة مشتركة فيما بينها هي تلك القضية الكبرى التي تتعلق بالخالق والمخلوق، وقد برزت هذه الفئة المكافحة المضحية في مواضع مختلفة من الدولة الاسلامية، وكانت تضع في كل

(١) تشمِّتني: لم تقل لي يرحمك الله أو غفر الله لك وما يماثلها.

موضع ركائز حول مفاهيم العدل والحرية والمساواة كي لا يكون هناك انحراف عن رسالة محمد(ص) وخطابه الانساني، وكان دون منازع ذلك القلب الذي هو من ابرز افراد هذه الفئة أنه أبو ذر الغفاري هذا الثائر الذي ارتقى بالنفس بمرتبة عالية واستبصر بعقله الذي زاده وضوحاً وغمر قلبه بالايمان وطهر نفسه بفيض الاشراق السماوي، فاندفع بمعرفة الحق وسمو الرسالة التي آمن بها ليميز لكل من يسمعه ويصغي إلى ندائه بين الحق والباطل، بين الإسلام والايمان، بين التكيف والقناعة، بين انسان الرسالة وانسان الغابة، ومن خلال هذا التمييز ينبثق كل شيء، ينبثق لذاته وبذاته وفي ذاته.

الذي يعنيناهنا هو وباختصار الاجابة عن الاسئلة الآتية:

((هل استجاب المجتمع العربي الاسلامي لرؤية ابا ذر؟)).

((وهل اقتنع المجتمع العربي الاسلامي أن اطروحات ابا ذر تمثل الصورة الكلية للرسالة المحمدية السماوية؟)).

((وهل ادرك المجتمع العربي الاسلامي أن اطروحات ابا ذر تمثل الاساس والتحديد المعياري لمعنى الإسلام؟)).

((وهل استوعب المجتمع العربي والاسلامي أن ما يطرحه ابا ذر يمثل المعرفة اليقينية للاسلام؟ لأنها معرفة بالجواهر والجواهر غير متغيرة، خلاف الاعراض التي تتغير وتتبدل تبعاً للظرف والشرط والحال والزمان والمكان؟.

اذا كانت الاجابات بالنفي فاننا اذن امام مشكلة عسيرة الحل، بل ربما

تكون مستعصية على الحل، وربما تظل مستعصية على، فالاسلام بهذه القاعدة الاجتماعية المخترقة المتلونة الخنوعة المستسلمة للواقع لايمكن أن يكون طريقاً للاشراق والتقدم ومن هنا ومن خلال هذه النتيجة المأساوية تحول الإسلام إلى حالة استثنائية، فتعاليمه وقيمه وقوانينه اصبحت لا تطبق بعد وفاة الرسول(ص) إلا عليه، ونتائجه غير ملزمة إلا لاصحابه، وهنا ظهرت ضرورة انطلاقية يمكن أن تحدد لنا تحديداً اجرائياً بين مفهوم الإسلام ومفهوم الايمان، فالاسلام كمفهوم مجرد يعني المعرفة بالاسلام والاطلاع على ما ورد فيه من نظم وقواعد وقوانين، اما الإسلام كمفهوم ايمان ينبغي المعرفة بالاسلام والتقيد بما ورد فيه من نظم وقواعد، والفرق بين المفهوم الاول والثاني، أن الاول يمثل المعرفة بالاسلام دون وجوب الالتزام بنتائجه، أما الثاني فيمثل المعرفة بالاسلام مع وجوب الالتزام بنتائجه، ومن هنا اصبح مفهوم الايمان اعلى درجات سلم الإسلام وارقاها وبهذا فان تحديد أبو ذر لمفهوم الإسلام بالشرط اللازم ابعده كل البعد عن الروح المطاطة التي اضفاها غيره على مفهوم الإسلام، لذلك اضطر أبو ذر تعزيز تحديده وتعريفه لمفهوم الإسلام بالسلوك والذي نجده في كل صراعاته مع الفئات التي دخلت الدين من باب الإسلام لامن باب الايمان، فتعريف الإسلام بمفهوم الايمان يكفي للوقوف معه والدفاع عن قيمه وتعاليمه ومبادئه، لذلك لا يمكن النظر إلى مواقف هذا الثائر المسلم الايماني على انها وجهة نظر يمكن أن يقابلها وجهة نظر اخرى، فالإيمان يقوم تأسيساً على منظومة اوليات تنقسم إلى قسمين اولهما: البداهات التي تتوافق عليها كل مبادئ وتعاليم الشريعة الاسلامية، وثانيهما المسلّمات التي يختص بها مفهوم الإسلام

كمنظومة ثابتة خاصة به تبنى عليه كل سلوكيات وتوجهات المسلم لتكون بالتالي برهاناً على أنه مسلم ومؤمن.

ومن الجدير بالاشارة اليه هنا هو أن الالزام بنتائج الإسلام لايعني الالزام التعسفي أو القسري، فنتائج الإسلام والالتزام بها والتي تعني مفهوم الايمان كما اشرنا هي نتائج ملزمة للعقول بقوة الالزام ذاتها، ويكون ذلك تاماً غير مشروط اذا تم التسليم بنسق المسلَّمات، أي أن الالزام الذي اشرنا اليه يفقد سلطته اذا تم رفض نسق المسلَّمات، ولكن لا يجوز أن يكون الرفض من أجل الرفض كما يفعله وعاظ السلاطين وفقهاء البلاط، فهذا النوع من الرفض هو عبث من أجل غاية ضمنية، لان مسلَّمات الإسلام عامة لها من قوة الالزام ما يفرض على رافضها تقديم البديل الذي يمكن التسليم به بما يمتلكه من تماسك وقوة وكفاية، والا فان الرفض مرفوض.

فعلى سبيل المثال فان موقف ابو جعفر المنصور مع القائد الظالم وتحيزه له ودفع القاضي أن يحكم بالجور هو خروجاً على مسلَّمات الإسلام واذا كان المنصور يرفض قانون العدالة الذي جاء به الإسلام فعليه أن يأتي بالبديل، واذا عجز عن ايجاد البديل فرفضه للعدالة مرفوض، والبديل الصحيح الذي ينسجم مع مسلَّمات الإسلام هو موقف القاضي الذي طالب المنصور أن يأتي صاحبه بالبينة وإلا فان الحق يكون بجانب التاجر، ومن هنا حسمت مسلَّمة الإسلام الجدل بين مفهومين متناقضين ((مفهوم العدالة ومفهوم الظلم)).

كذلك فان نداء ابا ذر الغفاري ((بهذه الآية الكريمة)):

((وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)) سورة التوبة – الآية٣٤.

بمثل مسلَّمة من مسلَّمات الإسلام، والمعترض عليها، عليه أن يأتي بالبديل، واذا لم يقدر على طرح البديل، فان منح عثمان بن عفان المد والهدايا والعطاءات من بيت مال المسلمين هو رفض للمسلَّمة الاسلامية، وبالتالي فهو عمل مرفوض.

لقد اخذ أبو ذر طريقاً غير طريق ((التكيف)) وغير طريق ((المتفرج)) فلقد ادرك معنى الإسلام الايماني فادرك معنى الدفاع عنه والتضحية في سبيله، فعندما رأى أبو ذر الدولة والدين يسيران في اتجاهين متعاكسين، اختار موقف الاحتجاج والرفض.

كان معاوية بن ابي سفيان يبني داره الخضراء فمر به أبو ذر، وبدلاً من أن يبارك أبو ذر معاوية في تلك الدار ويدعو لها بطول البقاء، هتف في وجه معاوية قائلاً:

من اين لك هذا؟

ثم أخذ أبو ذر يسأل معاوية قائلاً:

((إن كنت انما بنيتها من مال المسلمين فهي الخيانة، وان كنت انما بنيتها من مالك فانما هو السرف))[1].

اعترض أبو ذر حين رأى معاوية يبني لنفسه داراً، واعتبر ذلك من سرفاً أو خيانة، ولست ادري ماذا كان أبو ذر صانعاً لو رأى قصور حكام

(١) انظر إلى: طه حسين / الفتنة الكبرى ج٢ / ص٢٠٤-٢٠٥.

الدول الاسلامية ورأى مستوى البذخ والترف والتبذير الذي صار مضرباً للشرق والغرب.

يقول أبو ذر الغفاري:

((عجبت لمن لا يجد القوت في بيته كيف لا يخرج شاهراً سيفه))[١].

ويقول أبو ذر ايضاً:

((اذا ذهب الفقر إلى بلد قال له الكفر: خذني معك))[٢].

إن الفجوة الواسعة التي شخصها أبو ذر بين اغلبية الناس والفئة القليلة الحافة بالحاكم الاسلامي، جعلته يدرك إن البناء الذي ارسى دعائمه نبي الرحمة(ص) بدأ يتآكل وينهار على يد من حارب الإسلام ووقف بوجه الدعوة الاسلامية، فخرج صارخاً يعلن الرفض، إلا إن هذا الرفض لاقى مقاومة شديدة من قبل الاغنياء واصحاب الحظوة والحاشية، كما قاوموا محمداً (ص) صاحب الرسالة من قبل واحسب أن النبي(ص) كان يدرك بثاقب بصره ما سوف يحدث بعده.

يروي البخاري في صحيحه عن ابي هريرة أن النبي(ص) قال: ((يرد عليَّ يوم القوم رهط من اصحابي فيحلأون عن الحوض، فاقول: يارب اصحابي، فيقول: انك لا علم لك بما احدثوا بعدك.. إنهم ارتدوا على اعقابهم القهقرى))[٣].

---

(١) انظر إلى: خالد محمد خالد ، من هنا نبدأ / ص١٠٠.

(٢) انظر: نفس المصدر السابق / ص٦٤.

(٣) انظر إلى: صحيح البخاري / باب الحوض / الجزء الرابع.

لقد شهد المجتمع الاسلامي بعد وفاة النبي(ص) صراعاً سياسياً بين مختلف الفئات والطبقات فكانت هناك طبقة تعيش بالثراء الفاحش وجلهم من الصحابة، وطبقة كادحة دخلت الإسلام عن ايمان صادق، ففي هذه الظروف تنمو الافكار وتتطور الاتجاهات التي تقف موقف التضاد مع قواعد وقيم الإسلام التي تتعارض اساساً مع طموحات الثراء والغنى والسلطة، وقد اشار احد المؤرخون إلى مظاهر تلك الحياة قائلاً:

((لقد صارت الامانة خيانة والذكاء سفهاً والعدالة عداوة والانسانية جفاء وانعكست آداب الخلق جميعاً بسبب هذا العالم البخيل فكل عاقل انتحى زاوية، وكل فاضل قد صار مبتلى بداهية))[1].

هذه الظروف جعلت الفئة القليلة جداً التي آمنت بالاسلام منهجاً وعقيدة ومبدأ تقاتل بالموقف والكلمة علها تعيد للاسلام مكانته القيمة والانسانية والروحية كما كانت ايام النبي محمد(ص).

إن هذه الفئة الثائرة تكافح لترجع الإسلام إلى ما كان عليه في الفترات الاولى، يريد هؤلاء احقاق الحق، واشاعة العدالة، والمساواة وترسيخ مفهوم التعاون بين المجتمع، فلا ظلم ولا استقلال، ولا قمع، ولا تمييز، فالكل متساوون، فلا سيد ولا مسود، ولا عبد ولا حر، ولا عربي ولا اعجمي، إلا إن هذا المنطق المبدئي لم يجد آذان تسمعه، بل هو منطق سخيف طبقاً للكثير من المدخلات التي دخلت الإسلام تكيفاً، إن كل حركة مهما كانت هذه الحركة دينية، اجتماعية، سياسية، اقتصادية، لا

(١) انظر إلى: جورج مرداق / مصدر سابق / ص١٩٦.

تكاد تنجح حتى تفشل اذا استطاعت فئة المدخلات اختراقها، وقد اشار إلى هذا القانون عمر بن الخطاب حين شبه الإسلام بالبعير، فهو ينمو في اول الامر ثم يناله الهرم والفند أخيراً.

يقول عمر: ((إلا اني قد سننت الإسلام سن البعير، يبدأ فيكون جذعاً ثم ثنياً ثم رباعياً ثم سدياً بازلاً، ألا فهل ينتظر بالبازل ألا النقصان ! ألا فان الإسلام قد بزل...))[1].

لذلك يمكن القول إن المدخلات هي بمثابة القبر الذي يدفن فيه المبدأ، لذلك نرى أن المدخلات التي دخلت دائرة الإسلام استطاعت أن تغير مسار الإسلام من مكافحة الظلم والترف والتعالي والعنصرية القبلية في ايام النبي محمد(ص) إلى ترسيخ للظلم والترف والنهب وجمع الغنائم من الذهب والفضة والجواري.

لقد ادرك النبي(ص) خطورة هذه المدخلات فأكد وفي اكثر من موقع غربة الإسلام فيما بعد وادرك إن الإسلام بعده مقبل على النزول بعد صوده، وانه سيصبح دولة كسائر الدول، تجبى لها الاموال وتحشد في سبيلها الجنود وتضرب من اجلها السياط على ظهور الفقراء المستضعفين والمستعبدين من الناس.

يقول ابن عم الرسول (ص) ووصيه الامام علي بن ابي طالب(ع):

((من ملك استأثر))، وهذه كلمة بليغة تشير إلى ما كان الإسلام مقبلاً عليه من استئثار وطغيان، فقد نشأت في الإسلام الملكية الكبيرة

(١) انظر إلى: طه حسين ، مصدر سابق / ص٧٩.

وكثر العبيد وظهرت طبقة ثرية تفوق ما كان عليه اغنياء واثرياء قريش قبل الإسلام من ثراء وترف ونعيم.

الذي نريد أن نؤكده هنا، أن فئة المدخلات التي دخلت الإسلام تكيفاً، وضعت ضمن استراتيجياتها الاعتماد على فقهاء ووعاظ الدينار.

إن وعاظ البلاط لابد لهم من قانون يبررون من خلاله تجاوزات الحاكم الجائر أو الفئة الارستقراطية المستغلة، ومن ابرز هذه القوانين وأخطرها يتمثل في قانون ((الثبات)) والذي يعني إن الحَسنْ سيبقى حَسنْ على الدوام وان القبيح يبقى قبيحاً إلى يوم القيامة، ولاجَل تحقيق هذا الهدف عمدوا إلى الاحاديث المدسوسة والمزورة ونسبوها إلى الرسول (ص) منها على سبيل المثال ((خيركم في الجاهلية خيركم في الإسلام)) وعلى هذا الاساس يكون الإسلام امتداد لحياة الجاهلية واذا كان امتداداً فلماذا جاء؟ اليس من الاحسن أن يبقى الخير على حاله ما دام هو خيراً؟ اليس تغيير الخير يدخل في العمل العبثي؟ نعم هذه حقيقة، فاذا كان الخير لا يتبدل والقبيح لا يتغير فلماذا الإسلام؟ ولماذا الدعوة، ولماذا هذا الكفاح والنضال؟ انها لغة وعاظ السلاطين، وعاظ الدينار، انها لغة السلاطين وبالتالي فهي لغة المعتوهين والمجانين، فالحسن في نظر المنطق والقانون الاجتماعي لايبقى حسناً إلى الابد، إنه في حركة وتغير مستمر، فما كان حسناً بالامس قد يصبح اليوم قبيحاً.

إن المنطق الاجتماعي يدعى ((منطق التناقض)) فكل شيء يحمل نقيضه في صميم تكوينه، وهو لا يكاد ينمو حتى ينمو نقيضه معه[1].

(1) Elliott, Social Disorganization, p.6.

يريد وعاظ البلاط والسلاطين منا أن نبارك اطروحاتهم وفتاويهم، يريد هؤلاء الدخلاء أن ننظر إلى الإسلام كحركة ثابتة لا حركة قابلة للتغيير أو التبديل أو التطوير، وهذا رأي يتعارض اساساً مع ما تحدث به رسول الإسلام (ص)، فهذا الرسول العظيم جاء للناس بحركة اجتماعية قيمية روحية كبرى، وهو يعلم أن التاريخ يسير بحركات وخطوات متتابعة، فلابد اذن أن تعقب خطوته خطوات اخرى على توالي الاجيال من غير توقف.

كان النبي محمد(ص) يصرح بان الإسلام سيرجع غريباً كما بدأ أول مرة، وكان يقول لاصحابه بانهم سيتبعون سنن من كان قبلهم من الامم حذو النعل للنعل، وانهم سينقلبون بعده وهو كان في أواخر ايامه يتوقع ظهور الفتن والانحراف عن مبادئ الدين.

اشتكى النبي(ص) ذات ليلة من الارق وذلك في بدء مرضه الذي توفي فيه(ص). فخرج إلى المقابر خارج المدينة مع خادمه أبو مويهبة، ولما وقف بين المقابر قال يخاطب اهلها: ((السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنئ لكم ما اصبحتم فيه مما اصبح الناس فيه، اقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها اولها، الآخرة شر من الاولى)).

وعندما اشتد بالنبي (ص) المرض خرج إلى المسجد معصوب الرأس متوكئاً على الامام علي(ع) والفضل بن العباس فوقف في الناس خطيباً رافعاً صوته حتى سمعه من كان خارج المسجد وقال: ((ايها الناس، سعرت النار واقبلت الفتن كقطع الليل المظلم..)).

إن هذا التوقع الذي ابداه النبي لم يأت من فراغ، فهو يعلم علم اليقين أن الإسلام قد اخترق من الكثير من المدخلات التكيفية التي لاتؤمن بالاسلام اساساً، فالنبي(ص) قد تنبأ بهذا المسار المنحرف من بعده وهو في موقف الانتصار والاسلام في اوج عزه وكبريائه، فالجزيرة العربية آنذاك اذعنت له كلها ودخل الناس في دين الحق الإسلام افواجاً افواجاً، ومن هنا نسأل: ماهي المؤشرات التي دفعت النبي(ص) إلى هذا التشاؤم؟.

انه بشر مثلكم يوحى اليه، لذلك فان ما ينطق به النبي لم يكن من منطلق الخيال والاحتمال أو التوقع، انها الحقيقة التي يعلمها والتي اخبر بها من قبل السماء، فهذا الرسول العظيم لاينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فالله يعلم ما في الصدور، الله يعلم الاعداد الكبيرة التي دخلت دائرة الإسلام لتتربص به، ولتنتظر ساعة الصفر للنيل منه والانتقام من مؤسسه، انها استراتيجية المدخلات والمخرجات، وهذه المدخلات كانت تعلم أن الأمور سترجع في نهاية المطاف اليها.

مشروع استراتيجية المدخلات للقضاء على الإسلام وقيمه كانت حاضرة في ذهن اصحابها منذ بدأ الإسلام بالانتشار والانتصار، وقد اعد هؤلاء العدة لهذا المشروع ضمن رؤية كلية، وآفاق لها آلياتها المدروسة التي تخدم الهدف الكبير، فكل استراتيجية لها قواعدها الضابطة وآلياتها المنفذة وشروط انجازها.

لقد حارب النبي محمد(ص) اغنياء قريش وحارب معهم الربا والاستغلال والاستعباد والرق، ونجح في القضاء على ذلك إلى حد بعيد،

وقد امر في سنيه الاخيرة أن تصادر جميع الاموال التي استثمرت في الربا حيث لم يبق في ايدي اصحابها إلا رؤوس اموالهم التي بدأوا بها اعمالهم في أول الامر.

إلا أن الذي حدث بعد النبي محمد (ص) إن المدخلات اغرت وشجعت على الغنى والترف وجمع وتكديس الاموال وحب الثراء، لقد عاد هؤلاء إلى شخصيتهم البدوية التي ليس لها منهجاً في الحياة سوى اشباع المعدة وتفريغ ما تحتويه اللذة الجنسية، فحرية الفرد وكرامته وامنه مفاهيم لاتفهمها ولا تستوعبها هذه الشخصية المفلطحة.

العدالة الاجتماعية التي اكد عليها الإسلام في اكثر من سورة في القرآن الكريم تمثل شرطاً لكل من آمن بالله واليوم الآخر وارتضى الإسلام ديناً له، وكان الهدف من هذا التأثير تمثل في الحذر من احتكار الاموال بين ايدي القلة ((كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ)) سورة الحشر – الآية٧.

و ((وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ)) سورة البقرة – الآية٢١٩، والعفو هنا يشير إلى كل ما زاد عن الحاجة.

واذا بات فرد واحد جائعاً فالامة كلها مسؤولة، وهذا القانون الانساني المبدئي يؤكد قيمة ((الضمير)) فالفرد الذي غادره الضمير لا يمكن أن يحس بآلام الآخر، وبهذا يكون الضمير هو الدرع الواقي لسلوك الفرد والمرجع الذي يرجع إليه عندما يواجه تناقضات الحياة.

إن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق، والآن يمكن أن يثار السؤال التالي: ((هل إن السياسة التي جاءت بعد عهد الرسول(ص) مثلت الحق الذي اراده الله؟

لقد وضع عمر بذرة المدخلات، وضعها نواة، ثم تركها تنمو وتنمو إلى أن اعطت ثمارها على مر الايام من بعده، هذه النواة كانت حقيقة واقعة ليس إلى نكرانها سبيل، بذرة عمر انبعثت بعد ذلك سعيراً ذاكي الضرام، اشعل عمر الجذوة وتركها تتقد وتأكل النفوس إلى يومنا هذا، بذرة جعلت الناس يروا عالماً غير ذلك الذي ابتناه لهم الإسلام، فلقد اوشكت المساواة بين الافراد أن تكون معدومة، بل انها انمحت اصلاً ما دام قد قر في اذهان الجمور انه لا مساواة إلا بتكافؤ الفرص امام الجميع للرزق الميسور.

كان ابن الخطاب يظن ان البذرة التي انبتها سوف تنطوي مع الماضي وينقضي امرها واجلها بانقضاء اجله، ان طريقة تقسيم العطاء بين الناس الذي اقره سوف يتوقف بعده ولكن مما لاريب فيه ان عوامل اخرى غابت عن هذا الرجل، ابرزها عامل ديمومة الانحراف واشعال الفتنة بين المسلمين الى يوم تقوم الساعة، فعلى سبيل المثال لا الحصر فان الاساس الذي وضعه عمر للتقسيم لم يجعل المسلمين من خلاله كلهم على سواء ورتبهم درجات ومنازل لكل مستوى ولكل مرتبة ولكل درجة حظ من العطاء معلوم، هذا التقسيم الذي يرفضه الاسلام وقيمه وتعاليمه اصبح بعد عمر نظاماً وقانوناً اضيفت له قوانين فرعية كثيرة زادت من تقسيماته وزادت من قوة ظلمه وزادت من ترسيخه قيم البداوة تعتمد التمييز القبلي اساساً لحياتها.

اعترف عمر بهذا التقسيم الظالم الذي اقره وعمل به طيلة حياته وحكمه، ذلك انه في آخر عهده ودَّ لو تاب ثانية الى نظام التسوية وفي هنا قال:

((... والله لئن بقيت الى هذا العام المقبل لالحقن آخر الناس باولهم، ولاجعلنهم رجلاً واحداً...)). ولكنها رغبة لم تتحقق، ومضى الرجل عن الدنيا الى مثواه الاخير وقد خلف امته الكثير من الاختراقات من ابرزها تطاول الطلقاء وابناء الطلقاء على الدولة الاسلامية وقيمها ودستورها ومؤسسها، فلقد انعدمت المروءة والنخوة والمساواة بين المجتمع واتسعت هوة الفوارق الاجتماعية وتسلق اعداء الاسلام واعداء الرسول(ص) مواقع القرار.

لقد نضجت بذرة عمر وحان وقت اقتطافها، فهذا زيد بن ثابت اجتمع له من الذهب والفضة ما كانت الفؤوس وحدها اداة تكسيرها، وهذا عبد الرحمن بن عوف وما اقتناه من اباعر وافراس عديدها الآلاف، وهذا طلحة وما يملك المئات من العبيد والإماء، ثم هذا الزبير وما يملك من قصور ومراعي في مصر والبصرة والكوفة وسواها مدن البلدان، انها الثروة والترف والرفاهة التي ابعدت هؤلاء المدخلات عن جادة الاسلام.

بالمقابل فان هناك صحب محمد(ص) فقد عسر عليهم بعده أن ينظروا الدنيا بمثل نظرته، وأن يعالجوا شهوة النفوس بالصبر والرياضة وأن يجعلوا متع الحياة تحت مواطيء الاقدام... كان عصياً بلا ريب على طبائعهم البشرية – امام اغراء الذهب – حتى أن يقولا كما قال حبيبهم المصطفى:

((ما يسرني إن لي مثل احد انفقه في سبيل الله اموت واترك منه قيراطين...)).

قيل:

((أو قنطارين يا رسول الله؟)).

قال رسول الله (ص):

((بل قيراطين !)).

جاء بلال إلى النبي (ص) ذات يوم، وكان خازناً له، فقال له، قد قضيت جميع ديونك يا رسول، ولم يبق عندي سوى اوقيتين من الذهب.. فقال له النبي(ص): ((انظر يا بلال أن تريحني منهما فلست بداخل على احد من اهلي حتى تريحني منهما)).

وقد بقي النبي (ص) في المسجد لايبرحه حتى يريحه بلال من هذا المال الذي فضل لديه.. وشاءت الصدفة أن لا يأتي في ذلك اليوم محتاج يطلب كسوة أو طعاماً.. فبات النبي(ص) في المسجد ليلته تلك حتى اصبح الصباح.. وعند ذاك شاء الله أن يريح نبيه (ص) فبعث اليه فقيرين... فاعطاهما بلال الذهب وقال للنبي(ص): ((قد اراحك الله منه))، فقال النبي (ص): ((الحمد لله !)) [1].

وتروى مثل هذه الرواية عن علي بن ابي طالب (ع) فقد كان هذا الامام لا يطمئن اذا جاءه مال إلا بعد أن يوزعه على المحتاجين فوراً، وكان يخشى أن يبطئ في ذلك فيتأخر العون على من هو في حاجة اليه،

(١) انظر إلى: عبد الحميد السحار ، بلال مؤذن الرسول(ص) / ص٦٩-٧٠.

فكان لاينام الليل وعنده مال زائد عن حاجته، اذ ربما كان هناك من الفقراء من بات من غير عشاء [١].

قال ابن علقمة: ((دخلت على علي عليه السلام فاذا بين يديه لبن حامض آذتني حموضته وكسر يابسة، فقلت: يا امير المؤمنين، اتأكل مثل هذا؟

فقال لي:

((يا ابا الجنوب: كان رسول الله(ص) يأكل ايبس من هذا ويلبس اخشن من هذا، واشار إلى ثيابه فان لم آخذ بما أخذ به خفت ألا الحق به)) [٢].

يروى أن عمر بن الخطاب دخل ذات يوم على النبي محمد(ص) فوجده مضطجعاً على حصير وقد أثر الحصير في جنبه، فسأل النبي(ص): ((ألا تتخذ لك فراشاً ليناً يا رسول الله؟))، فأجابه النبي(ص): ((ماذا يا عمر... أتظنها كسروية؟ انها نبوة لا ملك !)) [٣].

وقال النبي(ص): ((اذا ذهب كسرى فلا كسروية بعده... وإذا ذهب قيصر فلا قيصرية بعده... ولقد اظلكم من الله خير جديد... نبوة ورحمة)) [٤].

---

(١) انظر إلى: عباس العقاد / عبقرية الامام علي / ص٥٢.

(٢) نفس المصدر السابق / ص٥٣.

(٣) انظر: خالد محمد خالد: الدين في خدمة الشعب / ص٢٦.

(٤) نفس المصدر السابق / ص١١.

ولست ادري ماذا كان يقول النبي(ص) لو رأى بعض خلفائه من بعده والحكام والسلاطين والامراء الذين يدعون بانهم يحكمون دول اسلامية وان الدين الاسلامي هو الدين الرسمي لدولهم يفوقون كسرى وقيصر بترفهم واسرافهم وظلمهم واستهتارهم ونهبهم الذي لاحدود له.

ثم يدور الزمن دورته واذا بالمدخلات التي دخلت الإسلام زمن محمد (ص) تظهر على هيئة خلفاء وحكام وهم يعيدون مجد الاكاسرة والقياصرة بالتمام والكمال، وربما اضافوا إلى ذلك من نتاج عبقريتهم شيئاً كثيراً.

اتذكر اني دخلت في حوار مع احد الاصدقاء في الغرب عند حضوري احدى المؤتمرات، وفي جملة ما سألني: هل تعتقد انكم اضفتم شيئاً من خلال دعوتكم الاسلامية شيئاً إلى الانسانية؟ أو انكم كما تدعون نشرتم العدل والمساواة ورفعتم الاستبداد والقمع والظلم والاضطهاد؟ ألا تعتقد أن هذا الادعاء هو كذبة كبرى؟ قلت له بكل تأكيد، لقد فعلنا ذلك !!! ضحك ضحكة مملوءة بالاستهزاء ثم استطرد قائلاً: أقنع بهذا الطرح نفسك، فلا احد مثقف أو نصف مثقف يصدق ما تقول، إن الذي فعلتموه لا يستدعي شيئاً واحداً، اقمتم امبراطورية مكان اخرى، وقضيتم على كسرى لتصنعوا كسرى آخر محله، وهذا يعني انكم ابدلتم ظلماً بظلم اكبر وأعظم، كما أنكم اضفتم إلى الظلم الاول انواع اخرى من الظلم تتجاوز حدود العقل، تجاوزتم على الضعيف فضاعفتم فقره، وتجاوزتم على المرأة فسلبتم حريتها وكرامتها وجعلتموها سلعة تشترى وتباع، ثم بعد هذا كله جعلتم من الحاكم الظالم الجائر الفاسق

الفاجر ولياً للامر عليكم، أي مهزلة أكبر واشنع من هذه المهزلة، واي خرافة اسخف من هذه الخرافة ثم ادهشني حينما قال: عندكم مثال يقول: اذا لم تستحي فاعمل ماشئت، وانا بدوري اقول: اذا انتم لاتستحوا من تاريخكم الملطخ بالدماء وانتهاك الحريات وطمس انسانية الانسان فأدعو ما شئتم.

قال هذا ولم يسمح بفرصة كي اتابع دفاعي، حيث ذهب وتركني افكر بما قال واحلل مضمون كلامه، وتوصلت بعد هذا إلى أن الحقيقة لايمكن أن تغطى بالادعاء، إن هذا هو الواقع الذي لا مراء فيه، فالخليفة أو امير المؤمنين لم يكن يختلف عن أمير الفاسقين الفاجرين الكافرين إلا من حيث الادعاءات المسنودة أو المدعومة بالكثير من المظاهر والطقوس والشعائر السطحية الآنية.

فتجد الخليفة يتهجد ويركع ويصلي ويسجد ويكثر من البكاء خشية من الله ومن يوم لا ينفع لا مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم، وتراه يحج سنة ويغزو سنة.

وهذه كلها امور ظاهرية وهي ضمن الآليات المستخدمة لتضليل وخداع حشد القطيع ((الرعية)) فالمعتقلات هي المعتقلات، والسياف هو السياف، والحاشية صاحبة الحظوة والامتيازات هي الحاشية، إلا أن هناك اختلاف جوهري يجب أن نتطرق اليه بجدية، يكمن هذا الاختلاف: إن الحاكم الظالم الجائر الكسروي أو القيصر كان يقول وبصراحة، انا الحاكم، أنا الاوحد، انا المصون غير المسؤول، احكم بارادتي، واقرر برغباتي، واضرب بسيفي، واهدي بمزاجي، أما الخليفة

واميرالمؤمنين، فهو يقول ويدعي انه يحكم بأمر الله وينهب اموال الدولة بأمر الله، ويضاجع الجواري بأمر الله، ويسمع إلى المغنين ويحيي السهرات الحمراء بأمر الله، ويقتل من يعترض أو يتقد بأمر الله، ويقرب ويبعد بأمر الله، وان موقفه هذا جاء بأمر الله.

إن هذا الحاكم المسلم لو كان يعلم انه يحكم مجتمعاً انسانياً لا يفرط بقيمه أو كرامته، وانه مجتمع تعلم لغة السؤال، لما تجرأ وحكم بهذا النوع من الحكم الجائر المستبد، إلا انه يعلم علم اليقين انه يحكم مجتمعاً يحتاج إلى الف سنة حتى يكون كائناً ويحتاج إلى الف سنة اخرى حتى يكون بشراً ويحتاج إلى الف سنة حتى يكون إنساناً ويحتاج إلى الف سنة حتى يكون مسلماً ويحتاج إلى آلاف السنين حتى يكون مؤمناً، وقد يكون أو لايكون، فليس هناك ضمان لمفهوم الايمان أن يكون من ضمن المنظومة القيمة للاعرابي أو العرباني الذي استعذب العبودية.

هذه المحكمات التي تحكم الشخصية العربانية هي في الحقيقة امراض اجتماعية ملازمة لهذه الشخصية الخانعة المستسلمة المتدنية الذات، الفاقدة للاعتبار الذاتي، لذلك فهي شخصية تلتزم بعامل الوراثة لذا نراها تنتقل من جيل إلى آخر بشكل جامد اجمالاً، شخصية تحكمها العادة والتقليد بالسلوك لا القانون الحياتي، شخصية تحكمها مرتبة جامدة ثابتة وبشكل لا يمكن تغييرها أو تبديلها، فجيل اليوم هو بالضبط الجيل الذي عاش قبل الإسلام وبعد الإسلام، وقبل الحداثة وبعد الحداثة وسيظل إلى ما لانهاية، انها شخصية

عبودية اقسمت أن لا تكون، وقد يسأل ساءل ماهي المسوغات لمثل هذا الحكم؟ نقول:

- إنها شخصية تفتقر اصلاً إلى الكفاءة.
- إنها شخصية منخفضة الانتاجية بصورة مخيفة.
- إنها شخصية رضوخية.
- إنها شخصية استرخائية.
- إنها شخصية مقاومة لكل تغير.
- إنها شخصية غبية.
- إنها شخصية إدعائية.
- إنها شخصية تفتقر لقوى الرفض.
- إنها شخصية تفتقد إلى لغة السؤال.
- إنها شخصية حاضوية سلفية.
- إنها شخصية مشلولة، لذلك فهي تقبل اقصى حالات البؤس.
- إنها شخصية تفتقر لمقومات القيادة، لذلك تتصف بالتبعية.
- إنها شخصية فاقدة لحرية الحركة.
- إنها شخصية اعتباطية،
- إنها شخصية لاتملك الخيار، لذلك فهي شخصية تنتقل من الولاء لسيد إلى سيد آخر.

من هنا ترسخ نظام الحكم ذو الطابع الاستبدادي في المجتمع العرباني فليس هناك رأي ولا ديمقراطية ولا علاقات مساواة وتكافؤ،

كما ترسخت الادارات الفاسدة التي تخدم اغراض وامتيازات القلة، ويتوج الكل جهاز شرطة وجيش قمعيين اساساً.

هذه البنية الاجتماعية المتخلفة هي التي عطلت كل محاولات النمو الاستثنائية التي رفضت القمع والقهر والتسلط والرضوخ وحرمان الانسان من انسانيته، واذا اراد القارئ أن يدرك صحة ما ذهبنا اليه من خلال هذه القصة: يقول ابو الفرج في حديثه عن محمد بن ابراهيم الحسني:

((... فبينما هو يمشي في طريق الكوفة اذ نظر إلى عجوز تتبع احمال الرطب فتلتقط مايسقط منها فتجمعه في كساء رث، فسألها عما تصنع بذلك، فقالت: أني امرأة لا رجل لي يقوم بمؤنتي ولي بنات لايعدن علي انفسهن بشيء، فانا اتتبع هذا الطريق واتقوته أنا وولدي، فبكى بكاءاً شديداً، وقال:

((أنت والله وأشباهك تخرجونني غداً حتى يسفك دمي...))[1].

الحالة الاستثنائية هنا تتمثل في ((محمد بن ابراهيم الحسني)) نعم حالة استثنائية لأنها تعيش في مجتمع من القسوة والعنف المفروض، عنف يأتي من السلطان الجائر الذي لايهمه حالة هذه المرأة وامثالها، وعنف المجتمع الذي قبل هذه الحياة القاسية، ولم يعد يشكل تهديداً للحاكم، فكل فرد من هذا المجتمع الرضوخي يحاول أن يحمي نفسه، فرد يفتقر منذ الولادة سلاح المواجهة، فرد عاجز قلق، يعش حالة

(١) انظر إلى: ابو الفرج الاصفهاني / مقاتل الطالبيين / ص٣٤١.

التهديد الدائم، فرد تعود على البلاء والشقاء وقسوة العيش حتى اصبحت هذه الحالة ملازمة له صباحاً ومساءاً.

وقد صدق محمد بن ابراهيم الحسني عندما تنبأ بمصيره، فقد تحمل الموقف المأساوي لوحده ولم يشاركه احداً من المجتمع الخضوع، فقد ثار بوجه القوة الاستغلالية محاولاً مواجهة هذا الاعتباط العنيف الذي مس جميع مناحي الحياة الذي فرضه السيد المتسلط أو الحاكم المستبد، فلا رزق ولا قيمة، ولا كرامة، ولا مكانة، ولا حياة، إلا ماشاء خليفة المسلمين وأمير المؤمنين أن يتكرم به، ولا اظنه فاعل هذا.

وقع محمد بن ابراهيم الحسني في قدره المفروض وجاد بحياته ثمناً لموقفه الانساني، فقد نسى هذا الثائر انه يعيش بين مجتمع عرباني كتبت عليه الذلة والمسكنة منذ بدأ الوجود.

ولا ريب إن وعاظ السلاطين وفقهاء البلاط، أيدوا جميعاً القصاص الذي تعرض له ((محمد بن ابراهيم الحسني)) وباركوا السلطان قراره وحكمه، ولا ريب أيضا أن الحاكم أمير المؤمنين خصص جزءاً كبيراً من الاموال لهؤلاء الوعاظ جزاءاً لموقفهم الديني والشرعي الذي احل الحاكم من خلاله سفك دم الثائر ((محمد بن ابراهيم الحسني)) فالواعظ أو الفقيه يعطى على مقدار ما يتحذلق به من الفتاوي التي تنسجم وافعال الخليفة وسلوكياته.

يحدثنا الرحالة الاندلسي ((ابن جبير)) عن مجالس الوعظ المملوءة بحشد القطيع، فيأتي في وصفها بنوع من الاستغراب.

((ولا جرم أن للوعاظ في طريقة الوعظ والتذكير، ومداومة التنبيه والتبصير، والمثابرة على الانذار المخوف والتحذير، مقامات تتنزل لهم من رحمة الله تعالى ما يحط كثيراً من اوزارهم ويسحب ذيل العفو على سوء آثارهم ويمنع القارعة الصماء أن تحل بديارهم لكنهم معهم يضربون في حديد بارد، ويرمون تفجير الجلامد...))[١].

ثم يصف ((ابن جبير)) خطبة احد الوعاظ وقد حضرها بنفسه وينعتها بمنظومة الدرر، فيقول: ((إنه اتى... برقائق عن الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب اشتياقاً، وذابت بها الانفس احتراقاً، إلى أن علا الضجيج وتردد بشهقاته النشيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، كل يأتي ناصيته بيده فيجزها، ويمسح على رأسه داعياً له، ومنهم من يغشى عليه فيرفع بالاذرع اليه، فشاهدنا هولاً يملأ النفوس إنابة وندامة، ويذكرها هول يوم القيامة، فلو لم نركب ثبج البحر، ونعتسف مفازات القفر إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة رابحة والوجهة المفلحة الناجحة...))[٢].

ثم وصف ((ابن جبير)) مجلساً آخر من مجالس احد الوعاظ ولكن هذه المرة بحضور خليفة المسلمين واميرهم ومن حضر من حاشيته نساءاً ورجالاً، ويقول في تأثير الموعظة ما يلي:

((... فارسلت وابلها العيون، وابدت النفوس سر شوقها المكنون،

(١) انظر إلى: ابن جبير: رحلة ابن جبير / ص١٧٣-١٧٤.

(٢) نفس المصدر السابق / ص١٧٦.

وتطارح الناس عليه، بذنوبهم معترفون، وبالتوبة معلنين، وطاشت الالباب والعقول، وكثر العزلة والذهول، وصارت النفوس لا تمتلك تحصيلاً ولا تميز معقولاً، ولا تجد للصبر سبيلاً)) [1].

ويضيف ابن جبير: إن الخليفة بكى مع الناس بكاءاً شديداً بل مراً، وقد أُغمي عليه عدة مرات من خشية الله.

ولعل حشد القطيع الذي حضر الموعظة مع خليفتهم المؤمن لا يهمهم ولا يبالوا إن كان الفقراء بمجاميعهم التي تعج بهم أزقة وشوارع البلاد ينامون وهم يتذرعون الجوع والعوز ما دام خليفتهم الذ شاركهم الحزن والبكاء يعيش مع جواريه ليلاً سهرات الانس، ويسمع إلى مغنيه ويبادلهم الكؤوس المعتقة، ذلك إنه ولي الامر، ومن حقه أن يرتاح ويهنأ بالسعادة والهدوء حتى يتفرغ وهو صافي البال لمشاكل رعيته، إنها سيكولوجية حشد القطيع، الذي تعمَّق في معرفتها حكام العالم الاسلامي والعربي.

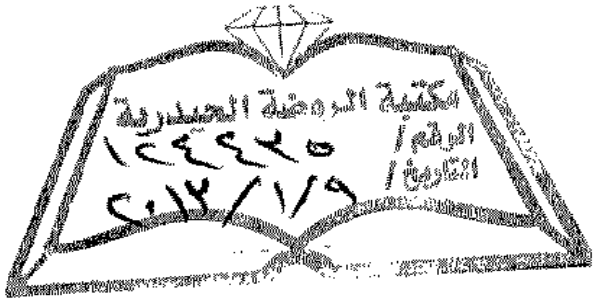

(١) نفس المصدر السابق / ص١٧٧.

من هو ابي ذر الغفاري

أبو ذر الغفاري هو جندب بن جنادة بن عبد الله ، تقدم اسلامه وتأخرت هجرته ، فشهد ما بعد بدر من غزوات رسول الله (ص) توفي منفياً بالربذة سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة، جعل أبو ذر الامام علي عليه السلام معياراً يحدد الصورة التي يجب ان يكون عليها الانسان المسلم المؤمن، وقد احتل هذا المعيار مكانة محورية في كل مفردات حياته.

اذن لا انفصام بين هذا الصحابي والقيم التي اكدها الاسلام، فهو مسلم مؤمن فاعل بهذه القيم ومنفعل لها، وقد اعطى أبو ذر لهذا المفهوم التفاعلي معنيين:

- المعنى الأول: التمسك بالحق وعدم التنازل عنه تحت أي ظروف او ضغوط مادية او معنوية.
- المعنى الثاني: الايمان لا يتحقق في عزلة او في ابتعاد عن منهج علي ابن ابي طالب، فنهج علي (ع) يمثل السياقات السماوية التي بنيت بناءاً على مبدأ الايمان برسالة محمد (ص) الاسلامية لتحقيق النموذج الانساني الذي يريده الله.

مكتبة السنهوري
بغداد شارع المتنبي
مكتبة السنهوري - بغداد - شارع المتنبي - عمارة الكاهه جي - ط ١
هاتف: ٠٧٩٠١٨٢٦٤٣٩ - ٠٧٨٠١٩٤٤١٦١ - ٤١٦٠٧٢٧
البريد الالكتروني safaa75200933@hotmail.com alsanhury_library@yahoo.com